جايتو جازدانوف

أمسية عند كلير

ترجمة
هفال يوسف

رواية

جايتو جازدانوف

أمسية عند كلير

رواية

ترجمها عن الروسية

هَفال يوسف

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
العنوان الأصلي: Вечер у Клэр
جايتو جازدانوف ١٩٤٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
حقوق الترجمة © هَفال يوسف

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА

Published with the support of the Institute for Literary Translation, Russia
نُشر هذا الكتاب بدعم كريم من مؤسسة الترجمة الأدبية، روسيا.

جازدانوف، جايتو، ١٩٠٣-١٩٧١.
أمسية عند كلير : رواية / جايتو جازدانوف؛ ترجمها عن الروسية هَفال يوسف - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789779603162
١- القصص الروسية.
أ- يوسف، هَفال (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٩٧٣ / ٢٠٢٤

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات

كلير كانت مريضة.

الكاتب

المترجم

ترجمات الكرمة

«كانت حياتي كلها رهنًا
للقاء مؤكد بكِ»
أ. س. بوشكين

كلير كانت مريضة. كنتُ أمكث عندها مساءات كاملة، وعند مغادرتي يفوتني، كل مرة، قطار الأنفاق الأخير فأعود سيرًا على الأقدام من شارع رينوار إلى ساحة سان ميشيل التي كنت أقيم على مقربة منها. أمرُّ من أمام إسطبل المدرسة الحربية، وتُسمع من هناك صلصلة السلاسل التي تربط الخيول، وتفوح رائحة عرق الخيل النفَّاذة، الغريبة تمامًا بالنسبة إلى باريس، ثم أغذُّ الخُطى عبر شارع بابيلون الطويل والضيق، وفي نهايته يتطلع إليَّ من الواجهة الزجاجية لاستديو تصوير، في ضوء المصابيح البعيدة الباهت، وجهُ كاتب ذائع الصيت، مكوَّن كله من صفائح مستوية مائلة، وعيناه العارفتان بكل شيء تشيِّعانني من وراء نظارتين أوروبيتَين قرنيتين مسافة نصف حي سكني، إلى أن أعبر الشريط الأسود الوامض لبولفار راسباي. أصل أخيرًا إلى فندقي. تسبقني عجائز منهمكات، في أسمال بالية، وهنَّ ينقِّلن أرجلهن الضعيفة، وعلى صفحة نهر السين تشتعل أضواء لا تُحصى، وقد أخذت تخمد في الظلام، وحين أرنو إليها من فوق الجسر ينتابني شعور بأني أشرف على ميناء، وأن البحر تغطيه سفنٌ أجنبية، وقد أُشعلت القناديل على متونها. بعد أن أرنو إلى السين للمرة الأخيرة، أصعد إلى غرفتي وأستلقي فأغرق فورًا في عتمة عميقة تلوح فيها أجساد راعشة، ما إن تتجسَّد أحيانًا في هيئات مألوفة لعينَي حتى تتلاشى وهي في هذه الحال، فكنت في المنام آسفُ لاختفائها، وأتعاطف مع حزنها المتخيَّل غير المفهوم، وأعيش وأغفو في تلك الحال التي لا تفسير لها، والتي لن أعرفها في اليقظة أبدًا. كان على ذلك أن يحزنني، لكني في الصباح كنت أنسى كل ما رأيته في المنام، والذكرى الأخيرة من الليلة السابقة كانت أني فاتتني القطار مرة أخرى. في المساء أنطلق من جديد إلى منزل كلير. لقد سافر زوجها قبل بضعة أشهر إلى سيلان، وكنت وإياها وحدنا، لا يقطع خلوتنا أحد غير خادمتها، عندما تُحضِر الشاي والبسكويت على صينية خشبية عليها صورة رجل صيني نحيل، مرسومة بخطوط دقيقة. هي امرأة في الخامسة والأربعين من العمر تقريبًا، تضع نظارة أنفية ولذلك لم تكن تشبه خادمة، وكانت دائمًا مستغرقة في التفكير في شيء ما، فتنسى إحضار ملقط السكر تارة، والسكرية تارة، وتارة تنسى إحضار صحن أو ملعقة، فتدخل وتسأل إن كان يلزم «مدام» شيءٌ، وكلير، المتأكدة لسبب ما من أن خادمتها ستشعر بالإساءة إن هي لم تطلب منها شيئًا، تقول: «أجل، أحضري الحاكي والأسطوانات من مكتب «المسيو» من فضلك»، مع أن الحاكي لم يكن له لزوم مطلقًا، وبعد خروج الخادمة يبقى حيث وضعته، وتنساه كلير فورًا. كانت الخادمة تجيء وتذهب خمس مرات كل مساء، وحين قلت لكلير إن خادمتها قد حافظت على نفسها جيدًا مقارنة بسنِّها وإن رِجلَيها تتمتعان بهمَّة رِجلَي فتاة شابة، غير أني لا أراها طبيعية تمامًا - فلديها إما هوس بالحركة، وإما إنها ببساطة تعاني ضعفًا غير ملحوظ، لكن مؤكدًا، في القدرات العقلية، مرتبطًا بالتقدم في العمر - نظرت كلير إليَّ في شفقة وأجابت بأن الأحرى بي تهذيب سخريتي الروسية الخاصة من

الآخرين، وأن عليَّ أن أتذكر، حسب رأي كلير، قبل أي شيء آخر، أني جئتُها يوم أمس في قميص بأزرار مختلفة، ولا يجوز أن أضع قفازَي على سريرها كما فعلتُ يوم أمس الأول، وأن أمسك بكتفها كما لو أني لا أصافح يدها بل كتفها، وهو أمر لا مثيل له في الدنيا، وأنها لو أرادت أن تعدِّد خطاياي كلها حيال قواعد اللياقة الأولية لتوجَّب عليها أن تتكلم مدة... استغرقت في التفكير ثم قالت:

- خمس سنوات.

قالت ذلك بجدية بدت في ملامح وجهها. شعرتُ بالأسف لأن في إمكان توافه كهذه أن تكدرها، وأردتُ أن أسألها الصفح، لكنها أدارت إليَّ ظهرها الذي أخذ يرتعش، ووضعت منديلها على عينيها، وحين نظرت إليَّ أخيرًا لاحظتُ أنها تضحك، ثم قالت لي إن خادمتها تعيش قصتها الغرامية الدورية، وإن الرجل وعدها بالزواج، لكنه يرفض ذلك بصورة قاطعة الآن، وإنها لهذا السبب تبدو مستغرقة في التفكير على هذا النحو. سألتُ:

- وما الذي يدعو إلى الاستغراق في التفكير هنا؟ فالرجل قد رفض أن يتزوجها. هل يتطلب فهم أمر بهذه البساطة هذا الوقت كله؟

قالت كلير:

- إنك تصوغ السؤال صياغة مباشرة دائمًا. هذا لا يجوز فيما يخص النساء. إنها مشغولة البال لأن هذا قد أحزنها. كيف لا تفهم ذلك؟

- وهل امتدت قصتها الغرامية طويلًا؟

أجابت كلير:

- لا، أسبوعين فقط.

علَّقتُ قائلًا:

- غريب، فهي تبدو دائمًا منشغلة البال على هذا النحو. قبل شهر كانت مكتئبة وتحلم كحالها الآن.

قالت كلير:

- يا إلهي! كل ما في الأمر هو أنها كانت تعيش قصة غرامية أخرى آنذاك.

قلتُ:

- هذا بسيط جدًّا بالفعل، سامحيني، فلم أكن أعلم أن نظارة خادمتك تخفي وراءها مأساة دون جوان أنثوي ما، غير أن هذا الدون جوان يحبُّ أن يتزوجوه، على النقيض من الدون جوان الأدبي الذي كان موقفه من الزواج سلبيًّا.

لكن كلير قاطعتني وأنشدت في حماسة عبارة بالفرنسية كانت قد قرأتها في ملصق دعائي، وهي تضحك في أثناء ذلك حتى طفر الدمع من عينيها:

طوبى لمالكي «السالامندر» الحقيقية،

فإن المصنع لا يتخلى عنهم أبدًا![1]

ثم عاد الحديث إلى دون جوان، وبعد ذلك، لا أدري كيف، انتقل الحديث إلى النُّساك، إلى

القُمص أفاكُوم(2)، ولكن حين وصل الحديث إلى إغواء القديس أنطونيوس، توقفتُ، لأني تذكرت أن أحاديث كهذه لا تهم كلير كثيرًا، فهي تفضِّل موضوعات أخرى، مثل المسرح والموسيقى، لكن أكثر ما تحبه هو النكات، وكانت تعرف كثيرًا منها. كانت كلير تحكي هذه النكات، الطريفة جدًّا، وغير اللائقة بالقدر نفسه، وحينذاك يتَّخذ الحديث منحى خاصًّا، وتبدو أكثر العبارات براءةً كأنها تتضمن معنى مزدوجًا، وتصبح عينا كلير لامعتين، وحين تكف عن الضحك تعودان معتمتين وآثمتين، ويقطب حاجباها الرفيعان، وما إن أقترب منها حتى تهمس بغضب: «أوه، أنت مجنون»، فأبتعد، وهي تبتسم، وابتسامتها تقول بوضوح: «يا إلهي كم هو ساذج!»، وحينذاك أواصل الحديث الذي انقطع، وأبدأ أشتم بقسوة ما كنت حياله لامباليًا تمامًا عادةً، فأحرص على التحدث بأكبر قدرٍ من الحدة والانزعاج، كأني أريد الانتقام للهزيمة التي مُنيت بها توًّا. تُوافق كلير على حُججي كلها في تهكم، فيجعل تنازلها لي بهذه السهولة هزيمتي جليةً أكثر. تقول: «نعم يا صغيري، ما تقوله هذا مثير جدًّا للاهتمام»، من دون أن تُخفي ضحكتها الساخرة، التي لا علاقة لها بما أقول وإنما بهزيمتي تلك، مشددة على كلمة «هذا» التي تنمُّ عن الاستخفاف، لتقول إن إثباتاتي كلها ليس لها أي معنى بالنسبة إليها. أبذل عندها قصارى جهدي للتخلص من غواية الاقتراب من كلير ثانيةً، لأني أدرك أن أوان ذلك قد فات، وأُجبر نفسي على التفكير في أمر آخر، فيتناهى صوتها إليَّ خافتًا. تضحك وهي تروي لي تفاهات ما، وأستمع إليها مشدود الانتباه. إلى أن لاحظت، يومًا، أن كلير تلهو، ويسليها كوني لا أفهم شيئًا في لحظات كهذه. في اليوم التالي ذهبتُ إليها مهادنًا، ووعدت نفسي بعدم الاقتراب منها وباختيار موضوعات تجنِّبني خطورة تكرر لحظات الإذلال كالتي حدثت في اليوم السابق. تحدثتُ عن الأمور المحزنة التي اضطررتُ إلى رؤيتها، وأصبحت كلير صامتة وجادة وأخبرتني بدورها كيف ماتت أمها. قالت وهي تشير إلى السرير:

- اجلس هنا.

فجلستُ على مقربة شديدة منها، ووضعت هي رأسها على ركبتَي وقالت:

- نعم، يا صغيري، هذا محزن، ونحن أشقياء جدًّا.

استمعت إليها وخفت أن أتحرك، لأن أدنى حركة مني قد تهين حزنها. أخذت كلير تمسِّد لحاف السرير بيدها، في هذا الاتجاه تارة وفي الاتجاه الآخر تارة، كأنما حزنها يتلاشى في هذه الحركات التي كانت لاشعورية في البداية، ثم جذبت انتباهها، وانتهى الأمر بأن لاحظت أن الجلد حول ظفر خنصرها مقصوص بشكل سيئ، فمدَّت يدها إلى المنضدة الصغيرة قرب السرير، التي كانت مقاريض الأظفار موضوعة فوقها، وابتسمتْ مرة أخرى ابتسامةً مديدة، كأنما فهمت وتتبَّعت في داخلها مسار الذكريات الطويل الذي انتهى بفكرة غير متوقَّعة لكنها ليست محزنة على الإطلاق، ورمقتني لوهلة بعينَين متجهمتين. وضعتُ رأسها على الوسادة

بحذر وقلت:

- اعذريني يا كلير، لقد نسيت سجائري في جيب معطفي.

وخرجتُ إلى الرواق، وتناهت إليَّ ضحكتها الخافتة. عند عودتي إلى الغرفة علَّقت كلير:

- لقد استغربت. اعتقدت أنك تحمل سجائرك في جيب بنطالك، كما كنت تفعل حتى الآن. هل غيَّرت عادتك؟

وحدقت إلى عينَي مباشرة وهي تضحك مشفقة عليَّ، وأدركتُ أنها فهمت تمامًا سبب قيامي وخروجي من الغرفة. فضلًا عن أني غفلت وأخرجت على الفور علبة سجائري من الجيب الخلفي لبنطالي. قالت كلير كأنما تتوسلني أن أقول لها الحقيقة:

- أخبرني، ما الفرق بين المعطف والبنطال؟

أجبت:

- هذا قاسٍ جدًّا يا كلير.

- أكاد لا أعرفك يا صغيري. شغِّل الحاكي، فهذا سوف يسليك.

ذلك المساء، في أثناء مغادرتي منزل كلير، تناهى إليَّ من المطبخ صوت الخادمة المرتج والخافت. كانت تغني أغنية مرحة بشجن وحنين، ما أثار دهشتي.

إنه قميص وردي،

وداخله امرأة صغيرة،

يانعة كزهرة متفتحة،

بريئة كزهرة الحقول.

وضعَت الخادمة من السوداوية في هذه الكلمات بقدر ما وضعَت من الحزن الكسول، بحيث بدت معانيها مختلفة عما هو مألوف، وقد ذكَّرتني فورًا عبارة «يانعة كزهرة متفتحة» بوجه الخادمة المتقادم في العمر، مع نظارتها الأنفية وقصتها الغرامية وشرودها الدائم. أخبرتُ كلير بذلك، وقد تعاملَت مع تعاسة خادمتها بتعاطف - لأنَّ شيئًا كهذا لم يكن ممكنًا أن يحدث لها، وهذا التعاطف لم يكن ليثير فيها مشاعر أو هواجس شخصية - وقد أعجبتها الأغنية كثيرًا:

إنه قميص وردي،

وداخله امرأة صغيرة.

أعطت كلير هذه الكلمات أكثر المعاني اختلافًا، تارة استفهامية، وتارة توكيدية، وتارة احتفالية وساخرة. صرت أفقد صوابي كل مرة أسمع فيها هذا اللحن في الشارع أو في المقهى. ذهبت ذات يوم إلى منزل كلير ورحت أذمُّ هذه الأغنية بالقول إنها فرنسية جدًّا، وإنها بذيئة، وإن غواية فكاهة خفيفة كهذه ما كانت لتستهوي أي ملحن يتمتع بالحد الأدنى من الجدارة؛ ها هنا يكمن الفارق الرئيسي بين النفسية الفرنسية والأمور الجِدِّية. قلت إن مقدار عدم الشبه بين هذا

الفن والفن الحقيقي يعادل مقدار عدم الشبه بين لؤلؤة اصطناعية ولؤلؤة حقيقية.

- يفتقر هذا إلى الشيء الأكثر أهمية.

قلت ذلك، وقد استنفدتُ حُججي وبتُّ حانقًا على نفسي. أومأت كلير برأسها مصادقة على كلامي، ثم أمسكت بيدي وقالت:

- يفتقر إلى شيء واحد فقط.

- ماذا بالتحديد؟

ضحكَت وأنشدت:

إنه قميص وردي،

وداخله امرأة صغيرة.

بعد أن تعافت كلير من المرض وأمضت بضعة أيام ليس في السرير إنما في كرسي طويل للاستلقاء، وشعرت بأنها بصحة جيدة، طلبت مني مرافقتها إلى السينما. بعد السينما جلسنا قرابة الساعة في مقهى ليلي. كانت كلير فظة جدًّا معي، وكثيرًا ما تقاطعني. عندما أمزح تحبس ضحكتها وتقول وهي تبتسم رغمًا عنها: «لا، هذه الصياغة ليست موفقة»، وبما أنها كانت في مزاج سيئ، كما بدا لي، فقد كان لديها انطباع بأن الآخرين أيضًا ممتعضون من كل شيء ومستاءون. ولقد سألتني في دهشة، مع أن سلوكي لم يكن مختلفًا عن المعتاد:

- ما بك مساء هذا اليوم؟ إنك لست كما عهدتك.

أوصلتها إلى منزلها، وكان المطر يهطل. عند الباب، حين قبَّلتُ يدها مودعًا، قالت فجأة بانفعال:

- هيا ادخل، عليك أن تشرب فنجانًا من الشاي.

وقد نطقت هذا الكلام بنبرة غاضبة كما لو أنها أرادت أن تطردني قائلة: «حسنٌ، اذهب. ألا ترى أني قد سئمتك؟».

دخلت. شربنا الشاي في صمت. كنت متضايقًا، فاقتربت منها وقلت:

- لا داعي إلى أن تحنقي عليَّ يا كلير. لقد انتظرت لقاءك عشر سنوات، وأنا لا أطلب منك شيئًا.

أردت أن أضيف أن انتظارًا طويلًا كهذا يعطي المرء الحق في المطالبة بأبسط وأدنى حدٍّ من التساهل، لكن عينَي كلير البُنيتين أصبحتا سوداوين تقريبًا، ورأيت في فزع - لأني انتظرت ذلك طويلًا وكنت قد فقدت الأمل فيه - أن كلير تقدمت مني حتى التصقت بي ولامس صدرها سترتي المزررة بصفَّين من الأزرار، فعانقتني ودنا وجهها من وجهي. فجأة، لسبب ما، اجتاحتني، بصورة غير اعتيادية، رائحة المثلجات الجليدية التي تناولتُها في المقهى. قالت:

- كيف لم تفهم؟

وسرَت رعشة في جسدها. عينا كلير الغائمتان اللتان تتمتعان بقدرة هائلة على التحول - فهما قاسيتان تارة، وصفيقتان تارة، وضاحكتان تارة - عيناها الكدرتان رأيتهما أمامي مدة طويلة، وحين غفتْ أدرتُ وجهي ناحية الجدار وزارني حزني السابق، وكانت أمواجه الشفافة تطوف فوق جسد كلير الأبيض، بمحاذاة قدمَيها وصدرها، والحزن يخرج من فم كلير مع نَفَسِها غير المرئي. كنت مستلقيًا بجوارها وعاجزًا عن النوم، وحين أبعدتُ نظري عن وجهها الذي أصبح شاحبًا، بدا لي أنَّ لون ورق الجدران الأزرق في غرفة كلير أصبح فاتحًا فجأة، وأخذ يتغير بصورة غريبة. اللون الأزرق الغامق، الذي رأيته أمام عينَي المغمضتين، بدا لي دائمًا تجليًا لسرٍّ مدرَك ما، وكان هذا الإدراك مبهمًا ومباغتًا ويتسمَّر تمامًا، من دون أن يتسنى الوقت للإفصاح عنه حتى النهاية، كما لو أن ذلك مجهودٌ تبذله روح أحدهم، وقد توقَّف ومات، وانبثقت مكانه خلفية زرقاء داكنة. لقد أصبحت هذه الخلفية فاتحة اللون الآن، كما لو أنَّ ذلك المجهود لم ينتهِ بعد وأن اللون الأزرق الغامق، وقد ازداد ألقًا، وجد في نفسه تدرُّجًا لونيًّا غير متوقَّع، مشوبًا بحزن معتم ملائم بصورة غريبة لشعوري، ويرتبط بكلير من دون شك. جلست الأطياف الزرقاء الفاتحة، بعظام أكفِّها المقطعة، في المقعدين القائمين في الغرفة؛ تعادي بعضها بعضًا بلامبالاة، مثل الأشخاص الذين حلَّ بهم المصير نفسه، العقوبة نفسها، لكن بسبب أخطاء مختلفة. كانت حاشية ورق الجدران البنفسجية قد تحدَّبت في خط متموِّج شبيه بإشارة رمزية إلى الدرب الذي تسبح عبره سمكة في بحر مجهول، وكان كل شيء يندفع عبر الستائر الخفاقة للنافذة المفتوحة، لكن تيار الهواء البعيد، الملوَّن بذلك اللون الأزرق الفاتح نفسه الذي يحمل معه المعرض الطويل للذكريات التي تنهمر كالمطر عادةً، والجارفة بالقدر نفسه، لم يكن قادرًا على الوصول إليَّ؛ لكن كلير استيقظت، فاستدارت نحوي وتمتمت:

- ألم تنم بعد؟ نَمْ يا صغيري، وإلا ستكون متعبًا في الصباح.

وانطفأت عيناها ثانيةً، إذ لم تكن قادرة على التخلُّص من سلطان النوم، وما إن نطقت هذه العبارة حتى غفت ثانيةً؛ بقي حاجباها مرفوعين، وبدت وهي نائمة كأنما مندهشة مما يحدث لها الآن. كانت دهشتها تلك غريبة على طبعها لأنها، عند استسلامها لسلطة النوم، أو للحزن، أو لأي شعور آخر، مهما يكن هذا الشعور قويًّا، لم تكفَّ عن أن تبقى نفسَها. وبدا أن أقوى الهزات لا تستطيع أن تغير شيئًا في هذا الجسد المتكامل، ولا أن تقوِّض هذه الفتنة الأخيرة التي لا تُقهر، التي جعلتني أهدر عشر سنوات من حياتي في البحث عن كلير وعدم نسيانها في أي مكان وزمان.

قلت في نفسي مستذكرًا: لكن كل قصة حب تشتمل على حزن؛ حزن بلوغ الحب مرحلته الختامية ودُنوِّ أجله إذا كانت قصة الحب سعيدة، والحزن بسبب الاستحالة وفقدان ما لم يكن لنا قَطُّ إذا بقي الحب عديم الجدوى. وكما كنت أتشوَّق إلى الثروات التي لم يكن لديَّ شيء منها،

كذلك كنت أتأسَّف سابقًا على كلير التي كانت لغيري، كذلك الآن - وأنا مستلقٍ في سريرها، في شقتها في باريس، في سُحب غرفتها الزرقاء الفاتحة التي كنت أعدُّها قبل هذا المساء غير قابلة للتحقُّق ولا وجود لها، التي تحيط بجسد كلير الأبيض، المغطى في ثلاثة مواضع بشَعر مخجل ومُغوٍ إلى حدِّ الألم - أتأسَّف على أني لم أعد قادرًا على أن أحلم بكلير، كما حلمت بها دائمًا. ولسوف يمرُّ زمن طويل قبل أن أختلق لنفسي هيئة مختلفة لها، لتصبح هذه الهيئة، بمعنى مختلف، غير قابلة للتحقق بالقدر الذي كان فيه هذا الجسد، وهذا الشَّعر، وهذه السحب الزرقاء الفاتحة غير قابلة للتحقق حتى الآن.

فكرت في كلير، في المساءات التي أمضيتها عندها، ورحت أتذكر شيئًا فشيئًا كل ما سبقها، وكان عدم إمكانية فهم ذلك كله، وعدم إمكانية التعبير عنه، ثقيل الوطء عليَّ. بدا لي واضحًا في ذلك المساء أكثر من أي وقت مضى أني لا أستطيع، مهما بذلت من جهد، أن أستوعب التعاقب غير المتناهي ذاك للأفكار والمشاعر والأحاسيس التي انبثقت جملةً في ذاكرتي كسلسلة من الظلال المنعكسة في المرآة المتأخرة، العكرة والمائعة، للمخيلة، ولا أن أشعر بذلك التعاقب. الأحاسيس الأكثر روعة، والأكثر حِدَّة، التي أحسستُ بها يومًا، أدين بها للموسيقى، وكل ما أتوق إليه هو وجودها السحري واللحظي، لكن من دون جدوى، ولا يمكنني العيش على هذا النحو. كثيرًا جدًّا ما أفهم فجأة في حفل موسيقي ما كان يبدو لي حتى تلك اللحظة عصيًّا على الإدراك. توقظ الموسيقى فيَّ فجأة أحاسيس جسدية غريبة كنت أعتقد أني عاجز عن الإحساس بها، لكن هذه الأحاسيس تختفي مع أصوات الأوركسترا الأخيرة المتخامدة، فأعود مرة أخرى إلى الغموض وعدم اليقين اللذين أعيش فيهما غالبًا. كان المرض، الذي أنشأ لي مقرًّا خياليًّا بين الواقعي والمتوهَّم، يكمن في عدم قدرتي على الشعور بالفرق بين قوة مخيلتي والمشاعر الحقيقية المباشرة التي تثيرها الأحداث التي تقع لي. كان ذلك شيئًا من قبيل انعدام ملكة اللمس الروحي. كان كل شيء تقريبًا يفتقر في عينَي إلى ملامح مادية دقيقة، وبسبب هذا العيب الغريب لم أتمكن يومًا من رسم حتى أكثر الرسوم رداءة، ولاحقًا، في المدرسة الثانوية(3)، لم أكن قادرًا على تصوُّر خطوط الرسوم التخطيطية المعقَّدة مهما بذلت من جهد، مع أني كنت أفهم الهدف الواضح لتشابك هذه الخطوط. من ناحية أخرى، ذاكرتي البصرية نامية بشكل جيد، ولا أعرف حتى الآن كيف أحلُّ هذا التناقض الواضح: كان هذا التناقض الأول من تلك التناقضات التي لا تُحصى، التي أغرقتني فيما بعد في الميل العاجز إلى الأحلام؛ لقد عَززت لديَّ إدراك استحالة النفاذ إلى جوهر الأفكار المجردة، وهذا الإدراك، بدوره، خلَّف لديَّ عدم الثقة بنفسي. لهذا السبب كنت خجولًا جدًّا، وفُسِّرت سمعة الولد السليط التي تمتعت بها في طفولتي، كما فهمها بعض الأشخاص، والدتي مثلًا، بأنها بالضبط رغبة قوية في التغلب على عدم الثقة الدائم بالنفس هذا. ظهرت لديَّ لاحقًا عادة مخالطة أكثر

الأشخاص اختلافًا، بل إني ابتكرت قواعد محددة للحديث، لم أخرقها قَطّ تقريبًا. تتلخص هذه القواعد في استخدام بضع عشرات من الأفكار المعقدة بعض الشيء ظاهريًّا، لكن البديهية جدًّا في الواقع، ويمكن لأي محادث أن يفهمها، لكن جوهر هذه المفاهيم البسيطة، المتعارف عليها والإلزامية، كان غريبًا وغير ممتع بالنسبة إليَّ مطلقًا. غير أني لم أستطع التغلب على الفضول التافه في داخلي، وكنت أتلذذ بدفع بعض الأشخاص إلى الكشف عن مكنوناتهم؛ اعترافاتهم المهينة والتافهة لم تثر فيَّ قَطُّ الاشمئزاز المفهوم والمشروع تمامًا؛ كان يجب أن أشعر بالاشمئزاز، لكن ذلك لم يحدث. أعتقد أن سبب عدم شعوري بالاشمئزاز هو أن حدة المشاعر السلبية لم تكن من طبيعتي، فقد كنت عديم الاكتراث جدًّا تجاه الأحداث الخارجية، ذلك لأن حياتي الداخلية المبهمة ظلت أكثر أهميةً بما لا يقاس. ومع ذلك، كانت حياتي الداخلية في طفولتي مرتبطة بالعالم الخارجي أكثر من ارتباطها به لاحقًا؛ فيما بعد أخذت تنأى عني شيئًا فشيئًا، ولكي أعود مجدَّدًا إلى هذه الأجواء المظلمة بهوائها الكثيف والمحسوس كان عليَّ أن أقطع المسافة التي كبرت بسبب تراكم خبرة الحياة، أي ببساطة ذخيرة الإدراكات والأحاسيس البصرية أو الذوقية. أحيانًا كنت أفكر بهلع في أن تلك اللحظة التي أفقد فيها إمكانية الرجوع إلى ذاتي سوف تحلُّ في وقت ما، وحينذاك سوف أصبح حيوانًا، وعندما تخطر لي هذه الفكرة كان ينبثق في ذاكرتي دومًا رأس كلب وهو يأكل الفضلات من حفرة قمامة. غير أنَّ خطر ذلك التقارب بين المتوهَّم والواقعي، الذي كنت أعدُّه مَرضي، لم يكن بعيدًا عني قَطُّ، وأحيانًا في نوبات الحُمَّى الروحية كنت أعجز عن الشعور بكينونتي الأصلية، فيقيم الهدير والطنين في أذنَي، وفي الشارع يتعسر عليَّ المشي فجأة، يتعسر إلى درجة كنت أبدو فيها كأني أحاول التحرك بجسدي الثقيل في ذلك الهواء الكثيف، في تلك المناظر الطبيعية الكالحة التي تعتمل في مخيلتي، التي يتدحرج فيها بسهولة طيف رأسي المذهول. في تلك اللحظات كانت ذاكرتي تهجرني. كانت الذاكرة عمومًا أبعد قدراتي عن الكمال، بغض النظر عن أني كنت أحفظ غيبًا بسهولة صفحات مطبوعة كاملة. كانت تغطي ذكرياتي بشبكة زجاجية شفافة من نسيج العنكبوت وتقضي على ثباتها العجائبي؛ وكانت ذاكرة الحواس، لا ذاكرة الأفكار، أغنى وأقوى بما لا يقاس. لم أستطع يومًا إدراك إحساسي الأول، ولم أعرف كيف كان؛ لم أتمكن من إدراك ما يحدث ومن فهم أسبابه لأول مرة إلا حين بلغت السادسة من العمر. وفي الثامنة من العمر، بفضل كمية كبيرة نسبيًّا من الكتب، التي كانوا يخفونها عني وقرأتها مع ذلك، كنت قادرًا على التعبير عن أفكاري كتابة، وقد ألَّفت آنذاك قصة طويلة إلى حدٍّ ما عن صائد نمور. لا أذكر من طفولتي المبكرة سوى حادثة واحدة. كان عمري ثلاث سنوات. كان والداي قد عادا إلى بطرسبورج التي لم يكن قد مضى وقت طويل على مغادرتهما إياها، وكان يجب أن يمكثا فيها فترة قصيرة، أسبوعًا أو أسبوعين. أقاما عند جدتي، في شارع كابينيتسكايا، حيث ولدت. كانت

نوافذ الشقة، الواقعة في الطابق الخامس، تطل على الفناء. أذكر أني بقيت وحدي وكنت أطعم أرنبي الدمية جزرة طلبتُها من الطاهية. جذبت انتباهي فجأة أصوات غريبة قادمة من الفناء، وكانت تشبه الهرهرة الخافتة التي يقطعها بين حين وآخر رنين المعادن الممدود، الرفيع والرائق جدًّا. دنوت من النافذة، لكني لم أتمكن من رؤية شيء مهما حاولت الوقوف على رؤوس أصابعي. حينئذٍ جررتُ مقعدًا كبيرًا إلى حيث النافذة وتسلقته، ومن هناك صعدت إلى عتبة النافذة. رأيت في الأسفل، كأني أرى ذلك الآن، الفناء الخالي ونشارَين يتحركان بالتناوب إلى الأمام والخلف، مثل دميتين معدنيتين آليتين مصنوعتين بشكل رديء. كانا يتوقفان أحيانًا ليرتاحا، وآنذاك يتردد رنين المنشار المرتعش الذي أُوقف فجأة. رحت أنظر إليهما مسحورًا وأخذت أنزلق عن النافذة لاشعوريًّا. تدلى القسم العلوي من جسدي كله نحو الفناء. رآني النشاران فتوقفا، وقد رفعا رأسيهما وهما ينظران إليَّ، لكن من دون أن ينبسا بكلمة. كان ذلك في نهاية شهر سبتمبر؛ أذكر أني شعرت فجأة بهواء بارد وأن راحتَي يدَي، اللتين لا يغطيهما كُماي المسحوبان إلى الخلف، بدأتا ترتعشان من البرد. في تلك اللحظة دخلت أمي الغرفة، فاقتربت من النافذة بهدوء ورفعتني، وأغلقت درفة النافذة، وسقطتْ مغمى عليها. حُفظت هذه الحادثة في ذاكرتي بصورة استثنائية، وأذكر حادثة أخرى وقعت بعد ذلك بزمن طويل، وذكرى كلتا الحادثتين تعيدني فورًا إلى الطفولة، إلى تلك الفترة الزمنية التي لم أعد قادرًا على فهمها الآن.

تتلخص هذه الحادثة الثانية في أني، بعد أن علَّموني القراءة والكتابة مباشرة، قرأت في مجموعة قصصية صغيرة للأطفال قصة عن طفل قروي يتيم قبِلَته إحدى المعلمات في المدرسة بدافع الرحمة. كان هذا اليتيم يساعد حارس المدرسة في إشعال الموقد، وينظف الغرف، ويدرس بجِدٍّ واجتهاد. وذات يوم احترقت المدرسة، وأصبح هذا الولد في الشارع، في برد الشتاء القارس. لم يخلف لديَّ أي كتاب بعد ذلك الانطباع الذي خلَّفته هذه القصة: لقد رأيت ذلك الولد اليتيم أمامي، رأيتُ أباه وأمه المتوفيين وأطلال المدرسة المحترقة، وبلغ حزني من الشدة أن بكيت يومين، من دون أن آكل شيئًا تقريبًا، ولم أنم إلا قليلًا جدًّا. غضب والدي وقال:

- هاكم، لقد علَّمنا الولد القراءة مبكرًا جدًّا، وها هي نتيجة ذلك كله. يجب عليه أن يركض، لا أن يقرأ. الحمد لله، لا يزال هناك وقت. ثم لماذا يطبعون قصصًا كهذه في كتب الأطفال؟

مات أبي عندما كنت في الثامنة من العمر. أذكر حين أخذتني أمي إلى المستشفى، حيث كان أبي يتعالج. لم أكن قد رأيته منذ شهر ونصف الشهر، منذ بداية مرضه تمامًا، وقد صعقني وجهه المهزول، ولحيته السوداء وعيناه المضطرمتان. مسح بيده على رأسي وقال بصوت خافت مخاطبًا أمي:

- اعتني بالأطفال.

لم تستطع أمي أن تجيبه، وحينذاك أضاف بقوة غير اعتيادية:

- يا إلهي، لو قيل لي إني سأكون راعيًا بسيطًا، مجرد راعٍ، لكني سأعيش!

بعد ذلك أخرجتني أمي من الغرفة. خرجتُ إلى الحديقة الصغيرة: كان الحصى يخشخش تحت قدمَي، وكان الجو حارًّا والسماء منيرة، وكان في إمكان المرء أن يسرح ببصره بعيدًا جدًّا. بعد أن ركبت وأمي العربة، قلت:

- ماما، يبدو مظهر أبي جيدًا مع ذلك، اعتقدت أنه أسوأ بكثير.

لم تُحِر أمي جوابًا واكتفت بأن وضعت رأسي على ركبتَيها، وعلى هذا النحو وصلنا البيت.

كان في ذكرياتي دائمًا شيء لذيذ غير قابل للوصف: لم أكن أرى أو أعرف بدقة كل ما جرى لي بعد اللحظة التي أتذكرها فيها، لأجد نفسي بالتناوب إما طالبًا في مدرسة «الكاديت»(4)، وإما تلميذًا في المدرسة، وإما جنديًّا، وفقط؛ كل ما عدا ذلك كان يكف عن الوجود. لقد اعتدت العيش في الواقع الماضي، الذي تستعيده مخيلتي. كانت سلطتي فيه بلا حدود، ولم أكن خاضعًا لأحد، أو لمشيئة أحد، وكنت أبتكر أوضاعًا مختلفة لجميع الأشخاص المشاركين في حياتي، ساعات طويلة، وأنا مستلقٍ في الحديقة، وأجبرهم على القيام بما أريد، وشيئًا فشيئًا أصبح لعب مخيلتي الدائم هذا من عاداتي. حلَّت بعد ذلك مرحلة في حياتي فقدت فيها ذاتي ولم أعد أرى نفسي في اللوحات التي أرسمها. كنت أقرأ كثيرًا آنذاك. أذكر صورة دوستويفسكي على غلاف المجلد الأول من أعماله. لقد انتزعوا مني ذلك الكتاب وأخفوه، لكني حطمت باب الخزانة الزجاجي، ومن بين الكتب العديدة الموجودة فيها أخذتُ هذا المجلد الذي عليه صورة شخصية بالتحديد. كنت أقرأ كل شيء من دون تمييز، لكني لم أحب الكتب التي يعطونني إياها، وكرهت «المكتبة الذهبية» كلها، باستثناء حكايات أندرسن وهاوف. كانت حياتي الشخصية في ذلك الوقت غير محسوسة تقريبًا بالنسبة إليَّ. في أثناء قراءتي رواية «دون كيخوته» تخيلت كل ما حدث له، لكن مخيلتي كانت تعمل من دون معرفتي، ولم أكن أبذل أي جهد تقريبًا. لم أشارك في مآثر «الفارس ذو الطلعة الحزينة» ولم أسخر منه، ولا من سانشو بانثا، كأني لم أكن موجودًا قَطُّ وأن شخصًا آخر قرأ كتاب ثربانتس. أعتقد أن في إمكاني مقارنة فترة القراءة الكثيفة والنمو هذه، التي تُعد مرحلة حياتي غير الواعية تمامًا، بغيبوبة روحية عميقة. لم يبقَ لديَّ من تلك المرحلة غير شعور واحد، وقد نضج نهائيًّا آنذاك ولم يغادرني بعد ذلك، هو شعور الحزن الشفاف والبعيد، الذي لا أساس له مطلقًا والصافي تمامًا. ذات يوم، وقد هربت من البيت ورحت أتنزَّه في الحقل الأسمر الداكن، لاحظت في وادٍ ضيق بعيد طبقة غير ذائبة من الثلج، وكانت تتلألأ في شمس الربيع. انبثق أمامي هذا الضوء الأبيض واللطيف فجأة وبدا لي مستحيلًا ورائعًا حتى إني كدت أبكي من الاضطراب. توجهت نحو ذلك المكان ووصلت إليه خلال بضع دقائق. كان الثلج الهش والقذر راقدًا على الأرضِ السوداء، ويومض

بضوء خافت أخضر مائل إلى الزرقة، كفقاعة صابون، ولم يكن يشبه قَطّ ذلك الثلج المتلألئ الذي رأيته من بعيد. بقيت زمنًا طويلًا أتذكر الشعور الساذج والحزين الذي انتابني آنذاك، وذلك الكثيب الثلجي. وبعد بضع سنوات، حين قرأت كتابًا مؤثِّرًا فُقدت منه صفحات العنوان، تخيلت الحقل الربيعي والثلج البعيد، وأنه يكفي أن يخطو المرء بضع خطوات حتى يرى البقايا القذرة الذائبة. تساءلت: «أهذا كل شيء؟»، وبدت لي الحياة أيضًا على هذا النحو: هأنذا سوف أعيش بضع سنين وأصل إلى لحظتي الأخيرة وأموت. كيف؟ أهذا كل شيء؟ كانت تلك الاختلاجات الوحيدة التي اعتملت في روحي في تلك الفترة من الزمن. فضلًا عن أني قرأت مؤلفات الكُتاب الأجانب، وامتلأتُ بمضمون بلدان وعصور غريبة عليَّ، وهذا العالم سوف يصبح عالمي شيئًا فشيئًا، ولم يكن ثمة فَرق بالنسبة إليَّ بين حالة إسبانية وحالة روسية.

أفقت من هذه الحال بعد سنة، قبل الالتحاق بالمدرسة الثانوية بفترة قصيرة. كنت قد أصبحت عارفًا بأحاسيسي كلها آنذاك، وفيما بعد حدث توسع خارجي وحسب لمعارفي، وكان توسعًا ضئيلًا جدًّا وقليل الأهمية. بدأت حياتي الداخلية بالتكون خلافًا للأحداث المباشرة، وكل التغييرات، التي جرت فيها، جرت في العتمة ولم يكن لها أي علاقة بدرجاتي في مادة السلوك، أو بعقوبات وإخفاقات المدرسة الثانوية. لقد ولَّت تلك المرحلة التي كنت فيها مستغرقًا كليًّا في ذاتي، وشحبتْ، وفقط من حين إلى حين كانت تعود إليَّ، مثل مرض هدأت حدَّته لكنه غير قابل للعلاج.

كانت أسرتنا تسافر كثيرًا من مكان إلى مكان، وغالبًا ما تقطع مسافات طويلة. أذكر الهرج والمرج، وتنضيد الأمتعة الكبيرة، والأسئلة الأبدية عما وُضع بالضبط في سلة الفضيات، وماذا في سلة معاطف الفرو. كان والدي مرحًا ومهملًا دائمًا، ووالدتي تحافظ على تعابير وجهها الصارمة، فقد كانت تشرف على جميع الأعمال المتعلقة بالسفر وترتيب الأمتعة. تنظر إلى ساعتها الذهبية الصغيرة، المعلَّقة على صدرها وفق عادة تلك الأيام، وتخاف دائمًا أن نتأخر، وكان والدي يهدئ روعها قائلًا بوجه تعلوه الدهشة: «ياه، لا يزال لدينا وقت كثير جدًّا». هو نفسه كان يتأخر دائمًا وأينما يذهب. حدث ذات مرة أنه كان عليه أن يسافر، وتذكر ذلك قبل سفره بثلاثة أيام، وقال:

- هذه المرة سأكون دقيقًا حتمًا.

وكالعادة، بعد القبلات والوداعات ودموع أختي الصغيرة، رجع أبي إلى البيت بعد نصف ساعة، وقال:

- أنا لا أفهم وحسب كيف أمكن لذلك أن يحدث. كان الوقت المتبقي لانطلاق القطار ليس أقل من أربع عشرة دقيقة. ما إن وصلتُ محطة القطارات حتى قيل لي إن القطار قد غادر. عجيب!

كان منشغلًا دائمًا بالتجارب الكيميائية والأعمال الجغرافية والمسائل الاجتماعية. يشغله ذلك

كليًّا، أما بقية الأمور فكثيرًا ما ينساها، كأنما هذه البقية لم يكن لها وجود. مع ذلك، كان هناك أمران آخران يثيران اهتمامه: الحرائق والصيد. كان يُظهر طاقة غير عادية في الحرائق. يُخرج من المنزل الذي يحترق كل ما يستطيع، وبما أنه كان قويًّا جدًّا، لم يكن من النادر أن ينقذ من البيت خزنات يحملها على ظهره، وذات مرة، في سيبيريا، عندما احترق منزل أحد التجار الأغنياء، تمكَّن من إنزال خزنة حديدية على سلم خشبي. مع أن والدي كان قد توجه إلى هذا التاجر، قبل الحريق بفترة قصيرة، بطلب لاستئجار إحدى شققه، تقع في مبنى آخر يملكه التاجر، لكن التاجر رفض بصورة قاطعة تأجيرنا الشقة حين علم أن أبي ليس تاجرًا. بعد الحريق جاء إلينا وطلب من أبي الانتقال إلى ذلك المنزل، بل حتى إنه أحضر بعض الهدايا. كان أبي قد نسي مسألة الحريق، فقد كان يسعده أن يساعد أي شخص، لكن ما يدفعه إلى ذلك لم يكن التعاطف مع الأشخاص الذين حلَّت بهم كارثة، وإنما الحب غير المفهوم الذي يكنُّه للنار. في أثناء ذلك أصر التاجر على موقفه وقال في نية صافية:

- وهل كنت أعرف أنك ستنقذ خزنتي؟

تذكر أبي، أخيرًا، حقيقة الأمر، فاحتد وطرد التاجر خارجًا قائلًا له:

- إنك تقول حماقات شتى! أنا منشغل.

كان أبي يحب ممارسة التمارين الرياضية، وكان رياضيًّا ممتازًا، وفارسًا لا يعرف التعب - يضحك دائمًا من وضعية جلوس أخويه على السرج، وهما ضابطان في سلاح الخيَّالة «لم يتعلَّما»، كما كان يقول، «ركوب الخيل حتى بعد تخرجهما في أكاديمية الفروسية هذه؛ وبالمناسبة، حتى في طفولتهما لم يجيدا ركوب الخيل، وقد التحقا بأكاديمية الفروسية بسبب عدم الحاجة فيها إلى دراسة الجبر» - وكان سباحًا ممتازًا. في مواضع المياه العميقة كان يؤدي حركة غير اعتيادية لم أرها بعد ذلك في أي مكان آخر: يجلس في الماء، كأنما يجلس على الأرض، ويرفع رجلَيه بحيث يشكِّل جسده زاوية حادة، ويبدأ بالدوران فجأة، كأنه خذروف. أذكر أني كنت أجلس على الضفة عاريًا وأضحك، وبعد ذلك أتشبث برقبة أبي بيدَي، وأعبر النهر سباحة على ظهره العريض الذي يكسوه الشعر. وكان الصيد شغفه. يعود إلى البيت على مزلجة الثلج العريضة، بعد أيام من التعقب الحذِر والمنهِك لأثر حيوان مفترس، ومن المزلجة تنظر إلينا عينان زجاجيتان ميتتان لأيل. كان يذهب لصيد التيس الجبلي في القوقاز، ولا شيء يعادل بالنسبة إليه أن يسافر بضع مئات من الفِرستات(5) بمجرد تلقيه دعوة إلى الصيد. لم يُصَب بأي مرض يومًا، ولم يعرف التعب، وكان يجلس في مكتبه الممتلئ بالدوارق الزجاجية طويلة العنق والأنابيق، وبصناديق صغيرة تحتوي على مادة لزجة، وبعدد كبير من الساعات الجدارية المعلقة جنبًا إلى جنب، وبعد ذلك يسافر مدة ثلاثة أيام لصيد الذئاب، وقلما ينام في أثناء ذلك، وعند عودته يجلس ثانيةً إلى طاولة مكتبه كأن شيئًا لم يحدث.

كان صبره غير اعتيادي. سنةً كاملة، في المساءات، صنع من الجبس خريطة مجسمة لمنطقة القوقاز، بكل تفاصيلها الجغرافية الدقيقة. دخلتُ مكتبه ذات مرة في غيابه، كانت الخريطة معلَّقة في الأعلى، فوق منضدة الكتب. مددت يدي إليها واقفًا على رؤوس أصابعي، وسحبتها نحوي، فوقعت على الأرض وتحطمت. جاء أبي على صوت الضجة، نظر إليَّ وقال معاتبًا:

- كوليا، لا تدخل مكتبي من دون إذني أبدًا.

ثم رفعني وأجلسني على كتفَيه وتوجه إلى حيث أمي. أخبرها أني كسرت الخريطة، وأردف قائلًا:

- تصوري أن عليَّ صنع الخريطة مرة أخرى من البداية.

ثم انهمك في العمل، وفي نهاية السنة الثانية كانت الخريطة جاهزة.

لم أعرف أبي كثيرًا، لكني عرفت عنه الأكثر أهمية: كان يحب الموسيقى ويستمع إليها مطولًا من دون أن يتحرك، ومن دون أن يغادر مكانه. لم يكن يطيق رنين الجرس. كل ما يذكِّره بالموت بطريقة من الطرق بقي بالنسبة إليه عدائيًّا وغير مفهوم، وهذا يفسر كرهه للمقابر والأنصاب التذكارية. لقد رأيت أبي ذات يوم مضطربًا ومحتدًّا، وهو ما لم يكن يحدث له إلا نادرًا. حدث ذلك في مدينة مينسك، حين علم بموت أحد رفاقه في الصيد، وكان موظفًا فقيرًا لم أكن أعرف اسمه. أذكر أنه كان رجلًا طويل القامة، أصلع الرأس، ذا عينين بلا لون، ويرتدي ملابس بالية. كان ينتعش دائمًا بصورة غير اعتيادية عند حديثه عن طيور الحجل والأرانب وطيور السُّمان؛ كان يفضِّل الطرائد الصغيرة.

قال مرة لأبي محتدًّا:

- صيد الذئاب ليس صيدًا، يا سيرجيه ألكسندروفيتش، بل لهو. صيد الذئاب مجرد لهو، وصيد الدببة كذلك.

امتعض أبي:

- كيف لهو؟ وماذا عن الأيائل؟ والخنازير البرية؟ هل تعرف ما هو الخنزير البري؟

- كلَّا، لا أعرف ما هو الخنزير البري يا سيرجيه ألكسندروفيتش، لكنك - أشدِّد على ما قلت - لن تقنعني.

هدأ والدي على غير توقع وقال:

- كما تشاء. وهل تعتبر الشاي أيضًا لهوًا؟

- لا يا سيرجيه ألكسندروفيتش.

- في هذه الحالة، لنذهب ونشرب الشاي. إنك تنشغل بالتفاهات. سأرى الآن كم تستطيع أن تشرب من الشاي.

كان هذا الموظف، والرسام سيبوفسكي، ضيفَين دائمَين علينا في مينسك. كان سيبوفسكي شيخًا طويل القامة بحاجبين حانقين، يهوى الصيد بالكلاب السلوقية ويحب الفن. كان ضخم الجثة وعريض المنكبَين، وكانت جيوبه عميقة عمقًا مخيفًا. جاء إلينا ذات مرة ولم يجد أحدًا في

البيت غيري أنا والمربية، فنظر إليَّ محدقًا وسألني باقتضاب:

- هل رأيتَ ديكًا؟

- رأيتُ.

- ألا تخاف منه؟

- لا.

- هاك انظر.

وأدخل يده في جيبه وأخرج منه ديكًا حيًّا كبيرًا. أخذ الديك يخمش الأرض بمخالبه وراح يدور في الرواق. سألته:

- وما حاجتك إلى الديك؟

- سوف أرسمه.

- لكنه لن يجلس ساكنًا.

- سأجبره.

- لا يمكنك ذلك.

- بل سأجبره على ذلك.

دخلنا غرفة الأطفال، فقد طردت المربية الديك إلى هناك وهي تلوح بيديها. أمسك سيبوفسكي الديك بإحدى يديه، ورسم باليد الأخرى دائرة بالطبشور على الأرض، ولدهشتي، بعد أن تمايل الديك مرتين، لبث ساكنًا من دون حراك. رسمه سيبوفسكي بسرعة. أذكر أيضًا رسمًا آخر من رسومه: صياد يخبُّ على صهوة حصانه وقد أمال جسمه إلى الخلف، وأمامه تمامًا كلبان سلوقيان يطاردان ذئبًا. كان وجه الصياد أحمر ومخيفًا، وبدت قوائم الحصان الأربع كأنها متضفرة معًا. أهداني سيبوفسكي هذه اللوحة. كنت بشكل عام أحب صور الحيوانات كثيرًا، وأعرف عددًا كبيرًا من الفصائل البرية المفترسة - مع أني لم أرها يومًا - وقرأت مجلدات بريم الثلاثة عن «حياة الحيوانات» مرتين من البداية إلى النهاية. وقد صادف، عندما كنت أقرأ المجلد الثاني، أن وَلدت كلبة أبي، وكانت من فصيلة «الساطر». وزَّع أبي الجراء العمياء على معارفه، واحتفظ لنفسه بجرو واحد فقط، الأكبر حجمًا. بعد ثلاثة أيام هرع إلينا الموظف مسرعًا في المساء. قال بصوتٍ تغالبه الدموع من دون أن يلقي التحية حتى:

- هل وهبت الجراء جميعها يا سيرجيه ألكسندروفيتش؟ لماذا نسيت أن تهبني واحدًا؟

شعر أبي بالحرج، فقال وهو يحدق إلى الأرض:

- نسيت.

- ألم يبقَ ولا واحد منها؟

- بقي واحد، لكني احتفظت به لنفسي.

- أعطني إياه يا سيرجيه ألكسندروفيتش.

- لا أستطيع.

قال الموظف في يأس:

- إني إنسان شريف يا سيرجيه ألكسندروفيتش، لكني سأحسم أمري وأسرق الجرو إن لم تعطني إياه.

- حاول.

- وإذا سرقته ولم تلحظ ذلك؟

- هنيئًا لك.

- ألن تطلب استعادته؟

- لا.

بعد مغادرته قال أبي مغتبطًا:

- يا له من صياد حقيقي! هذا شيء أفهمه.

كان راضيًا جدًّا، وحين فُقد الجرو فعليًّا بعد بضعة أيام تظاهر بالغضب، بل حتى إنه قال:

- لا يستطيع المرء أن يحفظ شيئًا في منزله.

وساندته المربية على غير توقع قائلةً:

- اليوم سرقوا الكلبة، وغدًا قد يسرقون السماور.

وأختي، الفضولية بصورة غير عادية، سألت أمي:

- وبعد ذلك البيانو ماما، أليس كذلك؟

لكن يبدو أن اختفاء الجرو لم يكدره قَطُّ. لم يظهر الموظف عندنا لمدة أسبوعين، ثم ظهر. سأله أبي:

- كيف حال الكلب؟

ابتسم الموظف ابتسامة عريضة وحسب، ولم يجِب بشيء. كبر هذا الجرو بسرعة غير عادية. أطلقوا عليه اسم «تريزور»، وكثيرًا جدًّا، عندما كان الموظف يزورنا، كان تريزور يركض في أثره، وكنا نُعده كلبنا تقريبًا. ذات يوم، وكان أبي قد ذهب إلى مكان ما، وأمي تقرأ في غرفتها، وكان يومًا خريفيًّا مشمسًا، قفز تريزور من إحدى الزوايا، ولسانه متدلٍّ من فمه وخطمه ملطخ بالدماء، وقفز عليَّ، صارفًا بأسنانه، وأمسك سروالي بأسنانه وأخذ يجرُّني. لحقت به، مررنا في الحي اليهودي في طرف المدينة، وخرجنا إلى البرية، وهناك رأيت الموظف مستلقيًا على العشب بلا حراك، ووجهه نحو الأسفل. هززته، ناديته باسمه، حاولت أن أنظر إلى وجهه، لكنه ظل هامدًا. لعق تريزور رأسه الذي كانت الدماء، التي تدفقت على صلعته المهشمة، قد تخثرت عليه. ثم أقعى الكلب على قائمتَيه الخلفيتَين وأخذ يَعول، وعندما ينهكه العويل يبدأ بالهرهرة، ثم يشرع في العويل ثانية. شعرت بهلع شديد. كنا ثلاثتنا في

البرية، وريح خفيفة تهب من النهر، وبندقية عتيقة مخيفة ملقاة بجانب جسد الموظف. لا أذكر كيف وصلت راكضًا إلى البيت، وحين رأيت أبي أخبرته بكل شيء في الحال. تجهم، ومن دون أن ينبس بكلمة انطلق رامحًا على فرسه، التي لم يكونوا قد نزعوا عنها السرج بعد، لأنه كان قد وصل توًّا. عاد بعد عشرين دقيقة وزعم أن الموظف، وهو يذخر البندقية بطريقة غير صحيحة، أطلق على جبينه حشوة الخردق الكبير كلها. ظل أبي حزينًا أيامًا عدة، فلم يعد يمزح أو يضحك، أو يلاطفني حتى، وكان يتوقف عن تناول الطعام فجأةً في أثناء وجبة الغداء أو العشاء ويستغرق في التفكير. تسأله أمي: «فيمَ تفكر؟»، فيقول: «يا له من أمر بلا معنى! يا للطريقة الحمقاء التي لقي بها هذا الإنسان مصرعه! ها هو لم يعد موجودًا، ولا يمكن عمل شيء في هذا الصدد».

ولم يعد كما كان إلا بعد مرور بعض الوقت، وكسابق عهده أخذ يروي كل مساء تتمة حكاية لا نهاية لها: كيف أننا نحن أفراد الأسرة جميعنا نبحر على متن سفينة أقودها أنا. يقول أبي: «لن نأخذ ماما معنا يا كوليا. إنها تخاف البحر وسوف تربك الرحَّالة الشجعان وحسب». أوافقه قائلًا: «فلتبقَ ماما في البيت». «وهكذا، سوف نبحر، أنا وأنت، في المحيط الهندي. فجأةً تهب عاصفة. أنت الربان، فيتوجهون إليك ويسألونك عمَّ ينبغي فعله، فتعطي الأمر برباطة جأش. أي أمر يا كوليا؟». أصرخ: «أنزلوا قوارب النجاة!». «لا يزال الوقت مبكرًا على إنزال قوارب النجاة. تقول: «شدوا الأشرعة ولا تخافوا شيئًا!»». أردف: «وهم سيشدون الأشرعة». «نعم، يا كوليا، سيشدون الأشرعة».

أتممتُ خلال فترة طفولتي بضع رحلات حول الأرض، ثم اكتشفت جزيرة جديدة، وأصبحت حاكمها، وبنيت سكة حديدية عبر البحر، وأحضرت أمي إلى هذه الجزيرة في عربة قطار مباشرةً، لأن أمي تخشى البحر كثيرًا، بل حتى إنها لا تخجل من ذلك. اعتدت سماع حكاية السفر على متن سفينة كل مساء وألِفتها إلى درجة أني كنت أحزن إلى حدِّ البكاء حين ينقطع سياقها أحيانًا، إذا كان أبي في سفر، على سبيل المثال. إلا أني بعد ذلك، وأنا جالس على ركبتَيه وأرنو من حين إلى حين إلى وجه أمي الهادئ، التي تكون جالسة معنا عادةً، كنت أشعر بسعادة حقيقية؛ سعادة كالتي لا يستطيع بلوغها إلا طفل أو شخص وُهب قوة روحية خارقة. وبعد ذلك توقفت الحكاية إلى الأبد: مرض أبي ومات.

قال قبل وفاته، ونفَسُه ينقطع:

- أرجوكم أن تدفنوني من دون قساوسة ومن دون مراسم كنسية.

لكن مع ذلك دفنه كاهن: قُرعت الأجراس التي لم يطِقها، ونَمت في المقبرة الهادئة حشائش طفيلية سامقة. قبَّلت جبينه الشمعي الشاحب؛ كانوا قد قادوني نحو نعشه، ورفعني عمي، لأني

كنت ضئيل الحجم جدًّا. تلك اللحظة، عندما كنت محمولًا على يدَي عمي بطريقة خرقاء ونظرت إلى التابوت ورأيت لحية أبي السوداء وشاربَيه وعينيه المغمضتين، كانت أشد اللحظات رعبًا في حياتي. دوَّت الأجراس في قُبب الكنيسة العالية، وحفحفت أثواب الخالات والعمات، وفجأة رأيت وجه أمي المتحجر غير البشري. في تلك اللحظة فهمت كل شيء فجأة: تملكني إحساس الموت الجليدي، وشعرت بنشوة روحية مَرَضية، فقد رأيت فورًا نهايتي أنا شخصيًّا في مكانٍ ما في البعيد غير المتناهي، وأني سألقى مصير أبي هذا نفسه. كنت سأسعد لو أني متُّ في تلك اللحظة، لأشارك أبي مصيره وأكون برفقته. اسودَّت الدنيا في عينَي. أخذوني إلى أمي، واستلقت يدها الباردة على رأسي، نظرت إليها لكنها لم تكن تراني ولم تدرك أني أقف بجانبها. بعد ذلك بقليل غادرنا المقبرة وتوجهنا إلى البيت بالعربة. كانت العربة تتقافز على النوابض، وبقي قبر أبي وراءنا، والهواء يتأرجح أمامي. كانت ظهور الخيول تنزلق من دون صوت أبعد فأبعد؛ لقد عدنا إلى البيت، وأبي راقد هناك بلا حراك؛ لقد متُّ معه، وكذلك مركبي السحري، والجزيرة ذات المباني البيضاء التي اكتشفتها في المحيط الهندي. كان الهواء يتأرجح في عينَي؛ ومض ضوء أصفر أمامي فجأة، لهيب الشمس الذي لا يطاق، تدفق الدم إلى رأسي، وشعرت بأني مريض جدًّا. في البيت أرقدوني في السرير: لقد أُصبت بمرض الخُنَّاق.

المحيط الهندي، وسماء صفراء فوق البحر، ومركب أسود يمخر المياه ببطء. أقف في مقصورة الربان، تحوم فوق مؤخرة السفينة طيور وردية اللون، والهواء الحار الملتهب يئز أزيزًا خافتًا. إني أبحر على متن سفينة القراصنة خاصتي، لكني أبحر وحدي. أين أبي إذن؟ وها هي السفينة تمُر بمحاذاة شاطئ كثير الأشجار؛ أرى عبر أنبوب المنظار حصان والدتي الرهوان الضخم يلوح من بين أغصان الأشجار، وفي إثره يرمح حصان والدي الأسحم بخطوات سريعة واسعة. نرفع الأشرعة ونبحر طويلًا بمحاذاة الحصانين. فجأة يلتفت أبي نحوي. أصيح قائلًا:

- بابا، إلى أين تذهب؟

ويجيبني صوته البعيد الخافت بكلام غير مفهوم. أسأله ثانية:

- إلى أين؟

يقول لي الملاح:

- إنهم يحملون هذا الشخص إلى المقبرة، أيها الربان.

بالفعل، تسير ببطء عربة موتى فارغة، من دون حوذي، في طريق أصفر، وتابوت أبيض يلمع بتأثير نور الشمس. أصرخ:

- بابا مات!

تنحني أمي فوقي. شعرها محلول، ووجهها الجاف مخيف وساكن:

- لا يا كوليا، بابا لم يمت.

أصدرُ الأمر:

- شدوا الأشرعة ولا تخافوا شيئًا. ستهب عاصفة رعدية.

تقول المربية:

- إنه يصرخ ثانية.

لكن ها نحن نجتاز المحيط الهندي ونلقي المرساة. يغرق كل شيء في الظلام: ينام البحارة، تنام المدينة البيضاء على الشاطئ، وأبي نائم في سواد عميق، في مكان ليس بعيدًا عني، وحينذاك تحلق بجوار مركبنا الغافي، في تثاقل، أشرعة «الهولندي الطائر»(6) السوداء.

تحسنت صحتي بعد فترة وجيزة، كانت المربية تجلس قرب سريري طويلًا، وتحكي لي طويلًا عن أشياء شتى، وقد عرفت منها أمورًا ممتعة كثيرة. أخبرتني كيف أنهم يبيعون أقراص الحليب المجمد في سيبيريا، وكيف يضعون الطعام عند النوافذ من أجل الفارين من بين المحكومين بالأشغال الشاقة، الذين يجولون المدن والقرى في الشتاء القارس. كانت حياة والدَي رائعة في سيبيريا، حسب أقوال المربية.

قالت المربية:

- لم تكن السيدة تفقه شيئًا في الأعمال المنزلية، لا شيء. لم تكن تميز الدجاج من البط. كانت لدينا دجاجات كثيرة، لكن لم تبض واحدة منها قَطُّ. كنا نشتري البيض من البازار. كان البيض رخيصًا، مائة بيضة بخمسة وثلاثين كوبيكًا، وكانت أوقية اللحم بكوبيكين، والزبدة تباع في براميل، هكذا كانت الحال، ليست كما هي هنا. ومدبرة المنزل كانت ماكرة جدًّا. كان السيد المرحوم يسير في الشارع ذات يوم، وإذا بامرأة تدنو منه وتقول: «هل تعرف أين منزل مأمور الغابات هنا؟» تقصد منزلنا. قال السيد: «أعرف. ومن تريدين؟» قالت المرأة: «مدبرة منزلهم. إنها تبيع البيض بسعر رخيص، وهو في البازار أغلى». ثم مضيا لشراء البيض، المرأة في المقدمة، والسيد في إثرها. واعترفت مدبرة المنزل، لكنها بكت وبكت. شيء مخجل حقًّا.

- دادا، وماذا عن قصة فاسيليفنا؟

- سأخبرك الآن قصة فاسيليفنا. استأجرت السيدة طباخة، وكانت امرأة جادة في الخمسين، وربما في الثلاثين، من العمر.

- كيف ذلك دادا؟ هذا فارق كبير.

قالت المربية بثقة:

- الفارق ليس كبيرًا. أما أنت فاستمع، وإلا لن أحكي لك القصة.

- لن أقاطعك ثانيةً.

- كانوا يسمونها «فاسيليفنا». كانت تقول: «أنا لست من هنا، لكن ابني في معسكر الأشغال الشاقة. أما أنا فمن بطرسبورج». قالت إنها تجيد إعداد كل أنواع المأكولات، وكانت تجيد إعداد كل شيء فعلًا. مرَّت فترة طويلة على إقامتها هناك، وها هي السيدة ذات يوم تدعو إلينا ضيوفًا. أخذت فاسيليفنا تُعد الفطائر، وكنا قد أعددنا المائدة في الظهيرة. وصلت السيدة مساءً، وكانت تتنقل على صهوة حصان؛ حصان جيد، كميت، مع أن الأحصنة الكميت لم تكن مناسبة لعزبتنا، لكنه كان حصانًا جيدًا. وإذن، وصلت السيدة ورأت: لا شيء، أي لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق. لا فطائر، والأوعية متناثرة. مضت السيدة إلى المطبخ، فإذا فاسيليفنا جالسة، حمراء كلها، ولئيمة، والعياذ بالله. سألتها السيدة: «لماذا لم تُعدي الطعام؟ ما لك يا فاسيليفنا؟». أجابت تلك: «أنا نفسي سيدة»، وكم استرسلت في الصراخ. «لا أريد تقديم الطعام بعد الآن، بل أريد أنا نفسي أن آكل». وكانت الفطائر كلها مقضومة. هربت فاسيليفنا من العزبة بعد ذلك، ولم ترجع إلا في اليوم السادس. وصلت متسخة، مهلهلة، ثوبها ممزق كله، وهي تبكي. قالت: «سامحوني، هكذا تكون حالة السكر بالنسبة إليَّ، ولا يمكن عمل شيء». محتالة كبيرة.

- من تكون هذه يا دادا؟

- المحتالة؟ فاسيليفنا. أما أنت فاخلد إلى النوم، ومرضك أيضًا سوف ينام، وستشفى منه. نَمْ.

كان يومًا لطيفًا مشمسًا حين خرجت من البيت أول مرة. كانت سحب بيض صغيرة تركض في السماء، لكن هواءً باردًا كان قد بدأ يهب من الشرق، وقلت في نفسي إن فأرة الحقل في قصة أندرسن، التي آوت ثامبلينا في يوم كهذا، أوصدت باب جحرها، وعاينت مؤونتها من الحبوب، وفي المساء قالت وهي ترقد لتنام: «لم يتبقَّ أمامي غير إقامة حفل الزفاف. يجب أن تكوني شاكرة لله، فليس أي عريس يمتلك معطفًا من الفراء كالذي يمتلكه الخلد. ولا تنسي، من فضلك، أنك لا تملكين مَهرًا».

كنت أشعر بالشفقة الشديدة على ثامبلينا، وأكثر ما أشفق منه هو أنها كانت وحيدة، لأني أمضيت طفولتي كلها وحيدًا. لكني لم أكن أتجنب أترابي. كنت ألعب لعبة الحرب، ولعبة الاختباء، بل حتى إني، حسب آراء كثيرين، كنت شخصًا اجتماعيًّا جدًّا، لكني لم أكن أحب أحدًا، وكنت أفترق بلا أسف عن أولئك الذين تبعدني عنهم الظروف. كنت آلف الناس الجدد بسرعة، وما إن أعتادهم حتى أكف عن ملاحظة وجودهم. ربما كان مرد ذلك إلى حبي للعزلة، لكن في صورة غريبة جدًّا، وغير بسيطة. حين كنت أبقى وحدي كانت تراودني رغبة شديدة في الإصغاء إلى شيء ما، وكان الآخرون يعوقونني عن ذلك. لم أكن أحب أن أفتح قلبي لأحد، لكن بما أني كنت أتمتع بعادة سرعة التخيل، كانت الأحاديث الحميمة سهلة عليَّ. من دون أن أكون كاذبًا، لم أكن أصرِّح بما أفكر فيه، وأتجنب لاشعوريًّا مصاعب الاعترافات الرصينة، ولم يكن لي رفاق. أدركت فيما بعد أني كنت مخطئًا بتصرفي على هذا النحو، وقد دفعت ثمن هذا الخطأ غاليًا، حيث حُرمت واحدة من أكثر الفرص قيمة: لم أفهم معنى كلمتَي «رفيق» و«صديق» إلا نظريًّا. لقد بذلت جهودًا خارقة لأخلق في نفسي هذا الشعور، لكن كل ما توصلت إليه هو أن أفهم صداقة الأشخاص الآخرين وأشعر بها، وحينذاك أحسست فجأة بأعمق معاني الصداقة. وأصبحت عزيزة عليَّ بصورة خاصة حين كان يتراءى لي شبح الموت أو الشيخوخة، عندما كنا نفقد معًا كثيرًا مما اكتسبناه معًا. كنت أقول في نفسي: الصداقة تعني أننا ما زلنا على قيد الحياة، بينما مات الآخرون. أذكر أني، عندما كنت أدرس في مدرسة «الكاديت»، كان لي رفيق اسمه «ديكوف»، وقد تصادقنا لأن كلينا كان يجيد السير على يدَيه. لم نلتقِ بعد ذلك قَطُّ، وذلك لأنهم أخذوني من المدرسة. كنت أتذكر ديكوف كما أتذكر بقية زملائي جميعهم، ولم أكن أفكر فيه قَطُّ. بعد مرور سنوات كثيرة، في مدينة سيفاستوبول، في يوم قائظ، رأيت في المقبرة صليبًا خشبيًّا مثبتًا على قاعدة خشبية كُتب عليها:

هنا يرقد «كاديت» من فيلق تيموفييف، ديكوف، الذي مات بالتيفوس.

شعرت في تلك اللحظة بأني فقدت صديقًا. الله وحده يعلم لماذا أصبح هذا الإنسان الغريب قريبًا مني إلى هذه الدرجة، كأني أمضيت حياتي كلها برفقته. لاحظت آنذاك أن مشاعر الفقدان

والحزن تكون قوية بصورة خاصة في الأيام التي يكون فيها الطقس رائعًا، في الهواء الشفاف والخفيف بشكل خاص. بدا لي أني أشعر بحالات كهذه في روحي أيضًا، وإذا حل الصمت في مكان ناءٍ في داخلي محل الضجيج الخافت المستمر لحياتي الداخلية - الضجيج الذي لا أسمعه تقريبًا لكنه يطن دائمًا، وفي لحظات أخرى يتخافت قليلًا وحسب - فهذا يعني أن كارثة قد وقعت. وتراءت لي مساحة الأرض الهائلة، المستوية كصحراء، والمرئية حتى نهايتها. انفصل الطرف الأقصى البعيد لهذه المساحة فجأة بفالق عميق، وسقط من دون ضجة في هاوية، جاذبًا معه كل ما فوقه. حل الصمت. ثم انفلقت طبقة ثانية، فثالثة، وهأنذا لم تبقَ لي سوى بضع خطوات إلى الحافة، وأخيرًا تنغرز قدماي في التراب الملتهب، وأهوي بتثاقل في غيمة رملية بطيئة الحركة إلى هناك، إلى الأسفل، حيث سبق للبقية جميعهم أن سقطوا. على مقربة شديدة فوق رأسي يسطع ضوء أصفر، وتنير الشمس، كمنارة هائلة الحجم، المياه السوداء لبحيرة راكدة والأرض البرتقالية الميتة. شعرت بضيق شديد، وفكرت، كالعادة، في أمي التي كنت أعرفها أقل مما أعرف أبي، وظلت دائمًا لغزًا غامضًا بالنسبة إليَّ. لم تكن تشبه أبي في شيء، لا في العادات، ولا في الأذواق، ولا في الطباع. شعرت بأن خطر الانفجارات الداخلية والازدواج الدائم، الذي كان يكمن فيَّ من دون أدنى شك، يكمن فيها أيضًا. كانت امرأة هادئة جدًّا، باردة في المعاملة بعض الشيء، لا ترفع صوتها أبدًا: بطرسبورج التي كانت تعيش فيها قبل زواجها، منزل جدتي الرزين، المربِّيات، آداب النطق والقراءة الإلزامية لأعمال الكُتاب الكلاسيكيين، أبدت فيها تأثيرها. الخادمة، التي كانت لا تخشى أبي، حتى عندما يصرخ بصوته الجهوري: «لا يعلم إلا الشيطان ما هذا!»، كانت دائمة الخوف من أمي، التي كانت تتكلم ببطء ولا تحتد أبدًا. أذكر من طفولتي المبكرة جدًّا حركاتها الوئيدة، وذلك البرد الخفيف الذي يصدر منها، وابتسامتها اللطيفة؛ لم تضحك قَطُّ تقريبًا. نادرًا ما كانت تداعب الأطفال، وفي حين كنت أركض للقاء أبي وأقفز على صدره - عارفًا أن هذا الإنسان القوي يدَّعي وحسب أحيانًا أنه شخص بالغ، بينما هو، في الحقيقة، طفل مثلي، من عمري، وإذا دعوته الآن للذهاب إلى الحديقة وجر العربات الألعاب، فسوف يفكر قليلًا ثم يرافقني - كنت أخاطب أمي بهدوء شديد، وبوقار، كما يجدر بولد حسن التربية، ولم أسمح لنفسي، بطبيعة الحال، أن أصرخ من الابتهاج، أو أن أركض إلى غرفة الضيوف مهرولًا. لم أكن أخاف أمي، ففي منزلنا لم يُعاقَب أحد، لا أنا ولا أختَي، لكني لم أكف عن الشعور بتفوقها، وهو تفوق لا تفسير له، لكنه مؤكد ولا يتعلق مطلقًا بمعارفها، ولا بمؤهلاتها التي كانت استثنائية فعلًا. كانت ذاكرتها منزَّهة تمامًا عن الخطأ، فهي تتذكر كل ما سمعته أو قرأته يومًا. كانت تتكلم الفرنسية والألمانية بدقة لا عيب فيها وبصوابية يمكن أن تبدو كلاسيكية جدًّا على الأرجح، وحتى في حديثها باللغة الروسية كانت أمي - على الرغم من بساطتها وكرهها للتعابير المؤثرة - لا

تستخدم سوى العبارات الأدبية، وتتكلم ببرودها المعتاد وبنبرتها الحيادية المتعالية. هكذا كانت دائمًا؛ كان أبي الوحيد الذي تبتسم له فجأة، ونحن جالسون إلى المائدة أو في غرفة الاستقبال، ابتسامة فَرِحة لم تتمكن من كبتها. لم أرَها تبتسم في أي وقت آخر في أي ظرف كان. أما أنا فكانت توبِّخني دائمًا توبيخات هادئة تمامًا، منطوقة بذلك الصوت الرتيب نفسه، وأبي في أثناء ذلك ينظر إليَّ بتعاطف، ويهز رأسه كأنما يُظهر لي دعمًا صامتًا، ثم يقول: «هيا، دعيه وشأنه، لن يعيد الكرة. أليس كذلك يا كوليا؟». «لا، لن أفعلها ثانية». «اذهب إذن». كنت أستدير، ويعلق أبي بنبرة اعتذارية: «في النهاية، لو أنه كان ولدًا هادئًا بدلًا من أن يكون عابثًا لكان ذلك أمرًا محزنًا. «في الحمأة الهادئة تكثر الشياطين»».

غير أن أمي، بعد أن تؤنبني وتوضح لي لماذا ينبغي التصرف على هذا النحو لا على نحو آخر، لم تكن تكلمني تقريبًا، أي إنها لم تتح لي المجال للاعتراض. مع أبي كنت أجادل؛ مع أمي... أبدًا. أذكر أني حاولت مرة أن أرد عليها بكلام ما، فنظرت إليَّ بدهشة وفضول، كأنها أول مرة تلاحظ فيها أني أتمتع بملكة الكلام. وكنت، بالمناسبة، الأقل أهلية في الأسرة: ورثَت أختاي كلتاهما من أمي سرعة الفهم والذاكرة الخارقة، وكانتا تنضجان أسرع مني؛ لم تحاولا الإيحاء لي بذلك قَطُّ، لكني كنت أعرف ذلك جيدًا. إلا أن الحسد كان غريبًا عني، في طفولتي، وفيما بعد أيضًا، وكنت أحب أمي كثيرًا، بصرف النظر عن برودها. هذه المرأة الهادئة، الشبيهة بلوحة متجسدة كما لو أنها حافظت في نفسها على ثباتها العجيب، كانت في الحقيقة مختلفة كليًّا عما تبدو عليه. لقد احتجتُ إلى سنوات لأفهم ذلك، وبعد أن فهمت صرت أجلس ساعات طويلة مستغرقًا في التفكير، محاولًا تصور حياتها الحقيقية، لا حياتها البادية. كانت تحب الأدب حبًّا شديدًا بحيث أصبح ذلك غريبًا. تقرأ كثيرًا ودائمًا، وبعد أن تنتهي من قراءة كتاب تلوذ بالصمت، ولا تجيب عن أسئلتي، بل تنظر أمامها مباشرة بعينين جامدتين لا تبصران، ولا تلحظ شيئًا مما يحيط بها. حفظت عددًا كبيرًا من الأشعار عن ظهر قلب، قصيدة ليرمونتوف «الشيطان» بكاملها، ورواية بوشكين الشعرية «يفجيني أونيجين» كلها، من أول سطر إلى آخر سطر، لكنها لم تحب ذائقة أبي الذي يفضِّل الفلسفة الألمانية وعلم الاجتماع: لم يُثر ذلك اهتمامها كثيرًا، ناهيكم بما تبقى. لم أرَ روايات معاصرة في منزلنا يومًا، مثل روايات فيربيتسكايا(7) أو أرتصيباشِف(8)؛ يبدو أن أبي وأمي كانا يتشابهان من حيث ازدراؤهما غير المكترث لهذه الأعمال الأدبية. أول من أحضر كتابًا من هذا النوع إلى البيت كان أنا، وكان أبي قد غادر عالم الأحياء آنذاك، وكنت تلميذًا في الصف الرابع، وكان عنوان الكتاب، الذي تركته مصادفةً في غرفة الطعام: «المرأة الواقفة في الوسط». رأت أمي الكتاب بمحض المصادفة، وحين رجعتُ إلى البيت في المساء سألتني وهي ترفع بقرف صفحة العنوان من الكتاب بإصبعين:

- هل تقرأ هذا؟ لديك ذوق جيد!

شعرت بالخجل إلى حد البكاء، وبعد ذلك بقيَت ذكرى معرفة أمي بشغفي الوجيز بالروايات الخليعة والغبية الذكرى الأكثر إذلالًا بالنسبة إليَّ، وأعتقد لو كان في مقدورها أن تخبر أبي بذلك لما كابدتُ هذا الشقاء.

أحبت أمي أبي بكل ما أوتيت من قوة، من أعماقها. لم تبكِ عند موته، لكننا، أنا ومربيتي، كنا نشعر بالهلع من البقاء معها بمفردنا. ظلت تذرع غرفة الضيوف من ركن إلى ركن مدة ثلاثة أشهر، من الصباح الباكر إلى آخر الليل، من دون توقف. لم تكن تكلم أحدًا، ولا تأكل شيئًا تقريبًا، وتنام ثلاث أو أربع ساعات في اليوم، ولا تغادر المنزل أبدًا. كان أقاربنا على يقين من أنها ستفقد عقلها. أذكر أني كنت أستيقظ ليلًا في غرفة نوم الأطفال، وأسمع وقع خطوات سريعة على السجادة. أغفو، ثم أستيقظ ثانيةً؛ يَصر خفًّا أمي كما في السابق ويُسمع وقع خطواتها السريعة. أنهض عن السرير وأمضي حافيًا وفي القميص إلى غرفة الضيوف: «ماما، اخلدي إلى النوم. ماما، لماذا تمشين طول الوقت؟». تحدق أمي إليَّ، فأرى وجهها الغريب الشاحب وعينيها المفزعتين: «حسنًا كوليا، سأخلد إلى النوم حالًا. اذهب ونَمْ».

كانت حياة أمي سعيدة في البداية. أبي يكرس وقته كله للأسرة، ولا ينشغل عنها إلا عندما يذهب إلى الصيد أو لإنجاز الأعمال العلمية، وغير ذلك لم يهتم لأي شيء آخر. كان بالغ اللطف مع النساء، ولا يجادلهن أبدًا، ويوافقهن حتى في الحالات التي يقلنَ فيها أشياء تتناقض كليًّا مع آرائه، لكنه عمومًا لم يستوعب، فيما يبدو، سبب استمرار وجود نساء من نوع آخر في الدنيا. قالت له أمي:

- ها أنت قد دعوت فيرا ميخائيلوفنا باسم «فيرا فلاديميروفنا» ثانية. لقد استاءت على الأرجح. كيف لا يمكنك حفظ اسمها حتى الآن؟ إنها تزورنا منذ سنتين.

قال أبي في دهشة:

- حقًّا؟ أي واحدة منهن؟ زوجة المهندس الذي يصفِّر؟

- لا، داريا فاسيليفنا هي من يصفِّر، أما المهندس فيغني. لكن لا شأن لفيرا ميخائيلوفنا هنا. إنها زوجة الدكتور سيرجيه إيفانوفيتش.

انتعش أبي:

- كيف لا أعرفها؟! إني أعرفها جيدًا.

- لكنك تناديها «فيرا فاسيليفنا» تارة، و«فيرا بيتروفنا» تارة، في حين أن اسمها «فيرا ميخائيلوفنا».

قال أبي:

- غريب! هذه غلطة طبعًا. سوف أتذكر اسمها حتمًا من الآن وصاعدًا. إني أعرف هذه المرأة جيدًا. إنها تبدو لطيفة جدًّا. وزوجها أيضًا لطيف، لكن كلبه «البوينتر» ليس كلب صيد جيدًا.

لم تحدث في منزلنا أي مشاحنات أو خصومات، وكان كل شيء يجري بصورة حسنة. لكن القدَر لم يدلل أمي طويلًا. في البداية ماتت أختي الكبرى، وقد ماتت في أعقاب عملية جراحية

في المعدة، جراء مضاعفات حدثت لها بسبب استحمامها مبكرًا جدًّا. وبعد بضع سنين مات أبي، وأخيرًا، في أثناء الحرب العالمية الأولى، قضت أختي الصغرى، وكانت في التاسعة من عمرها، من حمى قرمزية خاطفة، بعد أن مرضت يومين فقط. بقينا أنا وأمي بمفردنا. هي عاشت في عزلة نوعًا ما، وأنا تُركت لنفسي وترعرعت في حرية. لم تستطع أمي نسيان الخسارات التي دهمتها بغتة على هذا النحو، وأمضت سنوات طويلة أكثر صمتًا وجمودًا من ذي قبل، كشخص مسحور. كانت تتمتع بصحة ممتازة ولم تمرض قَطُّ، وفقط في عينيها، اللتين أتذكر كم كانتا مشرقتين ولامباليتين، ظهر حزن عميق إلى درجة أني، حين أنظر إليهما، صرت أخجل من نفسي ومن أني على قيد الحياة. لاحقًا أصبحَت أمي أقرب إليَّ بعض الشيء، وتعرفتُ قوة حبها غير العادية لذكرى أبي وأختَيَّ، وحبها الكئيب لي، وعرفت أيضًا أنها تتمتع بمخيلة مرنة وسريعة تتفوق على مخيلتي كثيرًا، وبالقدرة على فهم أمور لم أكن أعرف حتى بوجودها. وتفوقها، الذي شعرت به منذ طفولتي، تعزز لديَّ فيما بعد، حين أصبحتُ شخصًا بالغًا تقريبًا. وقد فهمت أمرًا آخر، هو الأكثر أهمية، وهو أن عالم كينونتي الثانية ذاك، الذي اعتقدت أنه مغلق إلى الأبد وأمام الجميع، كان معروفًا لأمي.

المرة الأولى التي فارقت فيها أمي فترة طويلة كانت في السنة التي أصبحت فيها طالبًا في مدرسة «الكاديت». كانت المدرسة تقع في مدينة أخرى؛ أذكر النهر الأزرق المشوب بالبياض، ومباني فيلق تيموفييف الخضراء، والفندق الذي أحضرتني أمي إليه قبل أسبوعين من الامتحانات، حيث درست معي الكتاب المدرسي الصغير الخاص باللغة الفرنسية التي كنت ضعيفًا في الكتابة الإملائية فيها. ثم كان الامتحان، ووداع أمي، وزيٌّ رسمي جديد وسترة رسمية بكتفيتَين، وحوذي في قفطان ممزَّق يهز الأعنة بلا توقف، آخذًا أمي إلى أسفل، إلى محطة القطارات، حيث يغادر القطار إلى بيتنا. وبقيت وحدي.

تجنبت مخالطة طلاب مدرسة «الكاديت»، وكنت أتسكع ساعات في القاعات ذات الصدى لمبنى المدرسة، ولم أفهم إلا في وقت متأخر أن في إمكاني انتظار عيد الميلاد البعيد وعطلة لمدة أسبوعين. لم أحب تلك المدرسة. كان رفاقي مختلفين عني في أمور كثيرة: معظمهم من أبناء الضباط المتحدرين من الجو شبه العسكري الذي لم أعرفه يومًا، إذ لم يكن في بيتنا عسكريون، وكان أبي يتعامل معهم بعدوانية واحتراس. لم أستطع التعوُّد على عبارات مثل «هكذا بالضبط» و«كلَّا مطلقًا»، وأذكر أني، ردًّا على توبيخ أحد الضباط لي، أجبت:

- إنك محق إلى حد ما يا سيدي العقيد.

الأمر الذي دفعهم إلى إنزال عقوبة أشد بي. غير أني سرعان ما تصادقت مع الطلاب الحربيين؛ القيادة لم تحبني، مع أني كنت أدرس جيدًا. كانت أساليب التعليم في مدرسة «الكاديت» مختلفة جدًّا. كان معلم اللغة الألمانية يجبر الطلاب على القراءة قراءة جهرية أمام

الصف كله، ولذلك كانت تُسمع في النص الألماني، المأخوذ من مجموعة مختارة من النصوص، صياح الديكة، وإنشاد أغنيات غير لائقة، ووعوعة. كان المعلمون رديئين، ولم يتميز أيٌّ منهم بشيء، باستثناء معلم مادة التاريخ الطبيعي، وكان مستشار دولة، وعجوزًا ساخرًا، وماديًّا من أتباع مذهب الشك. «ما هو القطن الماصُّ، معاليكم؟». يجيب: «لنفترض أن طالبًا حربيًّا شابًّا، مثلك، يركض في الفناء ويتقافز مثل عِجل، ثم فجأة يجرح ذيله بالمصادفة، عندئذٍ أضع قطنًا على ذلك الجرح، وذلك كي لا يغتم هذا الطالب الحربي، الشبيه بالعجل، كثيرًا. هل فهمت؟»، «هكذا بالضبط، معاليكم». فيدمدم وهو يبتسم ابتسامةً كالحة: ««هكذا بالضبط»... آخ منكم...».

لا أدري ما كان سبب إعجابي الشديد بمستشار الدولة هذا، ولماذا كنت أفرح كثيرًا حين يوجه انتباهه إليَّ. اتفق لي ذات يوم أني أجبت عن أسئلة درس كنت ذاكرته جيدًا، وقلت عدة مرات «بصورة رئيسية» و«على الأغلب» و«في الحقيقة». نظر إليَّ بسخرية مرحة ووضع لي درجةً جيدة.

- يا للطالب الحربي المثقف! «بصورة رئيسية» و«في الحقيقة». في الحقيقة، يمكنك العودة إلى مقعدك.

في مرة أخرى أمسك بي في الرواق، فاصطنع وجهًا جادًّا وقال:

- أود أن أطلب منك، أيها الطالب الحربي سَسيدوف، ألا تهز ذيلك في أثناء المشي هكذا. فهذا، في النهاية، يلفت انتباه الجميع.

ومضى مبتسمًا بعينيه فقط. كان المعلم الوحيد الذي لا يشبه الآخرين في مدرسة «الكاديت»، كما أنَّ الشيء الوحيد الذي تعلمته هناك كان فن السير على اليدين. لاحقًا، بعد مرور زمن طويل على مغادرتي تلك المدرسة، لو اتفق لي أن أقف على يدَي، أرى أمامي فورًا أرضية القاعة الخشبية المدهونة بالشمع، وعشرات الأرجل الماشية قرب يدَي، ولحية المشرف التربوي وهو يقول: «أنت محروم من «الحليوى» اليوم أيضًا». كان يستخدم دائمًا صيغة التصغير في كلامه، وكان ذلك يثير لديَّ قرفًا لا يقهر. لم أحب الأشخاص الذين يستخدمون صيغة التصغير بقصد الفكاهة: ما من دناءة أكثر تفاهة وعجزًا من ذلك في اللغة. لقد لاحظت أن الذين يلجأون إلى تعابير كهذه هم غالبًا إما أشخاص قليلو التهذيب، وإما أشخاص شديدو الحماقة من الذين يقيمون حتمًا في السفالة البشرية. كان حضور المشرف التربوي أمرًا مزعجًا بحد ذاته. لكني كنت أشعر بأن ما كان مضنيًا في مدرسة «الكاديت» بصورة خاصة هو عدم إمكانية السخط على كل شيء فجأة والذهاب إلى البيت. كان البيت بعيدًا عني، في مدينة أخرى، على مسافة أيام من السفر بالقطار. الشتاء، مبنى المدرسة المعتم الضخم، الأروقة الطويلة المضاءة إضاءة سيئة، الوحدة؛ كان الأمر ثقيل الوطء عليَّ ومملًّا. لم أكن راغبًا في الدراسة، ولم يكن مسموحًا الاستلقاء في السرير. كنا نتسلى بالتزلج على الأرضية الخشبية المدهونة حديثًا بالشمع، ونفتح صنبور الماء طول الليل، ونقفز فوق المقاعد

والكراسي، وراهنًّا مرات لا تُحصى على شرائح اللحم والحلوى والسكر والمكرونة. كان المستوى الدراسي لجميع الطلاب تقريبًا متوسطًا، باستثناء الطالب الأول في الصف أوسبينسكي، «الكاديت» الأكثر اجتهادًا وتعاسةً في سَريتنا. كان يحفظ عن ظهر قلب بحماسة مفرطة، ويدرس طول الوقت، من وقت الغداء إلى الساعة التاسعة ليلًا، عندما نخلد إلى النوم. في المساءات يجثو على ركبتيه ما يقرب من الساعة ونصف الساعة ويصلي، وهو ينشج من دون أن يصدر صوتًا. كان يدرس على حساب الحكومة لأنه ابن لوالدين فقيرين جدًّا، وكان عليه حتمًا أن ينال درجات جيدة.

سألته ذات مرة، حين استيقظت ورأيت قامته في رداء النوم الطويل أمام أيقونة صغيرة موضوعة على طرف السرير من ناحية الرأس، وكان يفصل بيننا سريران:

- لأجل ماذا تصلي يا أوسبينسكي؟

أجاب بسرعة بنبرته المعتادة التي يتحدث بها دائمًا:

- أصلي كي أدرس جيدًا.

وتابع على الفور بصوته المتحمِّس:

- أبانا! الذي في السماء...

فضلًا عن أنه لم يفهم كلمات الصلاة جيدًا، كان يقول «الذي في» كأنما ذلك يعني «بما أنك في السماء...». قلت له:

- إنك تصلي بطريقة غير صحيحة يا أوسبينسكي. «أبانا الذي في السماوات»، يجب قول هذا كله معًا.

قطع صلاته فجأة وأخذ يبكي:

- ماذا تريد؟ لماذا تزعجني؟

- هيا، صلِّ، لن أزعجك.

ومرة أخرى الصمت، أسرَّة، نوَّاسات يعلوها السخام، عتمة تحت السقف وهيئة بيضاء ضئيلة الحجم على الركبتين. وفي الصباح هدرَ الطبل، ودوى بوق خلف الجدار، ومرَّ الضابط المناوب بصفوف الأسرَّة:

- استيقاظ! انهضوا!

لم أستطع في أي حال من الأحوال أن أتعود على اللغة العسكرية الإدارية. في منزلنا كنا نتكلم بلغة روسية سليمة وصحيحة، وكانت التعابير المستخدمة في مدرسة «الكاديت» تجرح سمعي. رأيت ذات مرة كشف مدفوعات السَّرِية، وكُتب فيه: «تمَّ إعطاء الكمية الفلانية من الجوخ بغرض بناء سترات رسمية»، وبعد ذلك كلام عن النفقات على «تزجيج» النوافذ.

ناقشت هذه التعابير مع اثنين من الرفاق وتوصلنا إلى أن الضابط المناوب - كنا على يقين من أنه هو من كتبها - شخص غير متعلم، ومن المستبعَد، بالمناسبة، أن يكون ذلك بعيدًا عن الحقيقة، على الرغم من أننا لم نكن نعرف الضابط المناوب ذلك اليوم معرفة جيدة: كل ما كان معروفًا عنه هو أنه شخص متدين جدًّا. كان التعامل مع موضوع الدين في المدرسة صارمًا: يأخذوننا سيرًا على الأقدام كل سبت وأحد إلى الكنيسة، وأنا مَدين لهذا المسير، الذي لم يستطع أحدٌ التملُّص منه، بأن كرهت الخدمة الدينية الأرثوذكسية. فكلُّ ما فيها بدا كريهًا بالنسبة إليَّ: الشعر الدهني للشماس البدين الذي يتمخَّط بصوت عالٍ في المحراب، وقبل أن تبدأ الخدمة مباشرة يَنْشُق بأنفه بسرعة، وينظِّف حنجرته بسعال قصير، وبعد ذلك فقط يهدر صوته الجهوري العميق بخفوت: «بارك يا رب!»؛ وصوت القس، الرفيع المضحك، الذي يرد عليه من خلف البوابات الملكية المغلقة، الموشاة بالذهب وبالأيقونات والملائكة ذوي الأرجل المكتنزة، المرسومين بشكل رديء، بوجوههم الكئيبة وشفاههم الغليظة: «تبارك ملكوت الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى الأبد...»؛ وقائد الجوقة طويل الساقين مع شوكة الدوزنة، الذي ينشد ويستمع إلى إنشاد الآخرين أيضًا، الأمر الذي يجعل وجهه يعبِّر عن توتر لا يُحتمَل. بدا لي هذا كله سخيفًا ولا لزوم له، مع أني لم أفهمه دائمًا. لكني، بعد أن درست التعليم الديني وقرأت الأناجيل، قلت في نفسي: أي مسيحي هو مقدَّم سَريتنا؟ إنه لا يطبِّق أيًّا من الوصايا، ويعاقبني باستمرار، يحبسني ويتركني «من دون حليوى». أهذا ما علَّمه المسيح؟ توجهت إلى أوسبينسكي، العلَّامة المشهود له بمعرفته بشرع الله، وسألته:

- هل مقدَّم سَريتنا مسيحي في اعتقادك؟

قال بسرعة وفزع:

- طبعًا.

- بأي حق إذن يعاقبني كل يوم تقريبًا؟

- لأنك تسلك سلوكًا سيئًا.

- فكيف يقال في الأناجيل: «لا تَدينوا لئلا تُدانوا»؟!

همس أوسبينسكي بينه وبين نفسه كأنما يتحقق من معارفه:

- «لا تُدانوا» فعل مبني للمجهول. هذا القول ليس عن طلاب مدرسة «الكاديت».

- عمَّن إذن؟

- لا أعرف.

- هذا يعني أنك لا تفهم شرع الله.

قلت ذلك ومضيت، ونظرتي العدائية تجاه الدين وتجاه مدرسة «الكاديت» تعززت أكثر.

بعد ذلك بفترة طويلة، حين أصبحت طالبًا في المدرسة الثانوية، كانت مدرسة «الكاديت»

تخطر في بالي كحلم حجري ثقيل. بقيتْ موجودة في مكان ما في أعماقي، وما إن أسمع شيئًا يُذكِّرني بها حتى أتخيَّل فورًا القاعات الشاسعة المعتمة، والنواسات، ومهجع الطلاب، والليالي الطويلة والطبل الصباحي، وأوسبينسكي في قميص أبيض، والمقدَّم الذي كان مسيحيًّا سيئًا. هذه الحياة كانت ثقيلة الوطء وغير مثمرة، وكانت ذكرى الجمود الحجري لمبنى مدرسة «الكاديت» مزعجة بالنسبة إليَّ، مثل ذكرى عن ثكنة عسكرية، أو عن سجن، أو عن المكوث زمنًا طويلًا في مكان نسيه الله، في كشك حراسة بارد من أكشاك السكك الحديدية، في مكان ما بين موسكو وسمولينسك، متوارٍ وسط الثلوج، في أرض صقيعية خالية من البشر.

لكن سنوات دراستي المبكرة كانت، مع ذلك، السنوات الأكثر صفاء والأكثر سعادة في حياتي. في البداية - سواء في مدرسة «الكاديت» أم في المدرسة الثانوية التي التحقت بها بعدها - أربكني العدد الكبير لزملائي في الفصل. لم أعرف كيف يجب أن أتعامل مع كل هؤلاء الأولاد حليقي الرؤوس. كنت معتادًا أن أكون محاطًا ببضع حيوات: أمي وأختاي والمربية، اللواتي كنَّ قريباتي ومن معارفي؛ لكني لم أستطع استيعاب هذا الحشد من الأشخاص الجدد والمجهولين فورًا. خفت أن أفقد نفسي وسط هذا الحشد، وغريزة حفظ الذات، الغافية فيَّ عادة، استيقظت فجأةً وأحدثت في طبعي جملة من التغيُّرات التي ربما ما كانت لتحدث في ظروف مختلفة. صرت أقول غالبًا أمورًا مختلفة تمامًا عما أفكر فيه، ولا أتصرف كما ينبغي أن أفعل؛ أصبحت شخصًا وقحًا، وفقدتُ ذلك التروي في حركتي وإجاباتي، ذلك البطء الذي ساد بعد موت أبي سيادة مطلقة في منزلنا، كأنما سَحره سحر أمي البارد. كان صعبًا عليَّ في البيت أن أُقلع عن عادات المدرسة الثانوية، لكني سرعان ما تعلمت هذا الفن. أدركت لاشعوريًّا أن ليس على المرء أن يكون متماثلًا مع الجميع، لذلك بعد فترة وجيزة من المشاجرات المنزلية الصغيرة أصبحت ولدًا مطيعًا في الأسرة من جديد. أما في المدرسة الثانوية فكانت وقاحتي سببًا لمعاقبتي أكثر من الآخرين. على الرغم من أني كنت الأقل موهبة في الأسرة، فإني ورثت الذاكرة الجيدة جزئيًّا من أمي، لكن استيعابي لم يكن يومًا آنيًّا، ولم أفهم المعنى الكُلي لما يُشرح لي إلا بعد مرور بعض الوقت. أما قدرات أبي فقد انتقلت إليَّ في صورة مختلفة جدًّا: بدلًا من إرادته القوية وصبره، كان لديَّ العناد، وبدلًا من مواهبه في الصيد - البصر الحاد، والهمَّة البدنية التي لا تعرف التعب، وقوة الملاحظة الدقيقة - حصلت فقط على حُب أعمى غير عادي لعالم الحيوان، وعلى الاهتمام الشديد، لكنه عفوي ولا هدف له، تجاه كل ما يحدث من حولي، مما يُقال أو يُفعل. لم تكن لديَّ أي رغبة في الدرس، لكني كنت مجتهدًا في الدراسة، وسلوكي وحده كان دائمًا موضوعًا للنقاش في المجلس التربوي. كان تفسير ذلك، إلى جانب أسباب أخرى، أني لم أعانِ يومًا من الخوف الطفولي أمام المعلمين، ولم أخفِ مشاعري نحوهم. شكاني المشرف التربوي لأمي بأني غير مهذب، ووقح، مع أن نموي

استثنائي تقريبًا مقارنة بسنوات عمري. قالت أمي، التي كثيرًا ما كانت تُستدعى إلى المدرسة:

- اعذرني، لكن يبدو لي أنكم لا تمتلكون بتاتًا خاصية فنّ التعامل مع الأطفال. كوليا ولد هادئ جدًا في الأسرة وليس عربيدًا على الإطلاق ولا يتصرف بوقاحة عادة.

وأرسلَت الخادمَ لاستدعائي. دخلتُ غرفة الاستقبال وسلَّمتُ عليها؛ وهي، بعد أن تحدَّثت إليَّ عشر دقائق، أخلت سبيلي.

وافقها المشرف التربوي:

- نعم، معك يستخدم نبرة مختلفة تمامًا. لا أعرف كيف تتمكنين من تحقيق ذلك. أما في الصف فهو لا يُطاق.

ولوَّح بيده مستاء. أكثر ما كان يثير استنكار كل من المشرف التربوي والمفتش كانت وقاحتي مع معلم التاريخ. (جرى بيني وبينه ذات يوم الحديث الآتي:

- من يكون كونراد فالنرود؟

سألته ذلك لأني قرأت هذا الاسم في كتاب ولم أكن أعرفه. فكر المعلِّم قليلًا ثم أجاب:

- شخص مشاغب مثلك.)

وقد أوقفني إلى الجدار ذات مرة لأني «لا أقعد هادئًا». لم أكن مذنبًا جدًّا، فقد مرَّر الطالب الجالس بجواري ممحاة على رأسي، لكن المعلم لم يلحظ ذلك، فضربت جاري على صدره، ولاحظ المعلم ذلك، فقال:

- قف إلى الجدار حالًا؛ إنك لا تعرف كيف تتصرف بلياقة.

وبما أني لم أكن قادرًا على الوشاية برفيقي، التزمت الصمت ردًّا على كلمات المؤرِّخ. وهو المعتاد على اعتراضاتي الدائمة، إذ لم يسمعها هذه المرة، احتد فجأة وصرخ فيَّ، وضرب كرسيه بالأرض، لكنه أدى حركة خرقاء فزَلَّت قدمه وسقط إلى جوار الكرسي. لم يتجرَّأ الصف على الضحك، فقلت:

- لقد نلتَ ما تستحق. أفرحني سقوطك كثيرًا.

فقدَ المعلم صوابه من الغضب، وأمرني بمغادرة الصف والذهاب إلى المفتش، لكنه هدأ بعد ذلك، لأنه كان إنسانًا طيبًا، وسامحني مع أني لم أطلب السماح. كان، بشكل عام، يعاملني من دون ضغينة. عدوِّي الرئيسي كان المشرف التربوي؛ معلم اللغة الروسية الذي كان يكرهني كما يكره المرء شخصًا ندًّا له. لكنه، مع ذلك، لم يكن قادرًا على إعطائي درجة متدنية، لأني كنت أعرف اللغة الروسية أفضل من الآخرين. في المقابل، كنت أبقى «من دون غداء» كل يوم تقريبًا. أذكر شعور الحزن غير المتناهي الذي كان يرافقني في أثناء بقائي في المدرسة، في الوقت الذي يذهب فيه الجميع إلى منازلهم بعد الحصة الخامسة؛ في البداية يغادر الذين يجهِّزون أنفسهم بسرعة، ثم الآخرون، وأخيرًا الأكثر بطئًا، وأبقى وحدي وأنظر إلى الخريطة

الصماء الغامضة التي تذكِّرني بالمناظر الطبيعية المقمرة في كتب أبي، وتَلوح على السبورة قطع من خرق قماش التول الرفيع ورسم قبيح من رسم بارامونوف، الطالب الأول في الصف في الرسم، ورسم يصوِّر وجهًا كان يبدو لي، لسبب ما، شبيهًا بالفنان سيبوفسكي. كانت هذه الحالة المضنية تمتد ساعة تقريبًا، إلى حين مجيء المشرف التربوي: «اذهب إلى البيت. حاول ألا تسلك بالطريقة الزعرانية»(9).

كان ينتظرني في البيت الغداء والكتب، وفي المساء لعب الأولاد في الفناء، حيث كان الذهاب ممنوعًا عليَّ. كنا نعيش في منزل تعود ملكيته إلى ألكسي فاسيليفيتش فورونين، وهو ضابط سابق سليل عائلة كريمة المَحتِد، وشخص رائع وغريب الأطوار. كان رجلًا طويل القامة، له شاربان غليظان ولحية كثة تحجب وجهه: أذكر أن عينيه الفاتحتين الحانقتين كانتا تربكانني دومًا. كنت أشعر، لسبب ما، بأن هذا الشخص يعرف عني أمورًا كثيرة لا يجوز التحدث عنها. كان غضبه مخيفًا، فقد كان يفقد صوابه ويمكنه أن يطلق النار على أيٍّ كان: كانت الشهور الطويلة من حصار «ميناء آرتور» قد أثَّرت في جهازه العصبي. كان يخلق انطباعًا عن شخص يحمل في داخله قوة غامضة، لكنه، مع ذلك، كان شخصًا طيبًا، على الرغم من أنه يكلم الأطفال بنبرة صارمة دائمًا، ولا يلاطفهم قَطُّ ولا يناديهم بأسماء الدلع. كان شخصًا مثقفًا وذكيًّا ويتمتع بتلك القدرة على فهم الأفكار المجردة والمشاعر العميقة التي لا نصادفها أبدًا تقريبًا عند الناس العاديين. كان هذا الإنسان يفهم أكثر بكثير مما يجب أن يفهمه ضابط متقاعد لكي يعيش حياته بسعادة. كان له ابن أكبر مني بأربع سنوات وابنتان، ماريانا وناتاليا، إحداهما في سني والأخرى من عمر أختي. كانت عائلة فورونين عائلتي الثانية. تميزت زوجة ألكسي فاسيليفيتش، وهي ألمانية الأصل ومدافعة دائمة عن المذنبين، بأنها لا تستطيع رفض أي طلب. قلت لها ذات مرة:

- يكاترينا هنريخوفنا، هل يمكنني أن أطلب منك خبزًا مع مربى، تعرفين، ذلك المربى نفسه الذي صنعته في رأس السنة؟

قالت في فزع:

- ما هذا الذي تقوله يا عزيزي؟! ذلك المربى ممنوع المساس به.

- إني أرغب في ذلك بشدة يا يكاترينا هنريخوفنا. لعلَّ ذلك ممكن؟

- آخ، يا لك من غريب الأطوار. حسنٌ، سأعطيك نوعًا آخر من المربى، مربى إنجليزيًّا، لذيذًا جدًّا أيضًا...

- لا يا يكاترينا هنريخوفنا، أعرف أنه ليس لذيذًا، تفوح منه رائحة القطران. ممكن مربى رأس السنة؟

- إنك لا تفهم أبسط الأمور. هيا، هاتِ الخبز، سأحضره لك.

كانت تجري في عروقها دماء راسخة ومعافاة بحيث إنها لم تتغير مطلقًا سنوات طويلة، وبدا لي أنها لا تستطيع أن تهرم: لقد بلغت عمر الخامسة والعشرين وبقيت هكذا طوال حياتها. لم تفقد اهتمامها الدائم والهادئ في أي ظرف، ولم تنسَ شيئًا أو تتوتر. حين شب حريق في

العزبة ذات يوم - احترق عنبر خشبي - واستيقظتُ من النوم لأن الجوار كله كان مُنارًا بسطوع من اللهب، وكان زجاج نافذتي يقرقع جراء الحريق، رأيت يكاترينا هنريخوفنا واقفة عند سريري، مرتدية ملابسها كأن ذلك يحدث في وضح النهار، وممشطة الشعر وهادئة. قالت:

- أشفقت من أن أوقظك، فقد كنتَ غارقًا في نوم لذيذ. هيا انهض، فقد يحترق البيت أيضًا، لا قدر الله. فقط لا تتم ثانية من فضلك، فلا يزال عليَّ إيقاظ أمك أيضًا. هاك، يحدث ذلك كله لأن الناس لا يتعاملون مع النار باحتراس.

أصبح ابنها آنذاك في الصف الرابع الثانوي، وكان ولدًا بالغ الطيبة، لكنه كان شخصًا خليعًا جدًّا ويفتقر إلى الرزانة. لم تحب أمي عزفه على البيانو، مع أنه كان يتمتع ببعض المواهب الموسيقية، لكنه كان ينهال على المفاتيح بعنف بالغ ويضغط على الدواسة بطريقة لا شفقة فيها، فتقول له أمي: «ميشا، لماذا تهدر هذا القدر من الطاقة؟»، فيجيب: «هذا لأني متحمِّس جدًّا».

كنا نشاكس الابنة الصغرى في عائلة فورونين بمناداتها «صوفي»، لأنها كانت تشبه البطلة الصغيرة في كتاب الكونتيسة دو سيجور «مآسي صوفي» الذي قرأناه كلنا. كانت هذه الفتاة الصغيرة تحب المغامرات غير العادية، فقد تهرع أحيانًا إلى البازار وتجول هناك طوال اليوم، وسط الباعة والنشالين واللصوص الأخطر شأنًا - أشخاص في بذلات أنيقة ببنطلونات واسعة من الأسفل - والمُجلِّخين وباعة الكتب المستعملة والقصابين وباعة الخردة، أولئك الذين يوجد منهم، فيما يبدو، في مدن الكرة الأرضية جميعها، ويرتدون أسمالًا سوداء متماثلة، ويتكلمون بطريقة سيئة بجميع اللغات، ويتاجرون بكِسَرِ أشياء لا لزوم لها لأحد على الإطلاق، ويعيشون مع ذلك، وفي عائلاتهم تتناوب الأجيال ممارسة هذه المهنة، كأنما القدَر خصَّهم بهذه التجارة، ولا يمارسون أي شيء غير ذلك أبدًا؛ كانوا يمثلون في عينَي ثباتًا عظيمًا. وأحيانًا كانت صوفي تخلع جوربَيها وخفَّيها، وتمشي في الحديقة حافية القدمين بعد المطر، وحين تعود إلى البيت تتباهى قائلة: «انظري، يا ماما، كم قدماي سوداوان!»، فتجيب يكاترينا هنريخوفنا: «قدماك سوداوان جدًّا بالفعل، لكن ما الجيد في ذلك؟».

وتميزت الابنة الكبرى، ماريانا، بصمتها، وبنضج أنوثتها المبكر، وبطبع قوي قوة غير عادية. ذات مرة، عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها، نعتها والدها بأنها حمقاء: كان تحت تأثير إحدى نوبات غضبه التي تجعله يفقد لطفه الدائم. امتقع وجهها وقالت:

- لن أكلمك بعد الآن.

ولم تكلمه بعد ذلك سنتين. كانت تعامل أختها وأخاها بصفتها الأخت الكبرى، ولم يكن أفراد الأسرة يخشونها تمامًا، لكنهم كانوا يحترسون منها. تمتع الأطفال الثلاثة بجمال ينمُّ عن الصحة والعافية، فقد كانوا أقوياء بدنيًّا ويميلون إلى المرح، لكنهم لم يتطبَّعوا كليًّا بالطبع

الروسي الحارِّ، بفضل دماء والدتهم الألمانية.

كنَّا، أنا وأبناء آل فورونين، نشكِّل جزءًا وحسب من ذلك المجتمع الطفولي الذي يتجمع في المساءات في حديقة أو في فناء منزل عائلة فورونين؛ فقد كان يرافقنا أيضًا بعض الصبيان والبنات: اليهودية الصغيرة الحسناء سيلفا، التي أصبحت ممثلة فيما بعد، والأختان التوأم ذواتا الاثني عشر ربيعًا فاليا ولالا، اللتان كانتا في عداوة دائمة فيما بينهما، ونصير المذهب الواقعي فالوديا، الذي سرعان ما تُوفِّي من مرض الخُنَّاق. ما دام النهار مضيئًا كان الجميع يلعبون لعبة «الحجلة»، يقفزون عبر مربعات مرسومة على الأرض، وهذه المربعات تنتهي بدائرة كبيرة مرسومة بشكل غير صحيح كُتب فيها «الجنة» ودائرة صغيرة تمثِّل «الجحيم». عند حلول الظلام تبدأ لعبة «الاستغماية»، ولا نعود إلى بيوتنا إلا بعد أن تنادينا الخادمة ثلاث مرات على الأقل. كنت أوزع وقتي بين القراءة والمدرسة والمكوث في البيت، في العزبة، وكانت هناك فترات طويلة أنسى فيها عالم الحياة الداخلية ذاك، الذي عشت فيه سابقًا. لكني كنت أعود إليه في بعض الأحيان النادرة، وتسبق ذلك عادة حالة من اعتلال الصحة والاحتداد وفقدان الشهية إلى الطعام، وقد لاحظت أن حياتي الثانية، التي تتميز بالقدرة على عدد لا يُحصى من التحولات والاحتمالات، معادية لحياتي الأولى، وأنها تصبح أكثر عدوانية كلما اغتنت الأولى بمعارف جديدة وصارت أقوى. بدا الأمر كأنها تخشى الفناء الذاتي الذي يمكن أن يحدث في اللحظة التي أُصبح فيها قويًّا بصورة نهائية خارجيًّا. كنت أؤدي حينذاك عملًا صامتًا وهادئًا، محاولًا الوصول إلى الجمع بين حياتين مختلفتين وتوحيدهما في حياة واحدة، وقد تمكنت من تحقيق ذلك حين تبينت لي ضرورة أن أكون شخصًا خشنًا في المدرسة وناعمًا في البيت. لكن تلك كانت لعبة بسيطة، بينما في هذه الحالة شعرت بأن جهدًا كهذا يفوق طاقتي. فضلًا عن أني كنت أحب، أكثر من الآخرين، حياتي الداخلية. لاحظت، بشكل عام، أن انتباهي ينصب أكثر على الموضوعات التي ليس عليها أن تمسني مباشرة، في حين أني لم أكترث لكثير من الأمور التي تمسُّني مباشرة. كان يمر وقت طويل قبل أن أفهم معنى حدث ما، وفقط بعد أن أفقد تمامًا التأثير في استيعابي يكتسب ذلك الحدث المعنى الذي عليه أن يكتسبه عند حدوثه. كان ينتقل في البداية إلى منطقة بعيدة ووهمية، إلى حيث نادرًا ما تنزل مخيلتي، وحيث عثرت على ما يبدو أنه الطبقة البيولوجية لتاريخي. كانت الأشياء التي تظهر أمامي تنهار بلا صوت، ويبدأ كل شيء من البداية مرة أخرى، وفقط بعد أن أشعر بهزة قوية وأنزل إلى قاع الوعي أعثر هناك على ذلك الحطام الذي عشت فيه في زمنٍ غابر؛ أنقاض المدن التي هجرتها. انعدام الاستجابة المباشرة والآنية هذا تجاه كل ما يحدث لي، وعدم قدرتي على معرفة ما ينبغي فعله مباشرة، أصبحا فيما بعد سببَين لشقائي العميق، للكوارث الروحية التي حدثت عقب لقائي الأول بكلير مباشرة. لكنَّ ذلك حدث في مرحلة متأخرة بعض الشيء.

لم أفهم، زمنًا طويلًا، نوبات التعب الفجائية التي كانت تنتابني في أيام لا أفعل فيها شيئًا ولم يكن عليَّ أن أشعر بالإنهاك. بيد أني، وأنا مستلقٍ في الفراش، كنت أشعر بأني عملت ساعات كثيرة ومتواصلة. حزرت فيما بعد أن قوانين الحركة الداخلية غير المرئية لي ترغمني على البقاء في حالة بحث دائم عما يظهر أمامي لحظة على شكل كتلة ضخمة، عديمة الهيئة، تشبه وحشًا بحريًّا خرافيًّا، يظهر ويختفي، وعلى مطاردة ذلك الوحش. كان التعب يتجلى، من الناحية الجسدية، في أوجاع الرأس، بل كان يحدث أيضًا أن ينتابني ألم غريب في عينَي، كأنما يضغط أحدهم عليهما بأصابعه. وفي عمق وعيي لم يتوقف لحظة واحدة الصراع الذي لم ألعب، أنا نفسي، أي دور فيه. كثيرًا ما ذهلت عن نفسي: لم أكن شيئًا محددًا مرة وإلى الأبد، بل كنت أتغيَّر فأصبح أكثر تارة، وأقل تارة، وربما أتاح لي عدم دقة الطيف الخاص بي - الذي لم يسمح لي بأن أنقسم مرة وإلى الأبد وأصبح كائنَين مختلفين - أن أكون في حياتي الواقعية أكثر اختلافًا مما بدا ممكنًا.

تلك السنوات الصافية الأولى لحياتي في المدرسة الثانوية أثقلت عليها من حين إلى حين أزمات روحية عانيت منها كثيرًا، ومع ذلك وجدت فيها غبطة معذِّبة. عشتُ سعيدًا، هذا إن كان في مقدور الإنسان الذي يحلِّق فوق كتفيه في الهواء شبحٌ مثابر أن يعيش سعيدًا. لم يكن الموت بعيدًا عني يومًا، وبدت حالات الضياع، التي أوقعتني فيها مخيلتي، من ممتلكاته. أعتقد أن هذا الشعور كان وراثيًّا: ليس عبثًا أن والدي كان يكره بشدة كل ما يُذكِّره بالنهاية المحتومة؛ كان هذا الإنسان المقدام يشعر بنفسه عاجزًا هنا. كانت حيادية أمي غير الواعية، الباردة، كأنما تعكس الهمود الأخير لأحدهم، وذاكرتا أختَي النهمتان تختزنان كل شيء بسرعة بالغة لأن الموت كان قائمًا في مكان ما في هاجسهما الداخلي السحيق. كنت أحلم أحيانًا أني متُّ، أو سأموت، ولم أكن قادرًا على الصراخ، ويحلُّ من حولي الصمت المعتاد، الذي أعرفه منذ زمن بعيد، وفجأة يتوسع ويتغير، ويكتسب معنى جديدًا، كان مجهولًا لي حتى الآن؛ كان هذا الصمت يحذِّرني.

شعرت طوال حياتي - حتى عندما كنت طفلًا صغيرًا - بأني أعرف سرًّا لا يعرفه الآخرون؛ وهذه الأضلولة الغريبة لم تغادرني قَطُّ. لم يكن في إمكانها أن تتأسَّس على معطيات خارجية: لم أكن مثقَّفًا أكثر أو أقل من جيلي الجاهل. كان ذلك شعورًا مستقلًّا عن إرادتي. نادرًا جدًّا، في اللحظات الأشد توترًا في حياتي، شعرت بتحول مفاجئ، تحول جسدي تقريبًا، وحينذاك كنت أقترب من وعيي الأعمى، من الإدراك غير الصحيح للإعجاز. لكني بعد ذلك كنت أعود إلى نفسي: أجلس في ذلك المكان نفسه، شاحبًا وخائر القوى، وكما في السابق يختبئ كلُّ ما يحيط بي في شكله الحجري الجامد، وتكتسب الأشياء من جديد تلك الهيئة الدائمة وغير الصحيحة التي اعتادها بصري.

بعد مروري بحالات كهذه كنت أنساها زمنًا طويلًا وأعود إلى انشغالاتي اليومية، وإلى استعدادات السفر إذا حل فصل الصيف، لأني كنت أسافر كل عام في أوقات العطلات إلى القوقاز، حيث يعيش أقارب أبي الكثيرون. هناك أخرج من منزل جدي الواقع في طرف المدينة إلى الجبال. تحلق النسور عاليًا في السماء، وأخطو عبر الحشائش السامقة متنكِّبًا بندقيتي «المونتي كريستو» التي أطلق منها النار على العصافير والقطط، بمحاذاة صخب جريان نهر تيريك، وقد انتصبت مطحنة سوداء وحيدة فوق أمواجه القذرة. في البعيد، على الجبال، يتلألأ الثلج، وأتذكر الكثيب الثلجي الذي رأيته قرب مدينة مينسك قبل بضع سنوات. حين أبلغ الغابة أستلقي قرب أول قرية نمل أصادفها، أمسك بحشرة يسروع وأضعها بحذر عند أحد مداخل الهرم المسامي العالي الذي يخرج النمل منه مسرعًا. يبتعد اليسروع زاحفًا، مجرجرًا جسده الملتوي الموبَّر. تلحق به نملة وتمسك به من ذنَبه محاوِلة إيقافه، لكنه يجرها وراءه بسهولة. تهرع نملات أخريات لمساعدة النملة الأولى، وتطوق اليسروع من جميع الجهات، وتبدأ الكُبَّة الكروية الحيَّة تتحرك إلى الخلف ببطء، وتختفي في النهاية في إحدى الفتحات. تلقى هذا المصير نفسه الذبابات الكبيرة ذات الأجنحة الزرقاء، والخراطين(10)، وحتى الخنافس، مع أن النمل يجد صعوبة كبيرة في التعامل مع هذه الأخيرة، ذلك أن للخنافس قشرة ملساء وصلبة ويصعب الإمساك بها. لكن أعنف صراع شاهدته حدث تلك المرة عندما أدخلت إلى قرية النمل رتيلاء سوداء كبيرة الحجم. لم أرَ كائنًا أشد ضراوة، لا بين الحيوانات المفترسة ولا بين الحشرات المعروفة بـ«وحشيتها»، إذا أمكن إطلاق هذه التسمية على غريزتها غير المدركة. أكثر المفترسات شراسة، التي اتفقت لي مشاهدتها - الظربان والأقداد(11) وحيوانات ابن عرس - تتمتع عادةً بقدرات تحليلية معينة وتتراجع في حالات الخطر، ولا تهاجم العدو إلا إذا استحال عليها الهرب. مرة واحدة فقط رأيت ابن عرس ينقضُّ على يد سائس خيل رماه بحجر: عادة تهرب حيوانات ابن عرس بسرعة عجيبة كالأفاعي. الرتيلاء لا تتراجع أبدًا. أطلقتُها بحذر من وعاء زجاجي، فسقطت وسط كومة النمل مباشرة. انقضَّت عليها النِّمال في الحال. أخذت الرتيلاء تتقافز على الأرض وهي تقاتل باستماتة، وسرعان ما أخذت أعداد كبيرة من النِّمال المقسومة نصفَين تسقط على الأرض ميتة. كانت الرتيلاء تهاجم كل ما يتحرك، ولم تستغل فرصة أن في إمكانها المغادرة، وإنما بقيت في مكانها كأنها تنتظر خصومًا جددًا. امتدت المعركة أكثر من ساعة، لكن الرتيلاء أيضًا سُحبت، في النهاية، إلى داخل قرية النمل. شاهدتُ هذا الصراع بقلق مضنٍ، والذكريات الكدرة، المنسية منذ زمن بعيد بُعدًا لا نهاية له، كأنما انبثقت في سديم معارفي المدفونة إلى الأبد. وبعدها فورًا توجَّهتُ أبعد من ذلك، للإمساك بالحراذين، ولصبِّ الماء في جحور السوالق(12). بعد طول انتظار يظهر من الماء وحيش مبلل، فيقفز بسرعة وينطلق جانبًا بسرعة ويختفي في

حفرة أخرى. لكن السوالق والحراذين والنِّمال وحتى الرتيلات، ذلك كله لم يكن شيئًا مقارنة بالمشهد غير العادي الذي اتفقت لي رؤيته في باكورة صباح يوم من أيام شهر يوليو. رأيت جرذانًا مرتحلة، تسير على شكل مربع غير منتظم، وأذيالها تتأرجح مرتطمة بالأرض وهي تتقِّل قوائمها. كنت جالسًا فوق شجرة وأنظر كيف اسودَّت الأرض بسرعة، وكيف وصلت الجرذان إلى مَسيل ضيق، فاختفت فيه ثم ظهرت من جديد، وهي تصأصئ وتنطلق متابعة طريقها، وكيف وصلت بعد ذلك إلى نهر تيريك، وكيف توقف قطيعها دقيقة، ثم عبرت الجرذان النهر سباحة، واختفت في بستان أحدهم. نزلت عن الشجرة ومضيت أستلقي عند طرف الحرش.

صمت، شمس، أشجار... يتناهى من حين إلى حين صوت انهمار التراب في وادٍ ضيق وقرقعة غصينات يابسة: إنه خنزير بري يركض. أغفو على العشب وأستيقظ بظهر رطب وبنورٍ أصفر أمام عينَي. بعد ذلك، وأنا أرنو إلى الشمس الحمراء الغاربة، أتوجه إلى البيت، حيث غرف شقة جدي الباردة، وأصل في الوقت المناسب تمامًا لأرى الراعي في قبعته اللبادية، وهو يسوق القطيع قادمًا من المرعى، وبقرات جدي النطاحة، المعروفة بمزاجها العصبي وبمردودها الجيد من الحليب، وهي تخور في أثناء خروجها من زريبة الماشية. كنت أعلم أن العجول ستهرع الآن إلى الأبقار، وأن الخادمة ستُبعد رؤوس العجول العنيدة عن الضروع، وأن خيوط الحليب المنسابة سوف ترنُّ وهي ترتطم بقيعان السطول البيضاء، وأن جدي سوف ينظر إلى ذلك من الشرفة المطلة على الفناء، وهو يقرع الأرض بعصاه، ثم يستغرق في التفكير كمن يتذكر شيئًا. وكان هناك ما يتذكره. في زمن بعيد جدًّا، كان جدي يسرق قطعان الخيول من القبائل المعادية ويبيعها. في تلك الأزمنة كان هذا يُعَد شجاعة، وكان الجميع بلا استثناء يُطرون مآثر هؤلاء الأشخاص؛ جرى هذا كله في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. أذكر جدي عجوزًا ضئيل الحجم، مرتديًا سترة شركسية، ومتمنطقًا بخنجر ذهبي. في العام ١٩١٢ أكمل السنة المائة من عمره، لكنه كان شيخًا قويًّا متين البِنية، وقد جعلته الشيخوخة إنسانًا طيبًا. مات في السنة الثانية من الحرب، حيث امتطى صهوة فرس ابنه، الأخ الأكبر لوالدي، وكانت فرسًا إنجليزية غير مروضة عمرها ثلاث سنوات، لكن براعته التي لا تُجارى في الفروسية، التي اشتُهر بها عشرات السنين، خانته، فسقط عن الفرس وارتطم بالحافة الحادة لمرجل كان مرميًّا على الأرض، ومات بعد بضع ساعات. كان يعرف أمورًا كثيرة، ويتذكَّر أمورًا كثيرة، لكنه لم يكن يخبر كلَّ شيء، وفقط من أقوال الكهول الآخرين، من رفاقه الأصغر سنًّا، استطعت أن أبني تصورًا عن أن جدي كان ذكيًّا و«ماكرًا كأفعى»، كما يقول الناس البسطاء الذين عاشوا في منتصف القرن التاسع عشر. تجلى مكر جدي في أنه، بعد مجيء الروس إلى القوقاز، ترك قطعان الخيول وشأنها إلى الأبد وعاش

حياة مسالمة لم يكن في الإمكان قطعًا توقعها من هذا الشخص الذي لا يردعه شيء. قُتل رفاقه جميعهم جراء عمليات الثأر، وهوجمت داره مرتين، لكنه علم بذلك سابقًا في المرة الأولى وغادر مع عائلته كلها، وفي المرة الثانية رد على إطلاق النار عدة ساعات من بندقية، فقتل ستة أشخاص وصمد إلى أن وصلته النجدة. مع ذلك تمكن المهاجمون من إلحاق بعض الضرر بجدي، فقد قطعوا أفضل شجرة تفاح لديه. كان جدي فخورًا ببستانه ولم يسمح لأحدٍ غيري بدخوله. في هذا البستان كان ينمو تفاح من النوع «الأبيض الشفاف»(13)، وخوخ ذهبي اللون كبير الحجم، وإجاص بيضوي الشكل ضخم ضخامة غير عادية، وفي وسط البستان، في قاع الوادي الضيق الذي يُسمى في اللغة الروسية القوقازية «وهدة»، كان يجري نهير تكثر فيه أسماك النُّقْط. كنت أفرط في تناول الثمار غير الناضجة وأتجول بوجه شاحب وبمعاناة تظهر في عينَي، فتعاتب عمَّتي جدي قائلة: «أها، ها قد أطلقت الولد في البستان!». كانت عمتي تدير كل شيء عمليًّا، وكلما ازداد جدي شيخوخة تمسك بزمام السلطة أكثر، لكنها لم تجرؤ على معارضته عادة، وحين تقول «ها قد أطلقت الولد في البستان»، يحتدم جدي غضبًا ويصرخ بصوت مكتهل عالٍ: «اسكتي!». فتخاف عمتي إلى حد الموت، وتمضي إلى غرفتها وتستلقي على الأريكة ساعة كاملة، وقد دفنت وجهها في الوسادة.

سألتها ذات مرة:

- لماذا تخافين إلى هذا الحد؟

أجابت:

- إنك لا تعرف شيئًا. جدك سيقطِّعني نصفين. جدك شخص مخيف.

قلت:

- أنتِ خوافة وحسب. جدي لطيف جدًّا ولن يلمسك بإصبع، مع أنك شريرة وبخيلة.

ثم أردفتُ، ناسيًا موضوع جدي وقد احتددتُ فجأةً:

- لماذا لا تريدينني أن أذهب إلى البستان؟ هل تريدين أن تبقى التفاحات كلها لكِ؟ لن تستطيعي أكلها كلها في كل الأحوال.

- سأكتب إلى أمك وأخبرها أنك تكلمني بوقاحة.

لكن تهديد عمتي لم يُخفني على الإطلاق، ولا سيما أني نادرًا ما كنت أتشاجر معها: كنت منشغلًا جدًّا بإطلاق النار على العصافير ومطاردة القطط والتجول في الغابة. وبعد أن أمكث عند جدي شهرًا أو شهرًا ونصف الشهر كنت أسافر إلى مدينة كيسلَفودسك التي أحبها كثيرًا، فهي المدينة الوحيدة من مدن الأقاليم التي تتميز بعادات العاصمة وبالمظهر الخارجي للعواصم. أحببت منازلها الريفية التي تشمخ عاليةً فوق شوارعها، وحديقتها العامة متناهية الصغر، والنفق المغطى بعرائش دوالي العنب الخضراء، الذي يفضي من محطة القطارات

إلى المدينة، وضجة وقع الخطوات على حصباء قاعة الحفلات في المصيف، والناس خليي البال القادمين إليها من أرجاء روسيا كلها. لكن منذ سنوات الحرب الأولى امتلأت كيسلَفودسك بالسيدات اللواتي خسرن أموالهن وبالممثلين المفلسين والشبان القادمين من موسكو وبطرسبورج؛ هؤلاء الشبان كانوا يرمحون خببًا على صهوات جياد مستأجرة وهم يهزون أكواعهم في تهور، كأنما أحدهم يلكزهم تحت آباطهم. في كيسلَفودسك كنت أشرب مياه «نارزان» المعدنية، وقد أضيف إليها شراب مُحلًّى، وأتجول في الحديقة العامة، وأتسلق الجبل إلى حيث المبنى الأبيض الصغير ذو الأعمدة الذي ينتصب عاليًا فوق المدينة؛ كان اسمه «معبد الهواء». لم أعرف من أطلق عليه هذه التسمية المتكلفة، الجديرة بشاعر من شعراء الأقاليم ذي شعر طويل أنهى ثلاثة صفوف في المدرسة الابتدائية العليا في الماضي. لكني كنت أحب الصعود إلى هناك: كانت الريح تخرُّ، مثل نهر جوي، وتتدفق بين الأعمدة. كانت الجدران البيضاء مغطاة بكتابات تعكس رهافة الحب الروسي الميئوس منه والتوق المغرور إلى تخليد الاسم الشخصي. أحببت الأحجار الحمراء على الجبل، وأحببت حتى «قصر الخيانة والحب»، حيث كان مطعمًا، وفي المطعم أسماك نُقْط رائعة. أحببت التراب الأحمر في طرقات كيسلَفودسك وحسناوات قاعة الحفلات البيضاوات، وهن نساء شماليات، بياض أعينهن قرمزي اللون كأعين الأرانب. كنت أمرُّ في الحديقة بجوار ذلك الجرف الصخري التافه في قرية أولخوفكا، حيث يناوب دائمًا مصوِّر يلتقط صورًا لسيدات وآنسات واقفات فوق جدار مائي متساقط؛ وقد رأيت هذه الصور في كل مكان، في أبعد أركان روسيا. «التقطتُ هذه الصورة في كيسلَفودسك...»، فكنت أقول: «طبعًا، طبعًا، أعرف ذلك».

كيسلَفودسك تلك، التي رأيتها في الطفولة، بقيت في ذاكرتي مبنى أبيض عليه كتابات عاطفية. لكنَّ الطقس كان يبرد شيئًا فشيئًا في المساءات؛ فأعود إلى البيت في بداية الخريف، كي أنغمس مرة أخرى في تلك الحياة الباردة والهادئة التي ترتبط في مخيلتي ارتباطًا لا فكاك له بالثلج المخشخش، وبالصمت في الغرف، وبالسجادات الناعمة والأرائك العميقة جدًّا الموضوعة في غرفة الاستقبال. في البيت كنت كمن انتقل إلى بلد آخر، حيث يجب العيش ليس كما في الأمكنة الأخرى كلها. كنت أحب في المساءات أن أمكث في غرفتي والضوء مطفأ؛ كانت أضواء المصابيح الليلية الوردية تبلغ نافذة غرفتي على شكل ومضات خافتة. وكان المقعد ناعمًا ومريحًا، وفي الأسفل، في شقة الطبيب الذي يقيم تحتنا، كان أحدهم يعزف على البيانو ببطء وعدم ثقة. كنت أشعر بأني أسبح في بحر، وزبد الأمواج، الأبيض كالثلج، يترجرج أمام عينَي. وحين أتذكر ذلك الزمن أفكر في أن حياتي كانت خالية من مرحلة المراهقة. كنت أبحث دائمًا عن مجتمع الأشخاص الأكبر مني سنًّا، وفي عمر الثانية عشرة كنت أسعى بكل السبل، خلافًا للبداهة، إلى أن أبدو شخصًا بالغًا. في عمر الثالثة عشرة درست

كتاب الفيلسوف ديفيد هيوم، «تحقيق في الذهن البشري»، وتصفَّحت بملء إرادتي كتاب «تاريخ الفلسفة» الذي وجدته في خزانة الكتب في منزلنا. هذه القراءة ولدت لديَّ إلى الأبد عادة التعامل مع كل شيء بطريقة نقدية، وهي العادة التي عوضت فيَّ عدم فهم الأحداث الخارجية والاستجابة لها بسرعة كافية. لم تكن أحاسيسي قادرة على اللحاق بعقلي. كان الحب المباغت للتغييرات، الذي ينتابني على شكل نوبات، يجذبني بعيدًا عن البيت؛ وذات يوم بدأت أغادر البيت مبكرًا وأعود متأخرًا، وأعاشر مجتمع أناس يثيرون الريبة، شركائي في لعبة البلياردو التي وَلِعت بها في عمر الثالثة عشرة والنصف، قبل اندلاع الثورة ببضعة أسابيع. أذكر الدخان الأزرق الكثيف الذي كان يغطي قماش الطاولة، ووجوه اللاعبين التي تبرز فجأة من الظل؛ كان بينهم أشخاص من دون مهنة وموظفون وسماسرة ومضاربون. كان لي بضعة رفاق، أشخاص مثلي، وبعد فوزنا جميعًا كنا نتوجه في الساعة العاشرة ليلًا إلى السيرك لمشاهدة الفارسات، أو إلى ملهى ليلي، حيث كانت تُغنَّى مقاطع شعرية فاحشة وترقص مغنيات الملهى؛ كن يرقصن وهنَّ واقفات على المسرح وقد وضعن أيديهن أسفل الحزام بحيث يلامس طرفا إبهام وسبابة اليد اليسرى طرفَي إبهام وسبابة اليد اليمنى. هذا التوق إلى التغيير والنزوع إلى مغادرة البيت وافقا الفترة الزمنية التي سبقت مرحلة جديدة من حياتي. كانت تلك المرحلة توشك أن تحل، فقد كان الإدراك المبهم لحتميتها المتعاظمة كامنًا في داخلي دائمًا، لكن ذلك الإدراك كان منثورًا ضمن عدد كبير من الأمور التافهة: كنت كمن يقف على ضفة نهر، مستعدًّا لإلقاء نفسه في الماء، لكنه لا يحسم أمره، على الرغم من معرفته بأن لا مفر من ذلك: سوف يمرُّ قليلٌ من الوقت بعد، وسوف أغطس في الماء وأسبح مدفوعًا بتياره القوي الرتيب. كان ذلك في أواخر ربيع العام ١٩١٧، وكانت الثورة قد اندلعت منذ بضعة أشهر، وأخيرًا، في الصيف، في شهر يونيو، حدث ما كانت حياتي تقودني إليه تدريجيًّا وببطء، ما كان كل ما عايشته وفهمته ليس سوى اختبار وتحضير له: في مساء خانق الجو، حل محل نهار حارٍّ لا يطاق، في ساحة مجمَّع «النسر» الرياضي، بينما كنت واقفًا في سروال صوفي وخفَّين، عاريًا حتى الخصر ومتعبًا، رأيت كلير جالسة على مقعد للمتفرجين.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى الساحة ثانيةً لأخذ حمام شمس، واستلقيت على الرمل، ووضعت يدَي تحت رأسي أرنو إلى السماء. كانت الريح تحرك ثنية في سروال السباحة الذي أرتديه، فقد كان واسعًا عليَّ أكثر مما ينبغي. كانت الساحة خالية إلا من الطالب ولاعب الجمباز جريشا فَرَبيوف، الجالس في ظل أشجار الحديقة المتاخمة للمنزل المجاور، يقرأ رواية من تأليف مارك كرينيتسكي(14). بعد نصف ساعة من الصمت سألني:

- هل قرأت كرينيتسكي؟

- لا، لم أقرأه.

- حسنًا فعلت إذ لم تقرأه.

ولاذ جريشا بالصمت ثانية. أغمضت عينَي ورأيت سديمًا برتقاليًّا تقطعه بروق خضر. لا بد أني غفوت بضع دقائق، لأني لم أسمع شيئًا. شعرت فجأة بيد باردة وناعمة تلمس كتفي. قال صوت أنثوي صافٍ من فوقي:

- لا تنم، أيُّها الرفيق الرياضي، من فضلك.

فتحت عينَي ورأيت كلير، التي لم أكن أعرف اسمها آنذاك. أجبت:

- لست نائمًا.

تابعت كلير:

- هل تعرفني؟

- لا. مساء أمس كانت أول مرة أراك فيها. ما اسمك؟

- كلير.

قلت فرحًا لسبب أجهله:

- آه، أنت فرنسية. اجلسي من فضلك، لكن الأرض رملية.

قالت كلير:

- أرى ذلك. يبدو أنك تمارس الجمباز بقوة، بل حتى إنك تمشي على العارضتين المتوازيتين على يديك. هذا مضحك جدًّا.

- تعلمت ذلك في مدرسة «الكاديت».

ظلت كلير صامتة دقيقة. كانت لديها أظفار طويلة وردية اللون، ويدان شديدتا البياض، وجسد متين ومسبوك، ورِجلان طويلتان بركبتين عاليتين.

- يبدو أن لديكم ملعبًا للتنس؟

كان في صوتها سر فتنة خاطفة، لأنه بدا لي بعد ذلك مألوفًا دائمًا، وشعرت أيضًا بأني سمعته في مكان ما ولحقت أن أنساه وأتذكره. قال ذلك الصوت:

- أريد أن ألعب التنس، وأن أتسجل في المجمع الرياضي. سلِّني من فضلك، إنك لست لطيفًا أبدًا.

- وكيف أسليكِ؟

- أرني كيف تمارس الجمباز.

قبضت على عارضة ساخنة بيدَي، وأريتها كل ما أتقنه، ثم تشقلبت في الهواء وحططتُ على الرمل ثانية. كانت كلير تنظر إليَّ واضعة كفًّا فوق عينيها، فقد كانت الشمس شديدة السطوع.

- جيد جدًّا، إلا أنك ستحطم رأسك يومًا ما. وهل تلعب التنس؟

- لا.

علَّقت كلير:

- إجاباتك مقتضبة جدًّا. يبدو أنك لست معتادًا التحدث إلى النساء.

قلت في دهشة:

- إلى النساء؟!

لم تخطر في بالي يومًا فكرة أن على المرء التحدث إلى النساء بطريقة خاصة. ينبغي للمرء أن يكون أكثر تهذيبًا معهن، لكن ليس أكثر من ذلك.

- لكنكِ لست امرأة، بل فتاة.

سألت كلير:

- وهل تعرف الفرق بين المرأة والفتاة؟

وضحكَت.

- أعرف.

- من شرح لك ذلك؟ عمتك؟

- لا، أعرف ذلك بنفسي.

قالت كلير:

- بالخبرة؟

وضحكت مرة أخرى. قلت وقد احمر وجهي:

- لا.

صاحت كلير وهي تضرب كفًّا بكف:

- يا إلهي، لقد احمر!

بسبب هذه الضجة استيقظ جريشا الذي كان نائمًا بطمأنينة فوق رواية مارك كرينيتسكي. سعل ونهض واقفًا: كان وجهه مكرمشًا، وشريط أخضر من العشب يعبر خده.

- من يكون هذا الشاب الوسيم وصغير السن نسبيًّا؟

قال جريشا بصوت خفيض لم يصفُ تمامًا بعد ولا يزال يحشرج من النوم:

- في خدمتك. جريجوري فَرَبيوف.

- لقد قلتَ ذلك بفخر كما لو أنك قلت: «ليف تولستوي».

أوضح جريشا:

- أنا الرفيق رئيس هذه المنظمة الرائعة وطالب بالسنة الثالثة في كلية الحقوق.

قلت:

- نسيت أن تضيف: «وقارئ مارك كرينيتسكي».

قال جريشا موجهًا كلامه إلى كلير:

- لا تعيريه بالًا. هذا الفتى صغير السنِّ جدًّا.

انتقلتُ في تلك السنة من الصف الخامس إلى الصف السادس، وكانت كلير قد أنهت المدرسة الثانوية. لم تكن من سكان مدينتنا الدائمين. والدها كان تاجرًا، ويقيم في أوكرانيا بصورة مؤقتة. كان جميعهم، أي كلير ووالدها ووالدتها وأختها الكبرى، يشغلون طابقًا كاملًا في فندق كبير ويعيشون منفصلين بعضهم عن بعض. والدة كلير لم تكن تمكث في البيت قَطُّ، وأخت كلير كانت طالبة في معهد الموسيقى، وتعزف على البيانو وتتسكع في المدينة، وكان يرافقها دائمًا الطالب يورجكا، وهو يحمل مغلَّفًا من الكرتون يحتوي على نوتات موسيقية. كانت حياتها كلها تنحصر في هاتين الشغلتين: النزهات والعزف، وفي أثناء عزفها على البيانو كانت تتكلم بسرعة من دون أن تتوقف عن العزف: «يا للهول، من يتصور أني لم أخرج بعد من المنزل اليوم!» وعندما تتنزه تتذكر فجأة أنها لم تحفظ تمرينًا كما ينبغي، ويورجكا، الذي يرافقها كظلها دومًا، يسعل بلطف وينقل المغلَّف الكرتوني من يد إلى يد. كانت هذه الأسرة غريبة الأطوار. بدا رأس الأسرة - رجل أشيب الشعر ومهندم دائمًا - كأنه يتجاهل وجود الفندق الذي يقيم فيه. كان يذهب إلى المدينة تارة، وإلى خارج المدينة بسيارته الصفراء تارة أخرى، ويرتاد المسرح كل مساء، أو يذهب إلى مطعم، أو ملهى ليلي، ولم يكن كثيرون من معارفه يعلمون حتى أنه يربي ابنتين ويعتني بزوجته، أمهما. كان يصادفها من حين إلى حين في المسرح وينحني لها بلطف شديد، وهي ترد على تحيته باللطف نفسه الذي كان يبدو، بالمناسبة، ملحوظًا أكثر، بل حتى ساخرًا بعض الشيء. تسأل رفيقةُ رأس الأسرة: «من تكون هذه؟»، ويسأل الرجل الذي يرافق زوجته: «من هذا؟». «هذه زوجتي»، «هذا زوجي». وكان كلاهما يبتسم وكلاهما يعلم ويرى؛ هو، ابتسامة زوجته، وهي، ابتسامة زوجها.

كانت ابنتاهما تُتركان وشأنهما. الأخت الكبرى تنوي الزواج من يورجكا، والأخت الصغرى، كلير، تولي كل شيء الاهتمام غير المكترث نفسه، ولم تكن هناك قواعد في منزلهم، ولا ساعات مخصصة لتناول الطعام. كنت في شقتهم مرات عدَّة. أذهب إلى هناك من ساحة المجمَّع الرياضي مباشرة، متعبًا وسعيدًا لأني أرافق كلير. أحببت غرفتها بأثاثها الأبيض، وطاولة المكتب الكبيرة المغطاة بورق نشاف أخضر - لم تكن كلير تكتب شيئًا قَطُّ - والمقعد الجلدي المزيَّن برؤوس أسود على مسنديه. فُرشت الأرضية بسجادة زرقاء عليها صورة فرس طويلة طولًا مفرطًا مع فارس هزيل يشبه دون كيخوته مصفر الوجه، وكانت الأريكة الواطئة ذات الوسائد ناعمة جدًّا وشديدة الانحدار، وميلانها في اتجاه الجدار. أحببت حتى اللوحة المائية التي تصور ليدا مع بجعة، المعلقة على الجدار، مع أن البجعة كانت داكنة اللون. قلت لكلير:

- لعلها مزيج من بجعة عادية وبجعة أسترالية.

وكانت ليدا غير متناسقة إلى حد لا يغتفر. أعجبتني كثيرًا صور كلير الشخصية، وكان لديها عدد كبير منها لأنها كانت تحب نفسها كثيرًا؛ لم تحب في نفسها فقط تلك الجوانب الشخصية وغير المادية التي يحبها الناس جميعًا في أنفسهم، بل كذلك جسدها وصوتها ويديها وعينيها. كانت كلير مرحة وضحوكًا وتعرف، على الأرجح، كثيرًا بالنسبة إلى سنوات عمرها الثماني عشرة. كانت تمازحني، فتجبرني على قراءة قصص هزلية قراءة جهرية، وترتدي بذلة رجالية، وترسم على وجهها شاربين صغيرين بفلينة محروقة، وتتكلم بصوت خفيض وتُريني كيف يجب أن يسلك «المراهق اللبق». لكني لم أكن على سجيتي، على الرغم من مزحات كلير والطيش الذي تعاملني به. كانت كلير آنذاك في العمر الذي تكون فيه كل قدرات الفتاة، كل مساعيها في التغنج والتدلل، كل حركة من حركاتها وكل فكرة، في حقيقتها، تجليات غير واعية لضرورة شعور الحب الجسدي الذي غالبًا ما يكون عديم الملامح تقريبًا، وناتجًا عن تفكك العلاقات وتحولها إلى شيء آخر، شيء يتملص من فهمنا ويبدأ بعيش حياة مستقلة، مثل النبات الذي يكون في غرفة بشكل غير مرئي ويملأ الجو برائحة نفاذة مزعجة. لم أفهم ذلك حينها، لكني لم أتوقف عن الشعور به، ولم أكن في حال جيدة، فكنت أتكلم بصوت عالٍ، وأجيب إجابات في غير محلها، ويمتقع وجهي، وحين أنظر إلى نفسي في المرآة لا أتعرَّف وجهي. كان يخيَّل إليَّ باستمرار أني أغطس في سائل مضطرم وحلو وأرى إلى جانبي جسد كلير وعينيها الصافيتين برموشهما الطويلة. كأنما تدرك كلير حالتي، فتتنهد وتمطُّ جسمها - تجلس على الأريكة عادة - وفجأة ترتمي على ظهرها وقد تغيَّرت ملامح وجهها، وأسنانها مطبقة بعضها على بعض. كان يمكن لذلك أن يستمر طويلًا لولا أني، بعد فترة وجيزة، توقفت عن زيارة كلير بسبب استيائي من أمها، الأمر الذي حدث بصورة غير متوقعة تمامًا. كنت جالسًا ذات مرة عند كلير، على الكرسي كالعادة، وكلير مستلقية على الأريكة، وفجأة تناهى إليَّ من وراء الباب صوت أنثوي خافت يقول شيئًا للخادمة بغضب. قالت كلير:

- إنها أمي. غريب! فهي نادرًا ما تكون في البيت في وقت كهذا.

في تلك اللحظة تمامًا دخلت والدة كلير الغرفة، من دون أن تدق الباب. كانت سيدة نحيلة في الرابعة والثلاثين من العمر، في جيدها عقد من الألماس، وفي أصابعها خواتم بأحجار زمرد ضخمة؛ شعرت فورًا بدهشة مزعجة من فيض الجواهر هذا. كان يمكن لها أن تبدو جميلة، لكن شفتيها الغليظتين وعينيها الفاتحتين القاسيتين كانت تشوِّه وجهها. نهضتُ واقفًا وانحنيت لها. قدمتني كلير إليها في الحال. قالت أمها وهي لا تكاد تنظر إليَّ:

- لا حدود لسعادتي بالتعرُّف إليك.

وفي تلك اللحظة نفسها قالت لكلير بالفرنسية:

- لا أدري لماذا تدعين دائمًا شبانًا كهذا الشاب الذي يرتدي قميصًا متسخًا مفتوح الأزرار، ولا يتصرف بلباقة.

امتقع وجه كلير وقالت:

- هذا الشاب يفهم الفرنسية جيدًا.

رمقتني أمها بنظرة عتاب، كأني مذنب في شيء ما، وغادرَت الغرفة بسرعة، صافقة الباب وراءها بقوة، وبعد أن صارت في الممر صاحت بصوت عالٍ:

- آخ، دعوني جميعًا وشأني.

بعد تلك الحادثة توقفت عن زيارة كلير؛ كان الخريف المتأخر قد حل، ولم يعد أحد يلعب التنس، فلم أعد قادرًا على رؤية كلير في ساحة الجمباز. ردًّا على رسائلي عينت لي كلير موعدين للقاء، لكنها لم تحضر إلى أي منهما. ولم أقابلها مدة أربعة أشهر. بعد ذلك حل الشتاء؛ وفي الغابة، خارج المدينة، حيث أتزلج على الثلج بالمزالج، كانت الأشجار تصلصل من الصقيع، كالفضَّة؛ والأشخاص الجسورون يخبُّون على جيادهم مسرعين على الطريق الممهدة إلى مطعم «فرساي» الواقع في ضاحية المدينة. فوق السهول الثلجية، التي تبدأ خلف الغابة، كانت الغربان تحلق ببطء. أتتبَّع طيرانها المتمهل وأفكر في كلير، وبدأ الأمل الغريب في أن ألتقيها هنا يبدو لي ممكنًا، مع أنه لم يكن هناك أي شك في أن كلير لا يمكن أن تأتي إلى هنا. لكن بما أني كنت أهيِّئ نفسي للقائها وحسب وأنسى كل ما عدا ذلك، فإنَّ قدرات التفكير السليم تعطلت لديَّ، وكنت أشبه الشخص الذي أضاع مالًا وراح يبحث عنه في كل مكان وبخاصة حيث لا يمكن قطعًا لماله أن يكون. طوال تلك الأشهر الأربعة لم أفكر في أي شيء غير كلير. كنت طوال الوقت أرى أمامي قامتها القصيرة، ونظرتها، وقدميها في جوربين أسودين. أتخيَّل الحوار الذي سيجري بيننا؛ أسمع ضحك كلير؛ أراها في الثلج. وبينما أنزلق بالمزلاجين ببطء أنظر، بانتباه لاشعوري، إلى الثلج، كأني أبحث عن آثار قدميها. حين أتوقف في الغابة، لأدخِّن لفافة تبغ، أسمع خشخشة الأغصان المنحنية تحت ثقل الثلج، وأتوقع أن أسمع بعد هنيهة وقع خطوات، وأن يتطاير غبار الثلج وأرى كلير وسط غمامته البيضاء. ومع أني كنت أعرف مظهرها الخارجي جيدًا، لكني لم أرَها متماثلة دائمًا، بل كانت تتغير، تتخذ أشكال نساء مختلفات وتصبح شبيهة بالليدي هاملتون تارة، وبالساحرة راوتنديلاين(15) تارةً أخرى. لم أفهم حالتي آنذاك، أما الآن فأشعر بأن هذه الأمور الغريبة والتغيرات كلها كانت كما لو أن شعاعًا من كشَّاف ضوئي مر سريعًا فجأة فوق صفحة الماء الواسعة والملساء، والمياه تتموج وتتلألأ، وحين ينظر شخص إليها يرى في اللألأة صورة متكسرة لشراع، وأضواء منزل بعيد، وشريطًا أبيض لطريق مرصوف بحجارة كلسية، وذيلًا وامضًا لسمكة، وصورة راعشة لمبنى زجاجي عالٍ لم يعش فيه قَطُّ. ثم كنت أشعر بالبرد، فأنطلق في الطريق ثانيةً وأتوجه إلى المدينة. يكون المساء قد حل، والثلج وردي اللون بسبب الغروب منتشرًا في كل مكان، وخلف

منعطف الطريق البعيد تصلصل أجراس عربة خيل أسفل قنطرة، وتتصادم أصواتها ويقاطع بعضها بعضًا، مدويةً بنغمات غير مفهومة. تظلم الدنيا؛ كأنما تجمد زجاج أزرق في الهواء: الزجاج الأزرق الذي تظهر فيه صورة المدينة، إلى حيث أعود، حيث تعيش كلير في مبنى الفندق الأبيض العالي. أقول لنفسي إنها ربما مستلقية على الأريكة، ودون كيخوته الأصفر يرمح بصمتٍ كعادته على السجادة، والبجعة الرمادية الداكنة لا تزال تحتضن ليدا البدينة، وينبسط الطريق الموصل من كلير إليَّ على الأرض ويصل الغابة التي أسير فيها بتلك الغرفة مباشرة، وبتلك الأريكة وبكلير المحاطة بقصص رومانسية. أنتظر... ويخيب أملي، ووسط هذه الأخطاء الدائمة يتَّحد جوربا كلير الأسودان وضحكتها وعيناها، مشكِّلة هيئة غريبة غير بشرية يمتزج فيها الخيالي بالحقيقي وذكريات طفولتي بهواجس مبهمة بالكوارث، وكان ذلك بعيد الاحتمال إلى درجة أني أردت مرات كثيرة أن أستيقظ من النوم، فيما لو كنت نائمًا. وأخذت هذه الحالة، التي كنت فيها ولم أكن، تتخذ فجأةً ملامح مألوفة تعرفتُ فيها الأطياف الشاحبة لتجوالاتي السابقة في المجهول، ووقعت ثانية في مرضي القديم جدًّا؛ فأصبحت الأشياء كلها تبدو لي غير صحيحة ومبهمة، ومرة أخرى كان اللهيب البرتقالي لشمس تحت-أرضية يضيء الوادي، حيث أقع في سحابة من التراب الأصفر، على ضفة بحيرة سوداء، في جمودي الميت. لم أعرف مقدار الزمن الذي مر حتى تلك اللحظة التي رأيت فيها نفسي في الفراش، في غرفة عالية السقف. كنت آنذاك أقيس الزمن بالمسافات، وبدا لي أني مشيت زمنًا طويلًا طولًا لا نهاية له، إلى أن أوقفتني إرادة مخلِّصة. رأيت في الصيد ذات يوم ذئبًا جريحًا، كان قد نجا من الكلاب. كان يقفز على الثلج بصعوبة، مخلفًا آثارًا حمراء على الأرض البيضاء. يتوقف كثيرًا، لكنه بعد ذلك ينطلق راكضًا بصعوبة من جديد، وعندما يسقط أشعر بأن قوة الأرض المخيفة تسعى جاهدةً لتثبيته في مكان معين وإبقائه هناك - كتلةً رمادية مرتجفة - إلى أن تصبح خطوم الكلاب المكشِّرة عن أنيابها على مقربة شديدة. قلت في سري إنَّ هذه القوة توقفني، مثل مغناطيس هائل الحجم، في ضلالاتي الروحية وتسمِّرني بالسرير، وأسمع مرة أخرى صوت المربية الواهن، المتناهي إليَّ كأنه قادم من الضفة الأخرى لنهر أزرق غير مرئي:

آخ، إني لا أرى حبيبي

لا في القرية ولا في موسكو،

أرى حبيبي فقط

في ليلة ظلماء وفي حلم لذيذ.

على الجدار رسمة سيبوفسكي التي أعرفها منذ زمن بعيد: الديك الذي رسمه في حضوري. قلت في نفسي: «وعند كلير بجعة ودون كيخوته»، ونهضتُ فورًا، «نعم، نعم، كل هذا

كلير». قلت في سري بقلق مرة أخرى: «لكن ماذا يكون ذلك «الهذا»؟» ورأيت أن «هذا» هو كل شيء: المربية، والديك، والبجعة، ودون كيخوته، وأنا، والنهر الأزرق الذي يجري في الغرفة... إنه كل الأشياء المحيطة بكلير. إنها مستلقية على الأريكة بوجه شاحب وبأسنان مطبقة بشدة، وقد نتأت حلمتاها تحت بلوزتها البيضاء. قدماها في جوربين أسودين تسبحان في الهواء، كأنما في الماء، والعروق الدقيقة أسفل ركبتيها تنتفخ من الدماء المتدفقة فيها. تحتها قطيفة بُنية من المخمل، وفوقها سقف مصنوع من مادة طينية، وحولها أنا والبجعة ودون كيخوته وليدا نعاني في تلك الأشكال المقدرة لنا إلى الأبد. حولنا تتكدس المنازل المحتشدة حول فندق كلير، حولنا المدينة، وراء المدينة سهول وغابات، وراء السهول والغابات روسيا؛ وراء روسيا، في الأعلى يطير عاليًا في السماء، من دون أن يترجرج، محيطٌ مقلوب رأسًا على عقب، مياه الفضاء الأرضية، القطبية الشمالية. وفي الأسفل، في شقة الدكتور، يعزفون على البيانو، والأصوات تتأرجح كما في الأراجيح. قلت بصوت مسموع: «أنا أنتظرك يا كلير. أنا أنتظرك دائمًا يا كلير». ورأيت مرة أخرى وجه كلير، منفصلًا عن جسدها، وكانت ركبتاها مبتورتين، كما لو أن يد أحدهم بترتهما، وهذه اليد تريني إياهما. «أردتَ أن ترى وجه كلير، أردتَ أن ترى رجليها؟ انظر». ونظرتُ إلى ذلك الوجه، كما لو أني أنظر في متحف الطرائف إلى رأس يتكلم، محاط بتماثيل من الشمع في بذلات غريبة الشكل؛ تماثيل مُعدَمين وأفَّاقين وقتلة. قلت في نفسي: لكن لماذا جزيئاتي هذه كلها وكل ما أعيش من خلاله هذا العدد الكبير من الكينونات، حشد الناس هذا وضجيج الأصوات غير المتناهي وكل ما تبقى؛ الثلج، الأشجار، البيوت، الوادي مع البحيرة السوداء، لماذا تجسَّد ذلك كله مباشرة فيَّ فجأة، وأنا ملقى على السرير ومحكوم بالاستلقاء ساعاتٍ أمام صورة كلير الهوائية، وأن أكون كذلك رفيقها عديم الحركة، مثل دون كيخوته وليدا، وأُصبح شخصية رومانسية وأفقد نفسي بعد مرور سنوات كثيرة، كما في الطفولة، كما في السابق، كما دائمًا؟ بعد أن شفيتُ من المرض واصلت العيش، مع ذلك، كما لو في بئر سوداء عميقة، يقف فوقها وجه كلير الشاحب الذي يظهر باستمرار، ويتغير، وينعكس في المرآة المائية الداكنة. كانت البئر تتأرجح، مثل شجرة في الريح، ويستطيل انعكاس صورة كلير ويتسع بلا نهاية، ثم يرتعش ويختفي.

أحببت الثلج والموسيقى أكثر من أي شيء آخر. عندما كانت تهب عاصفة ثلجية ويبدو أنه لم يعد هناك شيء، لا بيوت ولا أراضي، بل فقط عَجاج أبيض وريح وهسيس الهواء، وعندما كنت أمرُّ عبر هذا الفضاء المتحرك، كنت أفكر أحيانًا أن لو نشأت أسطورة خلق العالم في الشمال، لكانت أولى كلمات الكتاب المقدس: «في البدء كانت العاصفة الثلجية». بعد أن تهدأ العاصفة ينبثق فجأة من تحت الثلج عالم كامل، مثل غابة خرافية نمت من أمنية فضائية تمنَّاها أحدهم؛ كنت أرى هذه الخطوط المتعرِّجة لمبانٍ سوداء، وكثبانًا ثلجية راقدة وهي تصفِّر،

وأشكالًا صغيرة لأشخاص يسيرون في الشارع. كنت أحب بصورة خاصة أن أشاهد الطيور في أثناء هبوب العاصفة، وهي تطير عبر الثلج وتَحط على الأرض: تطوي أجنحتها تارة، ثم تفردها من جديد تارة أخرى، كأنها لا تريد مفارقة الجو، لكنها مع ذلك تَحط على الأرض وتتحول فورًا، كما لو بتأثير السحر، إلى كتلٍ سوداء تخطو على قوائم غير مرئية، وتضم أجنحتها بحركة متميزة، خاصة بالطيور، مفهومة لي بصورة غير عادية لسبب ما. لقد فقدت إيماني بالله والملائكة منذ زمن بعيد، لكن التصورات البصرية للقوى السماوية ظلت محفوظة فيَّ منذ الطفولة؛ واعتقدت أن هؤلاء الأشخاص المجنحين ذوي الجمال ما كانوا ليطيروا ويحطوا على الأرض مثل الطيور: لم يكن عليهم أن يؤدوا حركات سريعة، ذلك لأن رفرفات الأجنحة السريعة تدلُّ على التعجُّل والانهماك. عندما كنت أشاهد الطيور التي تهبط من ارتفاع شاهق كنت أتذكر دائمًا نسرًا قتيلًا. أتذكر كيف عاد أبي ذات يوم، متنكبًا بندقيته، من رحلة صيد غير موفقة لاصطياد خنزير بري؛ مضيت إلى ملاقاته. كنت آنذاك في نحو الثامنة من العمر. أمسك أبي بيدي، ثم نظر إلى الأعلى وقال:

- انظر يا كوليا. أترى الطائر يحلِّق؟

- أرى.

- هذا نسر.

بالفعل كان نسر يحلِّق عاليًا جدًّا في الجو، فاردًا جناحيه؛ يحوم فوقنا، كما بدا لي، وهو يميل جانبًا تارة، ثم يستوي تارة أخرى. كان الجو حارًّا جدًّا والشمس ساطعة. قلت في نفسي: يستطيع النسر أن ينظر إلى الشمس من دون أن يرمش. سدد أبي طويلًا، وهو يتتبَّع طيران النسر بشُعيرة التسديد، ثم أطلق النار. انتفض النسر فورًا نحو الأعلى، كأنما قذفته الطلقة في الهواء، ثم خفق بجناحيه سريعًا بضع مرات، وهوى. أخذ يفتل على الأرض، كالخذروف، وهو يفتح منقاره القذر، وكان ريشه مخضبًا بالدم.

- لا تقترب!

هكذا صرخ فيَّ أبي حين هرعت راكضًا إلى حيث سقط الطير، فلم أدنُ من النسر إلا بعد أن همدت حركته. كان ملقى على الأرض، وقد فتح جناحه المقوس المهشم نصف فتحة، وثنى رأسه مع منقاره المدمى، وكانت عينه الصفراء قد أصبحت زجاجية. تلألأ خاتم نحاسي في أحد مخالبه، عليه خربشة ما. تمتم أبي:

- إنه نسر عجوز.

كنت أتذكر هذه الحادثة كل مرة تهبُّ فيها عاصفة ثلجية، لأن أول مرة تذكرت فيها النسر القتيل كانت في أثناء هبوب عاصفة ثلجية بالتحديد؛ كنت في الغابة آنذاك، أتزلج على الثلج، وأجبرتني العاصفة على البحث عن ملجأ في عزبة صغيرة تقع وسط غابة في ضواحي

المدينة. كانت هناك محطة تزلج في هذه العزبة. انتظرت إلى أن هدأ الطقس، ثم خرجت إلى الغابة من جديد: غاص المزلاجان عميقًا في الثلج الناعم الذي كان قد هطل توًّا. بعد مرور بعض الوقت ضرب الصقيع واحمرَّت السماء في لمح البصر. قلت في نفسي: ستهبُّ الريح، لكن الجو ظل هادئًا. قلت بصوت مسموع: «ستهبُّ الريح». عندئذٍ فرقع شيء ما فجأة بعيدًا، بعيدًا في الغابة. هل سقط حبل جليدي من شجرة، أم ارتطمت ريح خفيفة بواحدة من تلك النوازل التي تتدلى من أشجار الشوح؟ لا أدري. أعرف فقط أن الصمت حل من جديد بعد ذلك، ثم صلصل الجليد مرة أخرى. كأنما قزم ضئيل من أقزام الغابة، يعيش في جوف شجرة في مكان ما، كان يعزف على كمان زجاجي بصوت خافت. وفجأة شعرت بأن المساحة الأرضية الهائلة انطوت، مثل خريطة جغرافية، وبدلًا من روسيا وجدت نفسي في نسخة خرافية من الغابة السوداء. خلف الأشجار تنقر طيور نقار الخشب؛ الجبال الثلجية البيضاء تغفو فوق سهول البحيرات المتجمدة؛ في الأسفل، في الوادي، تطفو في الهواء شبكة دقيقة مصلصلة، متجمدة من الصقيع. في تلك اللحظة - مثل كل مرة أكون فيها سعيدًا سعادة حقيقية - اختفيتُ من إدراكي؛ هذا ما كان يحدث في الغابة، في البرية، على ضفة النهر، على شاطئ البحر، هذا ما يحدث حين أقرأ كتابًا يستحوذ عليَّ. كنت قد بدأت في تلك الأزمنة أشعر بشدة بعدم كمال تلك الحفلة الموسيقية الصامتة التي تحيط بي أينما كنت، وقِصَر أجلها. كانت الحفلة الموسيقية تتخللني، وفي طريقها تظهر وتختفي لوحات رائعة، وروائح لا تُنسى، ومدن إسبانيا، وتنانين وحسناوات... أما أنا فكنت أصبح مخلوقًا عجيبًا، بيدين ورجلين لا لزوم لها، مع عدد كبير من أشياء مزعجة وغير مفيدة أحملها على عاتقي. كانت حياتي تبدو لي غريبة عني. كنت أحب بيتي وأسرتي كثيرًا، لكن كثيرًا ما كان يراودني حلم أبدو فيه كأني أسير في مدينتنا وأمرُّ بجوار المبنى الذي أعيش فيه، أمرُّ بجواره حتمًا، لكني لا أستطيع دخوله، لأن عليَّ أن أواصل طريقي. كان شيء ما يجبرني على الذهاب أبعد فأبعد، كأني لا أعلم أني لن أرى أي شيء جديد. كان هذا الحلم يراودني كثيرًا. كنت أحمل في داخلي كمية غير متناهية من الأفكار والأحاسيس والصور، التي اختبرتها ورأيتها، ولم أشعر بثقلها. وعند التفكير في كلير كان جسدي يمتلئ بمعدن مذاب، وكل ما كنت أفكر فيه - الأفكار، الذكريات، الكتب - كان يسارع حتمًا إلى التخلي عن شكله المعتاد، وكان كتاب بريم «حياة الحيوانات»، أو النسر المحتضر، يتمثَّل لي في هيئة ركبتَي كلير العاليتين، وبلوزتها التي تُرى من خلالها شامات دائرية معذِّبة تحيط بحلمتيها، وعينيها ووجهها. كنت أحاول عدم التفكير في كلير، لكني نادرًا ما أتمكَّن من ذلك. كانت هناك، مع ذلك، مساءات لا أتذكرها فيها مطلقًا: الأصح أن التفكير في كلير كان يقبع في أعماق وعيي، فأشعر بأني نسيتها.

ذات يوم، في وقت متأخر جدًّا من الليل، كنت عائدًا من السيرك إلى البيت مشيًا، ولم أكن أفكر

في كلير. كان الثلج يهطل بغزارة، والسيجارة التي أدخنها تنطفئ في كل دقيقة. كانت الشوارع خالية من المارة، والنوافذ كلها معتمة. كنت أسير وأنا أتذكر أغنية لأحد المهرجين:

أنا لست من السوفييت،

أنا لست من «الكا-ديت»(16)،

آخ، أنا من مفوَّضي الشعب...

وأتذكر رجع الصدى المترجرج الغريب الذي يتردد دائمًا إذا كان الفنان يعزف على آلة موسيقية على المسرح الرملي لسيرك ويغني بمصاحبة هذا اللحن الذي لا يزال يتناهى إلى مسمعي. في الوقت نفسه انتابني فجأة شعور بأن شيئًا ما سيحدث، وحينذاك، بينما كنت أفكر في ذلك، أدركت أنني أسمع وقع خطوات ورائي منذ وقت طويل. التفتُّ: كانت كلير ورائي، غارقة في ياقة معطفها المصنوعة من فراء الثعلب، والشبيهة بغيمة صفراء، فاتحةً عينيها على اتساعهما، ناظرة عبر الثلج الذي يهطل ببطء. بدا لي أن صوت خرخرة سريعة لمياه تشرشر على الرصيف يتردد ليس بعيدًا خلف الزاوية، ثم صوت ضربات مطرقة على حجر، وبعد ذلك فورًا حل الصمت الذي كنت أسمعه في أثناء نوباتي المرضية. أصبح التنفس صعبًا عليَّ؛ كان الضباب الثلجي يحيط بي؛ وكل ما حدث بعد ذلك حدث من حولي لا في داخلي: وجدت صعوبة في الكلام، وكان صوت كلير يتناهى إليَّ كأنما من بعيد. قلت:

- مرحبًا كلير. لم أركِ منذ زمن بعيد.

أجابت كلير ضاحكة:

- كنت منشغلة. لقد تزوجت.

قلت في نفسي من دون أن أفهم: كلير متزوجة الآن. لكن العادة المخيفة المتمثِّلة في ضرورة إجراء حديث شغلت، بطريقة ما، جزءًا صغيرًا من انتباهي المتملِّص، وأنا أجبت، وتكلمت، وحتى حزنت في أثناء هذا الحديث، لكن ما تفوهتُ به لم يكن صحيحًا ولم يعبِّر عن مشاعري. كانت كلير تحدِّق إليَّ بنظرة ثاقبة من دون أن تتوقف عن الضحك، وقد تذكرتُ الآن أن فزعًا ومض في حدقتيها لحظة، حين أدركت أنها لا تستطيع إخراجي من حالة الذهول التي دهمتني على حين غرة. قالت إنها تزوجت منذ تسعة أشهر، لكنها لا تريد أن تشوِّه قوامها. تمتمتُ:

- هذا جيد.

وفهمت فقط عبارة أن كلير لا تريد أن تشوِّه قوامها، لكن لماذا قد يتشوَّه قوامها، هذا ما لم أسمعه ولم أفهمه. في وقت آخر كان مجرد الإعلان عن عدم الرغبة في تشويه القوام ليثير دهشتي طبعًا، كما قد يثير دهشتي لو أن أحدهم قال لي من دون أيِّ داعٍ: «لا أريد أن تُقطَع رِجلي».

- يجب عليك أن تتصالح مع فكرة أني لم أعد فتاة وإنما صرت امرأة. هل تذكر أول حديث لنا؟

قلت في نفسي: «أتصالح؟»، وقد التقطتُ هذه الكلمة، ثم قلت لها:

- نعم، يجب أن أتصالح... أنا لست غاضبًا منك يا كلير.

أردفت كلير:

- ألا يفزعك ذلك؟

- لا، بالعكس.

كنا نسير الآن جنبًا إلى جنب، وكنت أمسك كلير من ذراعها، ومن حولنا الثلج يهطل ندفًا كبيرة.

- ... اكتبها بالفرنسية.

حين سمعت صوتها، حاولت لحظة أن أتذكر مَن هذا الشخص الذي يكلمني. كلير لم تعد عذراء، قلت، حسنٌ، كلير لم تعد عذراء. حين وصلنا الفندق الذي تنزل كلير فيه، قالت:

- زوجي ليس في المدينة. أختي تنام عند يورجكا. أمي وأبي أيضًا ليسا في البيت.

- سوف تنامين نومًا هانئًا يا كلير.

لكن كلير تضاحكت مرة أخرى:

- أرجو ألا أفعل.

دنَت مني فجأة وأمسكتني بكلتا يديها من ياقة معطفي. قالت بنبرة حادة:

- لنذهب إلى غرفتي.

رأيت وجهها الجامد في الضباب أمامي، على مسافة كبيرة نسبيًّا. لم أتحرك من مكاني. اقترب وجهها مني وصار غاضبًا:

- هل فقدت عقلك أم أنك مريض؟

قلت:

- لا، لا.

- ما بك؟

- لا أعرف يا كلير.

لم تودِّعني. صعدَت الدرج، وسمعتُ كيف فتحت الباب ووقفت دقيقة عند العتبة. أردت اللحاق بها لكني لم أقدر على ذلك. كان الثلج يهطل كما في السابق ويذوب في الجو في أثناء هطوله، وفي الثلج تصاعد متضفِّرًا واختفى كل ما عرفته وأحببته حتى تلك اللحظة. بعد ذلك، لم أنم ليلتين متتاليتين. بعد مرور بعض الوقت صادفت كلير ثانيةً في الشارع وانحنيت لها محييًا، لكنها لم ترد على تحيتي.

خلال السنوات العشر التي فصلت بين لقاءَي بكلير لم أستطع نسيان ذلك يومًا وفي أيِّ مكان. تارة كنت آسف لأني لم أمت، وتارةً أتخيَّل نفسي عشيق كلير. حتى عندما كنت متشردًا، أنام تحت السماء المفتوحة للبلدان الآسيوية البربرية، كنت أتذكَّر طوال الوقت وجهها الساخط، وبعد مرور سنوات كثيرة كنت أستيقظ في الليل من ندم لا حدَّ له، لم أفهم سببه فورًا، وفقط فيما بعد أخمن أن السبب ذكرى كلير. رأيتها من جديد، عبر الثلج والعاصفة والقعقعة الصامتة لأعظم هزَّة في حياتي.

* * *

لا أذكر زمنًا - أيًّا يكن الموقف الذي أكون فيه وبصرف النظر عن الأشخاص الذين أكون بينهم - لم أكن فيه واثقًا بأني لن أعيش لاحقًا هنا ولا على هذا النحو. كنت مستعدًّا دائمًا للتغييرات، مع أن التغييرات لم تكن متوقعة، وكنت أشعر ببعض الأسف سابقًا لأني سأهجر حلقة الرفاق والمعارف تلك التي تمكنتُ من التعود عليها. كنت أفكر أحيانًا أن هذا الانتظار الدائم لا يتوقف على الظروف الخارجية، ولا على حب التغيير، بل كان شيئًا فطريًّا ومحتَّمًا، ومحسوسًا على الأرجح، كالبصر والسمع. كان الرابط المدرَك بين شدة هذا الانتظار والأحاسيس الأخرى، التي تصلني من الخارج، موجودًا طبعًا، لكن لم يكن في الإمكان تفسيره بأي حُجج عقلية. أذكر أني، قبل فترة وجيزة من سفري الذي لم يكن أمره محسومًا بعد آنذاك، بينما كنت جالسًا في الحديقة، سمعت فجأةً حديثًا باللغة البولندية على مقربة مني، كانت تتكرر فيه كثيرًا كلمتا «كل» و«جدًّا». شعرت بقشعريرة في ظهري وأيقنت بشدة أني الآن سأسافر حتمًا. أي علاقة قد تربط هاتين الكلمتين بمجرى الأحداث في حياتي؟ غير أني، حين سمعتهما، فهمت أن لا شكوك بعد الآن. لم أعرف ما إذا كان هذا اليقين ليظهر لو أن، بدلًا من هاتين الكلمتين البولنديتين، تردَّد إلى جواري تغريد شحرور أو صوت طائر الوقواق الكئيب. لذا نظرت حينذاك إلى الشخص الذي يقول «كل» و«جدًّا»؛ كان ذلك الشخص، فيما يبدو، يهوديًّا بولنديًّا، وكان يلُوح في ملامح وجهه تعبير الفزع والاستعداد للابتسام في التوِّ وكذلك، على الأرجح، دناءة لا شك فيها، مع أنها تكاد لا تُلحظ ولا تبدو للعيان: تلك الوجوه تُلحَظ لدى الأشخاص الذين يعيشون على نفقة النساء ويقيمون في منازلهن، مثل «الألفونسات»(17). كانت تجلس معه شابة في قرابة الثانية والعشرين من عمرها، وتضع خواتم في أصابعها المحمرة ذات الأظفار الطويلة غير المنظفة، ولها عينان حزينتان، مريرتان، وابتسامة متميزة تجعلها فجأة قريبة إلى أي شخص ينظر إليها عرَضًا. لم أرَ هذين الشخصين بعد ذلك قَطُّ، غير أني أتذكرهما جيدًا جدًّا، كأني عرفتهما زمنًا طويلًا ومنذ أمدٍ بعيد. في أي حال، لطالما أثار الأغراب اهتمامي، إذ ما يصبح مألوفًا في الأشخاص الذين نعرفهم لا يشكل خطرًا، وبالتالي لا يثير الاهتمام، بينما السمة نفسها تبدو أكثر جلاءً عند الغرباء. حينذاك كنت أشعر بأن كل

شخص غريب يعرف شيئًا لا يمكنني تخمينه، وكنت أميِّز الأغراب ببساطة عن الأغراب بامتياز، الذين كان نمطهم في مخيلتي نمط الأجنبي، أي ليس فقط شخصًا من جنسية أخرى، وإنما ينتمي إلى عالم آخر لا سبيل لي إليه. ربما وُلِد شعوري تجاه كلير جزئيًّا من أنها فرنسية وأجنبية، فمع أنها تتكلم اللغة الروسية بحرية تامة وبطلاقة وتفهم كل شيء، حتى معاني الأمثال الشعبية، لكن مع ذلك بقي فيها نوع من السحر لا وجود له في المرأة الروسية. لغتها الفرنسية أيضًا كانت بالنسبة إلى مسمعي ممتلئة بروعة عجيبة لا مثيل لها، بصرف النظر عن أنِّي كنت أتكلم الفرنسية بسهولة وكان عليَّ أن أعرف أسرارها الموسيقية، ليس مثل كلير طبعًا، لكن كان لا بد أن أعرفها مع ذلك. من جهة أخرى، لطالما تقتُ لاشعوريًّا إلى المجهول الذي كنت آمل أن أجد فيه إمكانات جديدة وبلدانًا جديدة. كنت أشعر بأن من ملامسة المجهول سوف ينبعث ويتجلى فجأةً، في شكل أكثر صفاء، كل ما هو مهم، كل معارفي، وقواي، ورغبتي في فهم شيء جديد أيضًا؛ وعند فهمه، أُخضعه بذلك لنفسي. كانت تطلعات كهذه، لكن في شكل مختلف، تلهم - كما كنت أعتقد آنذاك - الفرسان والعشاق، وحملات الفرسان الحربية، وركوع العشاق أمام الأميرات الأجنبيات. هذا كله كان عبارة عن رغبة لا تُخمد في المعرفة والسلطة. لكن هنا كان يظهر فورًا تعارض يتلخص في أن لحملات الفرسان أسبابًا مباشرة كانوا هم أنفسهم يصدِّقونها وبسببها يذهبون إلى القتال؛ ألم تكن هذه الأسباب هي الحقيقية يا ترى، والأسباب الأخرى مختلَقة وحسب؟ والتاريخ، والرومانسية، والفن، نشأت جميعها فقط حينذاك، عندما كانت الأحداث التي شكَّلت أساسًا لنشوئها قد ماتت ولم يعد لها وجود، وعندما أصبح ما نقرأه ونعتقده عنها مجرد لعبة أطياف تعيش في مخيلاتنا. وكما اخترعت في الطفولة مغامراتي على متن سفينة القراصنة التي أخبرني أبي عنها، كذلك ابتكرت فيما بعد الملوك والفرسان والحسناوات، ناسيًا أن الحسناوات كنَّ أحيانًا محظيات، وأنَّ الفرسان كانوا قتلة والملوك حمقى، وأن العملاق بَربَروس ذا اللحية الصهباء لم يفكر يومًا في المعرفة، ولا في الحكايات الخرافية، ولا في حبِّ المجهول، ولعله، في أثناء غرقه في النهر، لم يتذكر ما كان عليه أن يتذكره لو أنه خضع لقوانين حياته المتخيَّلة التي اخترعناها له بعد موته بمئات السنين. حين كنت أفكر في ذلك، كان كل شيء يبدو لي غير حقيقي وغامضًا، كالأطياف التي تتحرك في الدخان. وكنت مرة أخرى أتعامل مع ما أراه من حولي، ومع التعارف الأكثر قربًا للأشخاص المحيطين بي، انطلاقًا من تصوراتي القوية، لكن التي لا أساس لها. كانت أهمية ذلك تزداد بسبب شعوري باقتراب ضرورة هجري هؤلاء الأشخاص، وأني قد لا أراهم بعد ذلك أبدًا. لكني عندما كنت أركِّز انتباهي عليهم كنت ألحظ نقائصهم وجوانبهم المضحكة أكثر من أي شيء آخر، ولا ألحظ مناقبهم. كان هذا يحدث، من ناحية، بسبب عدم براعتي في فهم الناس، ومن ناحية أخرى لأن التعامل الانتقادي تجاههم كان قويًّا لديَّ، ولم أمتلك تقريبًا فن

فهمهم وتقبلهم. ظهر هذا الفن بعد ذلك بفترة طويلة، لكن كان يحدث أحيانًا أن يكون غير موثوق، مع أنه كان في أحيان أخرى مخلصًا وصادقًا جدًّا. كان يعجبني أن أحب بعض الأشخاص من دون أن أقترب منهم، وحينذاك يبقى فيهم شيء غير مفصَح عنه، وعلى الرغم من معرفتي أنَّ هذا الشيء قد يكون بسيطًا وعاديًّا، فإني كنت أخترع لنفسي لاإراديًّا أوهامًا ما كانت لتظهر لو لم يبقَ أي شيء غير مفصَح عنه. من بين هؤلاء الأشخاص أحببت بوريس بيلوف أكثر من الآخرين، وهو مهندس كان قد أنهى دراسته في المعهد التكنولوجي توًّا. كان يتميز بأنه لم يتحدث بجدية قَطُّ، وعندما غنى الطالب الحربي فولوديا، صاحب الصوت الرائع (كان في إجازة من فصيلة ما من فصائل الفدائيين، وكان بيلوف، حين يقدِّمه إلى أحدهم، يقول عنه: «فلاديمير، مغنٍّ وفدائي»)، في غرفة استقبال عائلة فورونين أغنية «سكون» العاطفية ووصل إلى الموضع الذي «يسبح» فيه القمر وراء أشجار الزيزفون، أخذ بيلوف يصوِّر خلف ظهره قمرًا سابحًا، وهو يلوِّح بيديه ويلهث مثل شخص سقط في الماء. فور انتهاء فولوديا من الغناء قال بيلوف:

- إنني مستعد أن أدفع مبلغًا كبيرًا من المال لقاء إثبات لا يُدحض بأن القمر يسبح فعلًا، وأن أشجار الزيزفون تُصنع من الدانتيلا.

علَّق الفنان التشكيلي سيفرني، الذي كان حاضرًا، وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

- إنك تمزح طول الوقت...

ذلك لأنه هو نفسه لم يكن يمزح قَطُّ، لأنه لم يتمتع بهذه الموهبة ولذلك لم يكن يحب المازحين؛ كان متجهِّمًا دومًا وباستمرار. قال بيلوف بينه وبين نفسه: «إنسان لا يُقهر، وبطل في السوداوية. لكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة فيه هو أنه ما من رجل آخر في الأرض يتمتع بشهيته الخرافية».

سألته إحدى الفتيات:

- لكن يا سيفرني، لماذا تتجهَّم طول الوقت؟

أجاب سيفرني وهو يبتسم ابتسامة شريرة وينظر أمامه في شرود:

- يصعب القول...

لكنَّ الوضعية الرائعة التي اتَّخذها بعد هذه العبارة، قطعها بيلوف منشدًا:

لمن أبوح بحزني؟

في أثناء ذلك تبين أن بيلوف ليس شخصًا مازحًا فقط؛ فذات يوم، حين ذهبت إليه من دون موعد سابق، وبينما كنت أدنو من منزله، سمعت أحدهم يعزف على الكمان سرينادة لتوزيلِّي، ورأيت أن العازف هو بيلوف نفسه. قلت له في ذهول:

- ماذا! أتعزف على الكمان؟

قال في بساطة من دون أن يمزح أو يضحك كعادته:

- ما من شيء في العالم أفضل من الموسيقى.

وأضاف:

- ومن المؤسف ألَّا يتمتع المرء بأي موهبة.

بعد ذلك مباشرة تذكر فجأة، وبعد أن كرَّر عبارته بأنَّ لا شيء أفضل من الموسيقى، قال، لكن بنبرة أخرى، بنبرته الدائمة:

- ربما الشمَّام؟

وتظاهر بأنه مستغرق في التفكير. لكني علمتُ ما يرى من الضروري أن يخفيه عن الآخرين (أنه، هو الذي يسخر من الجميع، يخشى السخريات أكثر من أي شيء آخر)، وبعد ذلك أصبح بيلوف يعاملني بتحفظ أكثر من ذي قبل.

كان الفنان التشكيلي سيفرني شخصًا محدود الأفق جدًّا. كان شخصًا صامتًا عادةً، لكنه إذا شرع في الحديث فإنه يقول أقوالًا حمقاء لا محالة. كان مسرورًا جدًّا بلوحاته، وبمظهره الخارجي ونجاحه مع النساء. قال ذات مرة:

- هل تعلمون، أنا نفسي لست شخصًا سيئًا. اسمعوا، بينما كنت خارجًا من المسرح قبل بضعة أيام، إذا بممثلة معروفة تهرع نحوي بلهفة وتقول لي: «من أنت؟ ما كنيتك؟ هل تسمعني؟ إنني أنتظرك في بيتي حالًا...». ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ ابتسمتُ بحزن (هذا ما قاله: «ابتسمتُ بحزن») وأجبت: «أنا لا أحب الممثلات يا عزيزتي». فعضَّت شفتها حتى سال منها الدم وأخذت تضرب ذقنها بمروحتها اليدوية، ثم استدارت بحدة وغادرت. وأنا هززت كتفي.

قال بيلوف:

- سوف أكتب هذه القصة. إنك تقول، إذن، إنها عضَّت شفتها واستدارت بحدَّة، من دون أن تعدَّ ضربات المروحة اليدوية التي انهالت بها على ذقنها؟ وأنت ابتسمت بحزن؟

لم ينبس سيفرني بأي إجابة وراح يتحدث عن مرسمه. بالمناسبة، كان مرسمه غرفة صغيرة مرتبة تحتوي على لوحات معلَّقة بشكل متناظر، وقد أذهلت بيلوف، الذي زار مرسمه ذات مرة، لوحة تُمثل رأس طائر يمسك بمنقاره قطعة ما داكنة اللون، يُذكِّر شكلها من بعيد بشظية حديدية. كان مكتوبًا تحت اللوحة:

«إتود»(18) لبجعة

سأله بيلوف في شك:

- أهذا «إتود»؟

قال سيفرني بثقة:

- إنه «إتود».

- وما هو «الإتود»؟

فكَّر سيفرني قليلًا ثم أجاب:

- «إتود» كلمة فرنسية، كما تعلم.

وأخذ ينظر حوله، وتوقَّفت نظرته عند سميرنوف، رفيقه المقرب والمعجب بموهبته. أكد سميرنوف على كلامه بإيماءة من رأسه.

لم يكن سميرنوف يفهم شيئًا في الرسم، ولا في أي شيء يتخطَّى حدود معارفه المتواضعة جدًّا. درس في المدرسة الثانوية نفسها التي درستُ فيها، لكنه كان أكبر مني بثلاثة صفوف، وفي أزمنة صداقته مع سيفرني كان طالبًا في جامعة محلية. كان يحمل معه دائمًا كراريس ومنشورات ثورية، واحتياطيًّا جاهزًا من الأفكار عن التعاونيات والعمل الجماعي في الاقتصاد الزراعي، لكنه كان يعرف هذه المسائل كلها من خلال الكتب المنتشرة بين الجماهير فقط، بينما كان ضعيفًا في تاريخ الاشتراكية ولم يكن لديه تصور لا عن طائفية سان سيمون، ولا عن إفلاس روبرت أوين، ولا عن المحاسب المجنون الذي انتظر طوال حياته شخصًا كريمًا غريب الأطوار يعطيه مليونًا كي يبني بمساعدة هذا المال مجتمعًا سعيدًا في فرنسا في البداية، وبعد ذلك في الكرة الأرضية كلها(19).

سألت سميرنوف ذات مرة:

- ألم تمل من هذه الكراريس الدعائية؟

- إنها سوف تساعدنا على تحرير الشعب.

لم أعترض على كلامه، لكن بيلوف تدخَّل في الحديث، سأله:

- هل أنتم متأكدون بشدة من أن الشعب لن يتمكَّن من تدبير أموره من دونكم؟

أجاب سميرنوف:

- لو فكر الجميع على هذا النحو فلن نصبح أمة واعية أبدًا.

قال بيلوف موجِّهًا كلامه إليَّ:

- انظر إلى أين أوصلت الكراريس الدعائية هذا الإنسان اللطيف. لم تكن هناك يومًا أمم واعية في أي مكان. لماذا سنصبح جميعنا واعين فجأة بمساعدة كتيبات كتبها أشخاص أميون؟ وسميرنوف سيقرأ لنا عن تطور نظرية القيمة، وطباختنا مارتا، وهي زوجة تتمتع بفضائل استثنائية، ستقرأ لنا عن بدايات عصر النهضة؟ سميرنوف، اعرض هذه الكراريس على سيفرني. قل له إنها «إتود».

لكن هنا تبين أن سيفرني شيوعي وعضو في الحزب منذ زمن بعيد. أفرح ذلك بيلوف كثيرًا، فصافح سيفرني وقال له:

- أهنئك يا عزيزي. وأنا اعتقدت أنه لا يفعل شيئًا غير رسم «الإتود»!

علَّق سميرنوف، الذي كان يتكلم دائمًا بلغة غريبة ومزوَّقة، خاصَّة بالدعاية، على ذلك قائلًا:

- فكاهتك الفارغة، يا رفيق بيلوف، قد تُبعد عن صفوفنا كادحين قيِّمين.

قال بيلوف بيقين، موجِّهًا كلامه إليَّ وإلى سيفرني:

- هذا ليس إنسانًا. لا. إنه جريدة. وليس حتى جريدة، بل مقالة افتتاحية. أنت مقالة افتتاحية، هل تفهم؟

- لعلي أفهم أكثر مما تعتقد.

قال بيلوف بسخرية:

- يا لهذه الأفعال! «فهم»، «اعتقد». الإيديولوجيا التعاونية لا تقبل هذه الأشياء.

لكن لم يكن في مقدور سخريات بيلوف أن تؤثر في سيفرني، ولا في سميرنوف، وذلك لأنهما، إلى جانب غبائهما، كانا واقعَين أيضًا تحت هيمنة الموضة السائدة آنذاك في الأحاديث السياسية والمناقشات الاقتصادية-الاجتماعية. كنت لامباليًا حيال هذه الموضة، وأهتم فقط بالأفكار المجردة التي يمكن لها أن تكون قريبة مني ولها معنى قيِّم ومهم بالنسبة إليَّ. كان في إمكاني الانكباب ساعات على كتاب ليعقوب بوهمه، لكني لم أكن قادرًا على قراءة أعمال عن الاقتصاد التعاوني. وكان وقت الأحاديث في الموضوعات السياسية - روسيا والثورة - يبدو لي غريبًا، لكنَّ معناه، أو الأصح حركته، تبدو لي شيئًا مختلفًا تمامًا. كنت أتذكره، كما أتذكر الأمور الأخرى جميعها، غالبًا في الليل، حيث يكون المصباح الموضوع فوق طاولتي مضاءً، والجو خارج النافذة باردًا والدنيا مظلمة؛ وكنت أعيش كأنما على جزيرة نائية؛ وخارج النافذة وخلف الجدار تتزاحم أطياف، وهي تدخل الغرفة، ما إن أفكر فيها. آنذاك، في روسيا، كان الجو باردًا، والثلج عميقًا، وتلوح خطوط المنازل السوداء، والموسيقى وكل شيء يجري أمامي... وكان كل شيء عجائبيًّا. كل شيء يسير ببطء ويتوقف، وفجأة يتحرَّك من جديد؛ تطغى كل لوحة على الأخرى، كأنما نفخت الريح على شعلة الشمعة، وأخذت تتقافز على الجدار ظلال راعشة استُدعيت هنا فجأة بقوة لا يعلم إلا الله ما هي، لا يعلم إلا الله لماذا تطير مثل الأخيلة الصماء السوداء في أحلامي. وعندما تتعب عيناي، كنت أغمضهما، وأمام بصري كأنما كان الباب يصطفق، وها من الظلام والأعماق تولد ضجة تحت-أرضية، أصغيت إليها من دون أن أراها، من دون أن أفهم مغزاها، محاولًا أن أفهمها وأحفظها في ذاكرتي. سمعت فيها خشخشة الرمال، وهدير الأرض المتزلزلة، وصوتًا باكيًا وغاطسًا عميقًا لطيران مندفع لشيء ما، وأنغام آلتَي الهارمونيكا والأرغن اليدوي، وأخيرًا يبلغني صوت جنديٍّ أعرج:

اضطرم حريق موسكو واصطخب...

وحينذاك أفتح عينَي من جديد وأرى دخانًا وشعلة حمراء تتير الشوارع الشتائية الباردة. كان الطقس باردًا جدًّا بشكل عام آنذاك: في المدرسة الثانوية، مثلًا - كنت في الصف السادس - كنا نجلس من دون أن نخلع معاطفنا، والمعلمون يجيئون إلى المدرسة في معاطف الفرو. نادرًا ما كانت تُدفع لهم رواتبهم، ومع ذلك يحضرون الدروس بانتظام دائمًا. بعض المواد لم يكن هناك من يعلِّمها، الأمر الذي يشكل ساعات حرة، وكنا نستخدم هذه الحرية لنغني للصفوف كلها أغاني المحكومين بالأشغال الشاقة التي علَّمنا إياها بيرينكو، وكان طالبًا طويل القامة هزيل البنية، في الثامنة عشرة من العمر تقريبًا، يعيش في ضاحية غير هادئة من ضواحي المدينة،

ترعرع وسط اللصوص المستقبليين، وربما القتلة. كان يحمل سكينًا فنلندية، ويتكلم دائمًا بلغة اللصوص، ويفرقع بلسانه بطريقة خاصة ويبصق من بين أسنانه. كان رفيقًا رائعًا وتلميذًا سيئًا، ليس لأنه، بالمناسبة، لم يتمتع بأي مؤهلات، وإنما لسبب آخر: كان والداه شخصين بسيطَين. لم يمكن لأحد في الأسرة مساعدته في دروسه. في الشقة الصغيرة، الملاصقة لورشة النجارة التي كان والده يملكها، لم يعرف أحد «حرب المائة عام»، ولا «حرب الوردتين»، وهذه التسميات كلها، والكلمات الأجنبية، ووقائع التاريخ الحديث المبلبلة، كذلك تمامًا قوانين الحرارة والمقتطفات من أعمال الكُتاب الكلاسيكيين الفرنسيين والألمان... كان هذا كله غريبًا جدًّا على بيرينكو، إلى درجة أنه لم يكن قادرًا على أن يفهم، ولا أن يحفظ، ولا، أخيرًا، أن يشعر بأن هذا له أي معنى مفيد لأي شيء ولو بدرجة ضئيلة جدًّا. لكن كان يمكن لبيرينكو أن يهتم بذلك لو لم تدفعه متطلباته الروحية في اتجاه آخر. لكنه كان حساسًا جدًّا، مثله مثل معظم الأشخاص الذين من هذا النوع، وكان يغني أغنياته الخاصة بالمحكومين بالأشغال الشاقة والدموع تكاد تطفر من عينيه. كانت هذه الأغنيات تعوِّضه عن تلك الاضطرابات الروحية التي تثيرها الكتب والموسيقى والمسرح، ولعل احتياجاته كانت، على الأرجح، أقوى من احتياجات زملائه الطلاب. لم يعرف معظم المعلِّمين ذلك وكانوا يُعدون بيرينكو شخصًا شقيًّا ببساطة؛ كان معلم اللغة الروسية فقط يعامله بجدية خاصة وباهتمام ولم يسخر يومًا من جهله، ولذلك كان بيرينكو يحبه من قلبه ويميزه عن الآخرين.

بدا لنا هذا المعلم شخصًا غريب الأطوار، لأنه لم يتحدث في دروسه عن الأشياء المعتادة التي درستُها خمس سنوات في المدرسة الثانوية، إلى أن انتقلت إلى مدرسة أخرى، وبالتحديد إلى المدرسة التي يعلِّم فيها فاسيلي نيكولايفيتش؛ كان اسمه فاسيلي نيكولايفيتش. كان يقول: «ها قد ذكرتُ لكم اسم ليف تولستوي. كان لدى الشعب، بالمناسبة، تصوُّر خاص جدًّا عنه. أمي، مثلًا، التي كانت امرأة بسيطة تمامًا - كانت خياطة - أرادت ذات يوم الذهاب عند تولستوي بعد موت أبي، لتستشيره فيما عليها أن تفعل. كان الوضع سيئًا جدًّا، فقد كانت فقيرة جدًّا، وأرادت الذهاب إلى تولستوي لأنها حسبته آخر الأبرار والحكماء في الأرض. لدينا وإياكم آراء أخرى، أما أمي فكانت أكثر بساطة، ولعلها لم تكن لتفهم نفسية آنا كارينينا والأمير أندريه، وبصورة خاصة نفسية الكونتيسة يلينا بيزوخوفا طبعًا. لم تكن أفكارها معقَّدة، لكنها كانت، في المقابل، أكثر قوة وصادقة، وهذه - يا أيُّها السادة - سعادة كبيرة».

ثم كان يتحدث عن فاسيلي كيريلوفيتش تِرِدياكوفسكي، ويوضح الفرق بين نظم الشعر المقفَّى والشعر الغنائي، وفي الخاتمة يقول: «كان تِرِدياكوفسكي شخصًا سيئ الحظ، فقد عاش في زمن قاسٍ. كانت منزلته متدنية؛ تخيَّلوا، في ظِل فظاظة أخلاق البلاط الملكي في ذلك الزمن، هذا الدور: شيء وسط بين المهرج والشاعر. دِرجافين كان محظوظًا أكثر منه بكثير».

كان فاسيلي نيكولايفيتش نفسه، بلحيته الشيباء ونظارته المعدنية المتواضعة، يُذكِّر بقديس «رَسْكولي»(20)؛ يتكلم بسرعة، بتلك اللغة الروسية التي تُسمع في أوكرانيا بصورة غير متوقَّعة مطلقًا. كان هندامه سيئًا جدًّا وفقيرًا، وإذا رآه شخص لا يعرفه في الشارع لن يخطر في باله أبدًا أنَّ هذا الشيخ الضئيل يمكن أن يكون مربيًا ومثقفًا رائعًا. كان فيه شيء زُهدي: أتذكر حاجبيه الأشيبين المقطبين، وعينيه المحمرتين اللتين تنظران من خلال نظارتيه، وصدقه وشجاعته وبساطته: لم يكن يخفي قناعاته التي يمكن أن تبدو يسارية للغاية عند الهِتمان(21) ويمينية جدًّا عند البلاشفة، ولا أن أمه كانت خياطة؛ قلة نادرة من الناس كانت لتعترف بذلك. كنا ندرس آنذاك سيرة حياة القُمص أفاكوم، وقرأ لنا فاسيلي نيكولايفيتش مقتطفات طويلة منها:

... وعندما انبلج الفجر في يوم الأحد، أجلسوني في عربة نقل ومدوا ذراعَي، وأخذوني من دار البطرك إلى دير أندرونيف، وهناك رموني مقيدًا بسلسلة في زنزانة مظلمة محفورة في الأرض، وبقيت ثلاثة أيام لم آكل أو أشرب فيها شيئًا؛ جالسًا في الظلام، كنت أصلي وأنا مقيَّد بسلسلة، لا أدري ما إذا كنت متجهًا إلى الشرق أم إلى الغرب. لم يزرني أحد سوى الفئران والصراصير، وكانت الجداجد تصرصر والبراغيث كثيرة. بعد أن بقيت محرومًا من الطعام ثلاثة أيام، أردت أن آكل، وبعد صلاة المساء وقف أمامي كائن لم أدرِ أكان إنسانًا أم ملاكًا، ولا أعلم ذلك حتى الآن، إلا أنه في الظلام، بعد تلاوة صلاة، أمسك بي من كتفي ورفعني بالسلسلة وأجلسني على مصطبة، ووضع في يدي ملعقة وقليلًا من الخبز، وأعطاني حساء لأحتسيه - كان طيبًا ولذيذًا جدًّا - وقال لي:

- كفى، هذا يكفيك من أجل تعزيز البنيان!

واختفى... سلَّموني مخفورًا إلى راهب وأمروه أن يجرَّني إلى الكنيسة. عند الكنيسة أخذوا يشدونني من شعري، ويلكزونني في جنبي، ويجرونني من السلسلة، ويبصقون في عينَي. ليسامحهم الله في الدنيا والآخرة، فهذا ليس عملهم بل هو من عمل الشيطان الخبيث.

في مناسبة أخرى حنق عليَّ آمر آخر: هرع إلى منزلي وضربني وعضَّ أصابعي مثل كلب، وعندما امتلأ بلعومه دمًا، حينذاك أفلت يدي من بين أسنانه وتركني ومضى إلى منزله. أما أنا فحمدتُ الله ولففتُ يدي بخرقة، وذهبت لأداء صلاة المساء. وفي الطريق هاجمني من جديد حاملًا مسدسين، وحين أصبح على مقربة مني أطلق النار من أحدهما، وبمشيئة الله أطلق البارود شرارة وانطفأ، ولم يطلق المسدس، فرماه على الأرض وأطلق النار ثانيةً من المسدس

الآخر. لكن إرادة الله تدخلت مرة أخرى، ولم تنطلق الرصاصة من المسدس الآخر أيضًا. أما أنا فواظبت على الابتهال إلى الله، وأنا ماشٍ في الطريق، وباركته بيدي المصابة وانحنيت له. هو ينبحني، وأنا أقول له: «فلتلهج شفتاك بالخير والإحسان يا إيفان روديونوفيتش!». حنق عليَّ بسبب الخدمة الكنسية: هو يريد الإسراع، وأنا أنشد وفق النظام، لا في عجالة، وقد أزعجه هذا الأمر. بعد ذلك انتزع مني منزلي، وطردني، بعد أن سرق كل شيء، ولم يعطني مالًا للطريق.

كان فاسيلي نيكولايفيتش يقرأ بطريقة جيدة جدًّا، وكان رفيقي شورا، وهو من أكثر الأشخاص الذين التقيتهم موهبةً وذكاءً، يقول لي: «هل تعلم أنَّ فاسيلي نيكولايفيتش نفسه يشبه القُمص أفاكُوم؟ أمثال هؤلاء بالتحديد كان مصيرهم الحرق».

سألَنا فاسيلي نيكولايفيتش ذات يوم:

- من منكم يعرف أسطورة «رقَّاص السيدة العذراء»(22)؟

كان يعرف هذه الأسطورة شخص واحد فقط في الصف؛ طالب يهودي ذو وجه طفولي لطيف، كنيته «روزنبرج»، صغير الحجم إلى درجة أن مظهره يوحي بأنه في الثانية عشرة أو الحادية عشرة من العمر، بينما في الحقيقة قد أتمَّ السنة السادسة عشرة. في الصباحات كانت طالبات الصف الثامن، حين يصادفنه في الشارع، يصحن فيه: «يا ولد، يا ولد، اركض بسرعة وإلا تأخرت!» وروزنبرج يستاء إلى حد البكاء. كان أذكى وأنضج بكثير مما يمكن توقعه من شخص في سنه: يقرأ ويحفظ كثيرًا جدًّا، وكثيرًا ما يعرف أمورًا غريبة، قرأها ذات يوم في التقويم الكبير وظلت محفوظة في ذاكرته، مثل: طُرق تسميد الأرض في المكسيك، والخرافات الدينية عند البولينيزيين، ونكات تتعلق بأزمنة نشأة النظام البرلماني الإنجليزي. وروزنبرج هذا كان يعرف أسطورة «رقَّاص السيدة العذراء»، لأن، كما قال عندما استدعاه فاسيلي نيكولايفيتش ليشرح:

- من ذا الذي لا يعرفها؟

لكن أكثرية التلاميذ لم تكن قد سمعت قَطُّ بهذه الأسطورة؛ وفاسيلي نيكولايفيتش رواها لنا. أصغى الجميع بانتباه، وبيرينكو، الذي كان يُنعم النظر في سكينه الفنلندية، ظل جالسًا على هذا النحو، من دون أن يبعد نظره عن المعدن الأبيض، وهو مستغرق في تفكير عميق. بعد ذلك بيومين نصحَنا فاسيلي نيكولايفيتش أن نقرأ مقدمة آخر سيرة لتولستوي(23)، حيث يجري الحديث عن «الإخوة النِّمال» - وعن «الإخوة النِّمال» لم يكن حتى روزنبرج يعرف شيئًا. في ذلك اليوم بالتحديد استاء مني القسُّ الجديد الذي كان قد التحق بالمدرسة الثانوية توًّا، وكان

يرتدي غفارة حريرية وينتعل جزمة من جلد لماع. دخل الصف للمرة الأولى، ورسم علامة الصليب بطريقة بدت لي مغناجة، وتفحَّص الطلاب ثم قال:

- أيها السادة، إنَّ الزمن الراهن هو زمن يبدو فيه شرع الله وتاريخ الكنيسة موضة قديمة.

وهزَّ رأسه، ولوى شفتيه، وضحك ضحكة محبوسة بطريقة هازلة بضع مرات.

- ربما بينكم ملحدون لا يرغبون في حضور دروسي؟

ابتسم في استهزاء وفتح ذراعيه وأضاف:

- فلينهضوا وليخرجوا من الصف.

حين وصل إلى عبارة «ليخرجوا من الصف» أصبح جادًّا وصارمًا، كأنما يشدد على أن الأمر منتهٍ الآن بعد السخرية من الملحدين الجاهلين، ولن يفكر أحد، طبعًا، في مغادرة الصف. كان هذا الإنسان متشبِّعًا بالفخر، ولم يفوِّت قَطُّ فرصةً للتذكير بأن الدين مضطهَد في الوقت الراهن، وأن الأمر يتطلب من خُدامه شجاعة فائقة أحيانًا - كما في بدايات المسيحية - وكان يورد اقتباسات مقدَّسة، ويخطئ دائمًا في النصوص فيجعل القديس يوحنا يتلفظ بكلمات تعود إلى توما الأكويني تقريبًا، لكني أعتقد أن ذلك لم يكن له معنى كبير في نظره، فهو لم يكن يدافع عن الدين الدوغمائي، الذي لم يكن متمكنًا فيه، وإنما عن شيء آخر. وهذا الشيء الآخر كان يتجلى في أنه اعتاد وضعية «المضطهَد»، وقد ألِفها شيئًا فشيئًا إلى درجة أنه لن يعود لديه ما يفعله مطلقًا لو أن الدين أصبح محل احترام من جديد، ولربما أصبحت عندها الحال بالنسبة إليه صعبة ومملة جدًّا.

نهضتُ واقفًا وخرجت من الصف. شيَّعني بعينيه وقال:

- تذَكر ذلك الموضع في القداس الإلهي حين يُطلب من المَوعوظين(24) أن يخرجوا!

بعد أسبوع سألني فاسيلي نيكولايفيتش:

- هل تؤمن بالله يا سَسيدوف؟

أجبت:

- لا، وأنت يا فاسيلي نيكولايفيتش؟

- أنا إنسان مؤمن جدًّا. سعيدٌ ذلك الإنسان الذي يستطيع المحافظة على إيمانه حتى النهاية.

عمومًا، كانت «سعيد» و«شقي» أكثر كلمتين يستعملهما. كان ينتمي إلى عِداد أولئك الأشخاص الروس غير المساومين، الذين يرون معنى الحياة في البحث عن الحقيقة، حتى لو كانوا مقتنعين بأن الحقيقة، بالمعنى الذي يفهمونها به، لا وجود لها ولا يمكن لها أن توجد. كان تعليم اللغة الروسية مرتبطًا لديه دائمًا بملاحظات عن أشياء أخرى غالبًا لا علاقة مباشرة لها

بالمادة التي يعلّمها، وبمناقشات عن الأوضاع الراهنة والدين والتاريخ، وكان يُظهِر في ذلك كله معارف مدهشة. كان يتبين فجأة أنه سافر إلى الخارج، وعاش طويلًا في سويسرا وإنجلترا وفرنسا، ويتقن لغات أجنبية، وكان يتعامل مع كل ما شاهده بانتباه: فقد بحث عن الحقيقة طوال الوقت، أينما كان. كثيرًا ما فكرتُ لاحقًا: تُرى هل سيجدها؟ هل لديه ما يكفي من الشجاعة ليخدع نفسه؟ وهل سيموت ميتة هادئة؟ وشعرت بأنه، حتى لو خُيل إليه أنه قد وجدها، ربما سوف يُسرع إلى التبرؤ منها، ويبدأ البحث من جديد، ولعل «حقيقته» لن تتضمن المعنى الساذج المتعلق بإمكانية امتلاكنا ما لم نمتلكه يومًا قَطُّ؛ بل حتى إنها، ربما، لن تتلخص في الحلم بالهدوء والسكينة، لأن البطالة العقلية، التي كان ذلك الحلم سيحكم عليه بها، كانت بالنسبة إليه عارًا وعذابًا. كان فاسيلي نيكولايفيتش واحدًا من أولئك المعلمين الذين أحببتهم طوال فترة وجودي في المؤسسات التعليمية. الآخرون جميعهم كانوا أشخاصًا ضيقي الأفق، ولا يهتمون إلا بمستقبلهم المهني وينظرون إلى التعليم بصفته وظيفة. الأسوأ بين الجميع كان القساوسة، فقد كانوا أكثر المربِّين بلادة وجهلًا. معلمي الأول في مادة أصول الدين فقط، وكان أكاديميًّا وفيلسوفًا، بدا لي إنسانًا رائعًا تقريبًا، مع أنه كان متعصبًا. لم يكن شخصًا متحذلقًا: في الصف الخامس الثانوي، استفسرت منه طويلًا عن المعنى الإلحادي في شخصية «المفتش العظيم» وفي كتاب إرنست رينان «حياة يسوع». كنت أقرأ آنذاك «الإخوة كَرَمازوف» ومؤلفات رينان، بينما لم أكن أدرس المقرر الدراسي ولا أعرف كتاب تعليم أصول الدين ولا تاريخ الكنيسة، وهو لم يستدعِني للإجابة طوال السنة الدراسية، غير أنه، في الربع الثاني من السنة، أشار إليَّ ذات مرة أن أقترب بحركة من إصبعه وقال بصوت هادئ:

- هل تعتقد يا كوليا (كان يكلم الجميع بصيغة المفرد وبالأسماء الأولى لأنه كان يعلِّمنا منذ الصف الأول) أني لا أمتلك أي تصور عن معارفك في أصول الدين؟ أنا أعرف كل شيء يا عزيزي. لكني، مع ذلك، سأضع لك خمسة(25) لأنك تهتم بالدين على الأقل. انصرف.

عندما يلقي مواعظه كانت الدموع تترقرق في عينيه؛ يبدو أنه، بالمناسبة، لم يكن يؤمن بالله. كان يُذكِّرني بصورة مصغرة للمفتش العظيم: لا يُقهر في المسائل الجدلية، وبشكل عام، لو أنه كان كاثوليكيًّا لكان أفضل من كونه أرثوذكسيًّا. وكان له صوت رائع، قوي وذكي؛ فقد لاحظت أكثر من مرة أن صوت الإنسان، مثله مثل وجهه، يمكن أن يكون ذكيًّا أو غبيًّا، موهوبًا أو عديم الموهبة، نبيلًا أو خسيسًا. قُتل هذا المعلِّم قبل بضع سنوات، في أثناء الحرب الأهلية، في مكان ما في الجنوب، وأحزنني خبر مقتله أكثر لأني لم أحب القساوسة بشكل عام، لذا فقد عاملتُ هذا الإنسان، الذي لم يعد على قيد الحياة، معاملة سيئة.

لم أعرف، حقًّا، لماذا كنت أنفر من الأشخاص ذوي الألقاب الروحية، ربما بسبب اقتناع ما بأنهم - هم ورجال الشرطة - يقفون على درجة اجتماعية أدنى من درجات البقية جميعًا. أذكر القامة الفارعة لشرطي الناحية الذي كان يجيء إلى منزلنا كلَّ شهر للحصول على رشوة - الله

أعلم من أجل ماذا - وينتظر في الرواق، نافد الصبر، ريثما تُحضر له الخادمة المال، وبعد ذلك يسعل بفتوة ويغادر، وهو يصلصل بمهمازيه الضخمين على جزمته الملمَّعة بالشمع، بساقيها القصيرتين جدًّا التي لم ينتعل مثلها غير أفراد شرطة الناحية، وكذلك المرتِّلون في الجوقات الكنسية، لسبب ما. أما رشوات القساوسة فصادف أن واجهتها ذات يوم، عندما كنت في الصف الثالث، فقد مرضت قبل حلول عيد الفصح بأسبوعين ولم أشارك في الصوم في كنيسة المدرسة، وقال لي الأب يوحنا إنَّ عليَّ حتمًا أن أحضر إلى المدرسة في الخريف شهادة بالصيام وإلا لن يرفِّعوني وسيجبرونني على إعادة السنة الدراسية. أمضيت ذلك الصيف، كما دائمًا تقريبًا، في مدينة كيسلَفودسك. قال لي عمي فيتالي، وهو شخص رومانسي ومن أتباع مذهب الشك، بقي إلى الأبد نقيبًا في سلاح الفرسان لأنه دعا قائد الفوج إلى المبارزة، وردًّا على رفض الأخير القتال صفعه عمي على وجهه في مجلس الضباط، وحُبس بعد ذلك خمس سنوات في قلعة، وخرج منها شخصًا مختلفًا جدًّا، حيث اكتسب سعة اطلاع مذهلة وغير اعتيادية مطلقًا بالنسبة إلى ضابط، في مسائل الفن والفلسفة والعلوم الاجتماعية، ثم واصل الخدمة في ذلك الفوج نفسه، لكنه لم يترقَّ في الرتبة:

- خذ، يا كوليا، عشرة روبلات واذهب إلى ذلك الأحمق ذي العُرف الطويل. اطلب منه شهادة بالصيام. لا داعي إلى ذهابك إلى الكنيسة، فهم يتكاسلون. أعطِه المال وحسب وخذ منه الشهادة.

كان العم فيتالي يشتُم الجميع ولم يكن راضيًا عن أحد، مع أنه في المعاملة الشخصية وفي التعامل مع الناس كان طيبًا ومتسامحًا بشكل عام، وعندما كانت العمة تريد معاقبة ابنها ذي الثماني السنوات، كان يضعه تحت حمايته ويقول: «دعيه وشأنه، فهو لا يدرك ما يفعله. لا تنسي أن هذا الطفل شديد الغباء، وإن جلَدتِه فلن يصبح أذكى مما هو عليه. فضلًا عن أن ضرب الأطفال، عمومًا، لا يجوز، وهذا يعرفه الجميع عدا النساء الجاهلات مثلك». كان عمي يبدأ كل عبارة يتفوه بها تقريبًا بكلمتَي: «هؤلاء الحمقى...».

قلت:

- لن يعطيني القس شهادة بهذه البساطة، إذ يجب أن أصوم أولًا.

- هذه كلها حماقات. ادفع له عشرة روبلات وحسب. افعل ما أقول لك.

ذهبت إلى القس. كان يعيش في شقة صغيرة تحتوي على كرسيَّين بلون أصفر فاقع وصور أساقفة ومطارنة على الجدران. ردًّا على سؤالي عن الشهادة قال:

- يا بنيَّ (كانت هذه الطريقة في المخاطبة تنفِّرني) تعالَ إلى الكنيسة، واعترف أولًا، ثم تناول القربان، وبعد ذلك يمكن إعطاؤك شهادة بعد أسبوع.

- ألا يمكن الآن؟

- لا.

- لكني أريد الشهادة الآن يا أبتِ.

- الآن ممنوع.

أخرجت، عندئذٍ، عشرة روبلات ووضعتها على الطاولة من دون أن أنظر إلى القس، لأني شعرت بالخجل. أخذ القس المال، ووضعه في جيبه، حيث أزاح طرف ثوبه، وكان تحته سروال ضيِّق أسود له شريطان، ونادى:

- أيها الأب الشماس!

خرج الشماس من الغرفة المجاورة وهو يلوك شيئًا ما؛ كان وجهه مغطى بالعرق بسبب الحرِّ الشديد، ولأنه كان بدينًا جدًّا فقد كان العرق يسيل منه حرفيًّا؛ وكانت قطرات متلألئة معلقة على حاجبيه.

- أعطِ هذا الشاب شهادة بالصوم.

أومأ الشماس برأسه وكتب لي الشهادة في الحال، بخط مربع جميل جدًّا.

دمدم عمي:

- ماذا قلت لك؟ إنني، يا أخ، أعرفهم...

علَّقت عمتي قائلة:

- لو أنك لا تقول للولد أمورًا كهذه!

أجاب عمي:

- هذا الولد، مثله مثل أي ولد آخر، يفهم كل شيء، ليس أقل منك. إني، أيتها الأم، أعرف هذا جيدًا. وإذا بدأتِ بتعليمي، فلن يعود أمامي سوى أن أشنق نفسي.

كان فيتالي، في المساءات، يجلس في شرفة المنزل وهو غارق في التفكير. سألته ذات مرة:

- لماذا تجلس في الشرفة طويلًا هكذا؟

أجاب فيتالي:

- إني أستغرق في التفكير.

قال هذه العبارة بنبرة توحي بأنه يستغرق فعليًّا في التفكير، كما في الماء أو في مغطس الحمَّام. كان يتحدث إليَّ من حين إلى حين:

- في أي صف أنت؟

- في الرابع.

- وماذا تدرس الآن؟

- مواد متنوعة.

- إنهم يعلِّمونك حماقات. ماذا تعرف عن الإمبراطور بطرس العظيم وعن الإمبراطورة يكاترينا؟ هيا أخبرني.

أخبرته. بعد أن أنهيت كلامي توقعت أن يقول «هؤلاء الحمقى...»، وقد قال ذلك بالفعل:

- هؤلاء الحمقى لا يعلِّمون الحقيقة.

- لماذا لا يعلمون الحقيقة؟

قال فيتالي واثقًا:

- لأنهم حمقى. إنهم يعتقدونه أمرًا حسنًا أن يكون لديك تصور كاذب عن التاريخ الروسي، على أنه مداولة للحكم بين ملوك فاضلين وأذكياء. في واقع الحال أنت تدرس أسطورة مبهرجة يستبدلونها بالحقيقة التاريخية. وفي النتيجة تجد أنك الأحمق(26). بالمناسبة، سوف تجد دائمًا أنك الأحمق، حتى لو عرفت التاريخ الفعلي.

- هل لا بد من أن أجد نفسي الأحمق؟

- لا بد من ذلك. الجميع يجدون أنفسهم كذلك.

- وماذا عنك، مثلًا؟

أجاب فيتالي في منتهى الهدوء:

- إنك تقول كلامًا وقحًا. لا يجوز طرح أسئلة كهذه على الأكبر سنًّا. لكن إذا أردتَ أن تعرف، فأنا أيضًا أجد أني واحد من الحمقى، مع أنني كنت أفضِّل لو كان وضعي مختلفًا.

- وما العمل؟

- أن يكون المرء وغدًا.

قال ذلك بحدة وأدار لي ظهره.

لم يكن سعيدًا في زواجه، وكان يعيش منفصلًا تقريبًا عن أسرته، ويعلم جيدًا أن زوجته، وهي سيدة موسكوفية جميلة جدًّا، لم تكن مخلصة له؛ فقد كان أكبر منها سنًّا بكثير. كنت أسافر إلى كيسلَفودسك وأجد فيتالي هناك دائمًا، إلى أن أبعدتني عن القوقاز تحركات مختلف القوات، البلشفية والمناهضة للبلاشفة، التي وصلت إلى نهر الدون ومنطقة كوبان. وقبل سنة واحدة فقط من مغادرتي روسيا، في أثناء الحرب الأهلية، سافرت مرة أخرى إلى هناك، ورأيت في شرفة عزبتنا قامة فيتالي المنحنية في المقعد. لقد هَرِمَ خلال هذه المدة، وشاب شعره، وأصبح وجهه أكثر تجهمًا من ذي قبل. قلت له بعد أن سلمت عليه:

- لقد صادفتُ ألكسندرا بافلوفنا (كانت هذه زوجته) في الحديقة. لها مظهر رائع.

نظر فيتالي إليَّ عابس الوجه:

- هل تذكر قصائد بوشكين الساخرة القصيرة؟

- أذكرها.

فقال مقتبسًا:

لا مثيل لكِ في العالم.

الدنيا كلها تؤكِّد ذلك، وأنا أيضًا.

الآخرون يكبرون في السن بمرور السنين،

أما أنت فتزدادين شبابًا.

- لديك سحنة منزعجة جدًّا يا فيتالي.

- ما العمل؟ إني متشائم عتيق يا عزيزي. يقولون إنك تريد الالتحاق بالجيش؟

- نعم.

- هذا عمل غبي.

- لماذا؟

اعتقدت أنه سيقول «هؤلاء الحمقى...» لكنه لم يقل ذلك، بل طأطأ برأسه وحسب وقال:

- لأن المتطوعين سوف يخسرون الحرب.

لم تكن تعنيني كثيرًا فكرة أن المتطوعين سيخسرون الحرب أو سيربحونها. أردت أن أعرف ما هي الحرب؛ دائمًا ذلك التوق نفسه إلى الجديد والمجهول. التحقت بالجيش الأبيض لأني كنت في أراضيه، لأن هذا كان العُرف، ولو كانت قوات الجيش الأحمر تحتل كيسلَفودسك آنذاك، لربما التحقت بالجيش الأحمر. لكن ما أدهشني هو أن يتعامل فيتالي، الضابط القديم، مع الأمر بهذا الاستهجان. لم أفهم تمامًا آنذاك أن فيتالي كان، فيما يتعلق بهذه المسألة، ذكيًّا جدًّا، وأنه لم يعطِ رتبته - بصفته ضابطًا - تلك القيمة التي تُعطى لها عادة. لكني، مع ذلك، سألته عن سبب تفكيره على هذا النحو. نظر إليَّ نظرة حيادية وقال إن أولئك الذين يشرفون على قيادة القوات المعادية للحكومة لا يعرفون قوانين العلاقات الاجتماعية. قال منتعشًا:

- هناك، هناك روسيا الشمالية الجائعة كلها. هناك، يا صاحبي، يعيش الفلاح القروي. أتعلم أن روسيا بلد الفلاحين، أم أنهم لم يعلِّموك هذا في التاريخ الذي درسته؟

أجبت:

- أعلم.

عند ذاك تابع فيتالي قائلًا:

- روسيا تدخل حقبة المرحلة الفلاحية من التاريخ؛ تكمن القوة في الفلاح، والفلاح يخدم في الجيش الأحمر.

لم يكن لدى البيض، وفق ملاحظة فيتالي المزدرية، حتى تلك الرومانسية الحربية التي يمكنها أن تبدو جذابة. قال فيتالي بحدة:

- الجيش الأبيض هو جيش البرجوازيين الصغار وأنصاف المثقفين. يخدم فيه مدمنو الكوكايين، والمجانين، والضباط من سلاح الفرسان المتدللون كالمحظيات، والوصوليون الفاشلون وعرفاء في رتب الجنرالات.

علقت قائلًا:

- إنك تشتُم كل شيء دائمًا. تقول ألكسندرا بافلوفنا إن هذا ديدنك.

قال فيتالي باحتداد غير متوقَّع:

- ألكسندرا بافلوفنا، ألكسندرا بافلوفنا. ديدني! يا للسخف! إنني أسمع هذا الاعتراض السخيف منذ خمس وعشرين سنة، من جميع الجهات وكل يوم تقريبًا: «إنك تشتُم كل شيء». تُرى هل أفكر في شيء أم لا؟ أنا أبسُط لك أسباب نتيجة الحرب الحتمية هذه، وأنت تجيبني: «إنك تشتم دائمًا». ما أنت: رَجل أم العمة جينيا؟ لقد عاتبتُ ألكسندرا بافلوفنا على أنها تقرأ طوال الوقت مؤلفات لابو ـناجرودسكايا(27)، وهي أيضًا قالت إني أشتُم كل شيء كالعادة. لا، ليس كل شيء. فأنا - الحمد لله - أعرف الأدب أفضل مما تعرفه زوجتي، وأحبه أكثر مما تحبه. إن كنت أشتُم شيئًا فهذا يعني أنَّ لديَّ أسبابًا لذلك.

ثم رفع فيتالي رأسه وقال:

- افهم أن كل ما يُصنَع في أي مجال، سواء أكان ذلك إجراء إصلاحات أم إعادة تنظيم الجيش أم محاولة إدخال أساليب جديدة إلى التعليم أو التصوير أو الأدب، تسعة أعشاره لا ينفع لشيء. هكذا هو الأمر دائمًا؛ فما ذنبي أنا إذا كانت العمة جينيا لا تفهم هذا؟

صمت قرابة دقيقة ثم سألني بنبرة متقطعة:

- كم عمرك؟

- بعد شهرين يصبح ست عشرة سنة.

- والشيطان يدفعك إلى الذهاب إلى القتال؟

- نعم.

قال فيتالي في دهشة فجأة:

- ولماذا، بالتحديد، تذهب إلى الحرب؟

لم أعرف بِمَ أجيبه، ارتبكت، وقلت بغير ثقة أخيرًا:

- أعتقد أن هذا واجبي في كل حال.

قال فيتالي بخيبة أمل:

- اعتقدتك أذكى من ذلك. لو كان أبوك حيًّا لما سرَّته كلماتك.

- لماذا؟

قال فيتالي برقة غير متوقعة:

- اسمع يا ولدي العزيز، وحاول أن تفهم. يتقاتل طرفان: الحمر والبيض. البيض يحاولون إعادة روسيا إلى الوضع التاريخي الذي خرجت منه توًّا. الحمر يوقعونها في ذلك النوع من الفوضى الذي لم تعشه منذ عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش.

تمتمتُ:

- في أواخر زمن الفتنة.

- نعم، في أواخر زمن الفتنة. ها قد نفعتك المدرسة الثانوية.

وأخذ فيتالي يَبسُط لي نظرته إلى الأحداث التي جرت آنذاك. قال إن هذه «الطبقات الاجتماعية» - بدت لي هذه الكلمات غير متوقعة، فأنا لم أستطع أن أنسى قَطُّ أن فيتالي ضابط في فيلق الخيالة - تشبه الظواهر الطبيعية التي تخضع لقوانين بيولوجيا غير مادية ما، وإن وضعًا كهذا، حتى لو لم يكن بريئًا دائمًا، يترافق دائمًا مع مختلف الظواهر الاجتماعية.

قال فيتالي:

- إن هذه الطبقات الاجتماعية تولد، وتنمو، وتموت، بل إنها لا تموت حتى وإنما تضمحل كما يضمحل المرجان. هل تذكر كيف تتشكل الجزر المرجانية؟

قلت:

- أذكر، أذكر كيف تنشأ، فضلًا عن أني أتذكر الآن طياتها الحمراء المحاطة بزبد البحر الأبيض. هذا جميل جدًّا؛ لقد رأيت رسمًا يصور ذلك في واحدٍ من كتب أبي.

تابع فيتالي:

- إن عملية من هذا النوع تحدث في التاريخ أيضًا. يضمحل شيء، ويولد شيء آخر. هكذا، باختصار، البيض يمثِّلون شيئًا من قبيل الكائنات المرجانية التي تنمو على جثثها تكوينات جديدة. الحمر هم تلك التكوينات التي تنمو.

قلت:

- حسنٌ، لنفترض أن الأمر على هذا النحو، لكن ألا تعتقد أن الحق إلى جانب البيض؟

اتَّخذت عينا فيتالي من جديد تعبيرهما الساخر المعتاد:

- الحق؟ أي حق؟ هل بمعنى أنهم محقون في الاستيلاء على السلطة؟

قلت:

- حتى لو كان الأمر كذلك...

مع أني كنت أعتقد شيئًا مختلفًا تمامًا.

- نعم، طبعًا. لكنَّ الحمر أيضًا محقون، والخضر أيضًا، ولو كان هناك برتقاليون وبنفسجيون لكانوا محقين بالدرجة نفسها.

- وعدا ذلك، لقد أصبح خط الجبهة قرب مدينة أورل، وقوات كولتشاك باتت على مشارف نهر الفولجا.

- هذا لا يعني شيئًا. إذا بقيتَ على قيد الحياة بعد أن تنتهي هذه المذبحة كلها، فسوف تقرأ في بعض الكتب المتخصصة سردًا مفصلًا لهزيمة البيض البطولية ولانتصار الحمر العَرَضي الشائن، إذا كان مؤلف الكتاب متعاطفًا مع البيض، وعن الانتصار البطولي لجيش الكادحين على مرتزقة البرجوازية، إذا كان المؤلف مؤيدًا للحمر.

أجبت أنني مع ذلك سأذهب للقتال إلى جانب البيض لأنهم معرَّضون للهزيمة.

قال فيتالي في أناة:

- هذه عاطفية طلاب المدرسة الثانوية. حسنٌ، سأخبرك ما أعتقده، ليس ما يمكن استنتاجه من تحليل القوى التي توجِّه الأحداث الراهنة، وإنما قناعتي الخاصة. لا تنسَ أني ضابط ومحافظ بالمعنى المتعارف عليه وأني، إلى جانب ذلك كله، شخص ذو تصورات إقطاعية عن الشرف والحق.

- ما الذي تعتقده إذن؟

تنهد وقال:

- الحق إلى جانب الحمر.

في المساء، اقترح عليَّ مرافقته إلى الحديقة العامة. أخذنا نتمشى في الدروب الحمراء، بمحاذاة ساقية صغيرة ماؤها صافٍ على امتداد مغارات صغيرة جدًّا، تحت أشجار معمِّرة سامقة. حلَّت العتمة، وكانت الساقية تنشج وتخرخر، وهذا الصخب الخافت يمتزج الآن، بالنسبة إليَّ، مع ذكرياتي عن المشي المتمهِّل على الرمل، وعن أضواء مطعم كانت مرئية من بعيد، وعن ذكرى أنني عندما طأطأت رأسي رأيت بنطالي الصيفي الأبيض وجزمة فيتالي. كان فيتالي كثير الكلام، أكثر من المعتاد، ولم أسمع في صوته فكاهته المعتادة. كان يتكلم بجدية وبساطة. عندما توغلنا في الحديقة، قال:

- هذا يعني أنك سترحل يا نيكولاي.

ثم قاطع نفسه فجأة:

- أتسمع كيف يصخب الجدول؟

أخذت أصغي: عبر الصخب الرتيب الذي كان يتناهى إلينا في البداية، ميز سمعي بضع

خرخرات مختلفة، متزامنة لكن غير متشابهة.

قال فيتالي:

- شيء غير مفهوم. لماذا يبعث هذا الصخب الاضطراب في نفسي؟ ودائمًا، منذ سنوات كثيرة، ما إن أسمعه حتى أشعر بأني لم أسمعه من قبل. لكني أردت قول شيء آخر.

- إنني أصغي.

قال فيتالي:

- لعلنا لن نلتقي، أنا وأنت، مرة أخرى. إما أن يقتلوك، وإما أن ترحل بعيدًا جدًّا، وإما، أخيرًا، ألَّا أتمكَّن من انتظار عودتك وأموت ميتة طبيعية. هذه الاحتمالات جميعها ممكنة بالدرجة نفسها.

سألته:

- لماذا هذه الكآبة؟

لم أكن قادرًا قَطُّ على تصور أحداث بعيدة جدًّا في المستقبل، وكنت بالكاد أتمكن من تذكُّر ما يحدث لي في اللحظة الراهنة، ولذلك كانت جميع الافتراضات عما قد يحدث في زمن ما تبدو لي مستحيلة. أخبرني فيتالي أنه، هو أيضًا، كان كذلك في شبابه؛ لكن خمس سنوات من السجن الانفرادي، كان خلالها يغذي مخيلته بالأفكار المتعلقة بالمستقبل فقط، طورت تلك المخيلة إلى حدود غير اعتيادية. فحين يناقش فيتالي أي حدث يجب أن يحدث قريبًا، حسب رأيه، كان يرى فورًا جوانبه المتعددة، وكانت مخيلته المرهفة كأنما تشعر سابقًا بتلك القشرة النفسية غير المدرَكة وبغلاف الأحداث الخارجية التي يمكن أن تحدث فيها. إضافة إلى ذلك، كانت معرفته بالناس وبالأسباب التي تدفعهم إلى التصرف على هذا النحو أو ذاك أغنى من خبرة الحياة الاعتيادية المعاشة بما لا يقاس، تلك الخبرة الطبيعية بالنسبة إلى شخص في سنِّه؛ وكان ذلك يمنحه تلك القدرة، غير القابلة للإدراك تقريبًا من النظرة الأولى، على التخمين، وهي قدرة لم ألحظها إلا عند قلة نادرة من معارفي الذين كانوا جميعهم، لسبب ما، معارف عَرَضيين. غير أن فيتالي لم يستخدم تلك القدرة تقريبًا، لأنه كان يُظهر عدم اكتراث مُزدريًا حتى تجاه مصير أقاربه المقربين، ولعل سبب طيبته وتساهله، كما بدا لي، هو تعامله المتماثل وغير المتمايز هذا، الدائم تقريبًا، مع الجميع.

قال فيتالي من دون أن يجيب عن سؤالي:

- لقد أحببت والدك كثيرًا، مع أنه كان يضحك دائمًا من أني ضابط وفارس. لكنه كان محقًّا على الأرجح.

ثم أردف:

- وأحبك أنت أيضًا، وأريد أن أقول لك شيئًا واحدًا قبل رحيلك، فانتبِه لِما أقول.

لم أكن أعرف ماذا يريد فيتالي أن يقول لي، ففي علاقتي به لم تدخل فكرة أنه قد يهتم لأمري وينصحني بأي شيء، فقد كان يفضِّل دائمًا أن يوبِّخني بسبب عدم فهمي لأمر ما أو بسبب

حبي للتحدث في الموضوعات التجريدية التي لا أفهم فيها شيئًا، حسب قوله، وقد ضحك ذات يوم حتى كادت الدموع تطفر من عينيه عندما قلت له إني قرأت أعمال ماكس شتيرنر وبيوتر كروبوتكين، وفي مرة أخرى هز رأسه بأسفٍ حين علم بشغفي بأدب فيكتور هوجو؛ فقد كان يشعر بـ«الازدراء»، حسب تعبيره، تجاه هذا الإنسان الذي يتمتع بسلوكيات رجل إطفاء، وبروح امرأة حمقاء رقيقة المشاعر، وبحذلقة عامل تلجراف روسي.

قال فيتالي في غضون ذلك:

- اسمعني. سوف ترى كثيرًا من الأمور الشنيعة في المستقبل القريب. سوف ترى كيف يقتلون الناس، وكيف يشنقونهم، وكيف يطلقون النار عليهم. هذا كله ليس بجديد، وليس مهمًّا، وليس حتى ممتعًا جدًّا. لكن إليك نصيحتي: لا تصبح أبدًا شخصًا عقائديًّا، لا تستخلص استنتاجات، لا تحاكم الأمور وحاول أن تكون إنسانًا بسيطًا قدر الإمكان، وتذكَّر أن السعادة الكبرى في الأرض هي أن تعتقد أنك تفهم أي شيء من الحياة المحيطة بك. إنك لن تفهم، بل سوف تظن وحسب أنك تفهم، وحين تتذكر ذلك بعد مرور بعض الوقت ستكتشف أنك فهمت الأمور بصورة غير صحيحة. ومرة أخرى بعد عام أو عامين سوف تكتشف أنك كنت مخطئًا في المرة الثانية أيضًا، وهكذا بلا نهاية. ومع ذلك هذا هو الأمر الرئيسي والأكثر متعة في الحياة.

قلت:

- حسنٌ، لكن ما المغزى في هذه الأخطاء الدائمة؟

قال فيتالي مندهشًا:

- المغزى؟ ليس هناك أي مغزى في الواقع، وليس له أي لزوم.

- هذا غير ممكن. هناك قانون العلة النهائية.

- لا يا عزيزي، المغزى وهم، والعلة النهائية وهم. انظر: إذا أخذت مجموعة معينة من الظواهر ورحت تحللها، فسوف ترى أن قوى ما توجِّه حركاتها، لكن مفهوم المغزى لن يكمن في هذه القوى، ولا في هذه التحركات. خذ أي واقعة تاريخية حدثت نتيجة سياسة وتحضيرات طويلة الأمد ولها هدف محدَّد تمامًا. سوف ترى من منظور بلوغ هذا الهدف وتحقق هذه الحقيقة فقط، أن هذه الواقعة ليس لها أي معنى، لأن بالتزامن معها وللأسباب نفسها، فيما يبدو، وقعت أحداث أخرى، لم تكن متوقعة على الإطلاق، وغيرت كلَّ شيء تمامًا.

نظر فيتالي إليَّ؛ كنا نمشي بين صفين من الأشجار، وكان الظلام شديدًا بحيث إني لم أكن أرى وجهه.

تابع فيتالي:

- إن كلمة «مغزى» ما كان لها أن تكون وهمًا فقط في حال كنا نمتلك معرفة دقيقة بأننا إذا تصرفنا على نحو معيَّن فسوف تتبع ذلك نتائج محددة حتمًا، لا نتائج مغايرة. إن كان هذا لا يبدو صحيحًا دائمًا حتى في العلوم الميكانيكية الأساسية، عند تأدية وظائف محددة تمامًا وفق شروط محددة بالقدر نفسه، فكيف تريد أن يكون ذلك صحيحًا في مجال العلاقات الاجتماعية ذات الطبيعة المبهمة بالنسبة إلينا، أو في مجال علم نفس الأفراد الذي نجهل قوانينه تقريبًا؟ لا وجود للمغزى، عزيزي كوليا.

- ومعنى الحياة؟

توقف فيتالي فجأة، كأنما أوقفه أحدهم. كان الظلام حالكًا، والسماء لا تكاد تُرى خلال أوراق الأشجار. بقيت الأمكنة النابضة بالحياة والمدينة بعيدة في الأسفل؛ كان يلُوح إلى اليسار جبل رومانوفسكي بلونه الأزرق، تغطيه أشجار الشوح. بدا لي الجبل أزرق اللون، مع أنه الآن، في الظلام، كان يجب أن يبدو للناظر أسود، لكني اعتدتُ مشاهدته في النهار، عندما يتراءى أزرق اللون بالفعل؛ وفي ذلك المساء استخدمت بصري فقط كي أتذكر بصورة أفضل الرسم المحيطي للجبل، وكانت زرقته جاهزة في مخيلتي، رغم أنف قوانين الضوء والمسافة. كان الهواء نظيفًا ومنعشًا وجديدًا؛ ومرة أخرى، كما الحال دائمًا، تناهى إليَّ في الصمت بوضوح

أكثر رنين بعيد وممدود، يتخامد في الأعلى.

كرر فيتالي بحزن:

- معنى الحياة؟

وسمعت دموعًا في صوته، ولم أصدق نفسي، فقد اعتقدت دائمًا أن الدموع مجهولة لهذا الإنسان الرجولي واللامبالي. قال فيتالي:

- كان لي رفيق، هو أيضًا يسألني عن معنى الحياة قبل أن يطلق النار على نفسه. لقد كان رفيقًا مقرَّبًا جدًّا إليَّ، رفيقًا جيدًا جدًّا.

قال فيتالي ذلك، مكرِّرًا كلمة «رفيق» مرارًا كما لو أنه يجد عزاء وهميًّا في أن هذه الكلمة الآن، بعد مرور سنوات كثيرة، لها الوقع السابق نفسه، وتردد صداها في هواء الحديقة الخالية الساكن.

- كان طالبًا أكاديميًّا آنذاك، وأنا كنت طالبًا في كلية حربية. كان يسأل دومًا: «ما لزوم الانعدام المرعب لمعنى الوجود هذا، هذا الإدراك بأني إذا متُّ عجوزًا وأني، في أثناء احتضاري، كنت مقرفًا للجميع، فإن هذا جيد... ما جدوى ذلك؟ لماذا قد يعيش المرء ليبلغ هذا المبلغ؟ إذ لا مفر لنا من الموت، هل تفهم يا فيتالي؟ ما من خلاص».

صاح فيتالي:

- لا خلاص!

ثم قال:

- ويتابع رفيقي قائلًا: «من أجل ماذا يصبح المرء مهندسًا أو محاميًا أو كاتبًا أو ضابطًا؟ لماذا هذه الإذلالات، هذا العار، هذه الدناءة وهذا الجبن؟» كنت أقول له آنذاك إن الإنسان يستطيع العيش خارج هذه الأسئلة: «عِشْ؛ كُلْ شرائح اللحم؛ قبِّل العشيقات؛ احزن بسبب خيانات النساء وكن سعيدًا، وليحفظك الله من التفكير في سبب فعلك ذلك كله». لكنه لم يصدقني، وأطلق النار على نفسه. وها أنت الآن تسألني عن معنى الحياة. لا يمكنني أن أجيبك بشيء. لا أعرف.

عدنا إلى البيت ذلك اليوم في وقت متأخر جدًّا، وعندما قدَّمت إلينا الخادمة الناعسة الشاي في الشرفة نظر فيتالي إلى قدح الشاي، ورفعه، وراح ينظر من خلال السائل إلى المصباح الكهربائي، وضحك طويلًا، من دون أن ينبس بكلمة. تمتم بعد ذلك ساخرًا:

- معنى الحياة!

وعبس فجأة وأصبح وجهه كالحًا، ثم ذهب لينام من دون أن يتمنى لي ليلة هانئة.

عندما غادرت كيسلَفودسك، بعد فترة وجيزة، بهدف الوصول إلى أوكرانيا للالتحاق بالجيش، ودَّعني فيتالي بهدوء وبرود، وكان في عينيه مرة أخرى التعبير اللامبالي الدائم، الجاهز للتحول فورًا إلى تعبير ساخر. أما أنا فقد شعرت بالأسف للرحيل عنه، لأني أحببته حبًّا صادقًا، بينما المحيطون به كانوا يخشونه ولم يعاملوه معاملة لطيفة. كانت زوجته تقول عنه: «قلبه من حجر»، وعمتي تقول عنه: «إنسان ظالم»، وترد زوجة أخيها على ذلك: «ما من شيء مقدَّس بالنسبة إليه». لا واحدة منهن عرفت فيتالي الحقيقي. لاحقًا، حين كنت أفكر في نهايته المحزنة وحياته غير الموفقة، كنت أشعر بالأسف على فقدان إنسان بقدرات هائلة، وبعقل حي وسريع الاستيعاب، من دون غاية على هذا النحو، ولم يشعر بمجرد الأسف عليه

أي أحد من الأقارب. عندما فارقتُ فيتالي كنت أعلم أننا لن نلتقي مرة أخرى على الأرجح، وأردت أن أعانقه وأودِّعه كشخص عزيز عليَّ، لا مجرد قريب حضر إلى محطة القطار. لكن فيتالي ظل رسميًّا جدًّا، وعندما أخذ ينفض الزغابة عن كمِّه ناقفًا إياها بأصابعه، فهمت من هذه الحركة وحدها أن توديعه بالطريقة التي أردتها في البداية سيكون سخيفًا ومضحكًا. صافحني، ورحلتُ. كان أواخر فصل الخريف، وفي الهواء البارد شعرت بالحزن والأسى اللذين يَسِمان كل رحلة سفر. لم أستطع التعود على هذا الشعور قَطُّ؛ كل رحيل كان بالنسبة إليَّ بداية حياة جديدة. حياة جديدة، وبالتالي ضرورة أن أعيش في تخبُّط مرة أخرى، وأن أبحث وسط الناس والأشياء المحيطة بي عن محيط قريب إليَّ بدرجة تزيد أو تنقص، حيث يمكنني حيازة سَكينتي السابقة، اللازمة لإعطاء فسحة لتلك التأرجحات والهزات الداخلية، الوحيدة التي تشغلني. ثم إني كنت أشعر بالأسف أيضًا لمغادرة المدن التي عشت فيها، ولمفارقة الأشخاص الذين التقيتهم، لأن هذه المدن لن تتكرر، وهؤلاء الأشخاص لن يتكرروا، في حياتي. كانت واقعية هذه المدن وهؤلاء الأشخاص، أي الثبات البسيط للصور المشكَّلة وتحديدها مرة وإلى الأبد، شديدة الاختلاف عن البلدان والمدن الأخرى وعن الأشخاص الآخرين الذين يعيشون في مخيلتي، والذين أجعلهم ينبضون بالحياة والحركة. كانت لي على بعضهم سلطة التدمير والبناء، بينما الآخرون، كانت ذاكرتي، معرفتي العاجزة، تتصاعد فوقهم متضفرة في أعمدة من دخان؛ ولم تكن كافية حتى للتخمين؛ الموهبة التي كان العم فيتالي يتمتع بها. ظللت أرى بعض الوقت قامته على رصيف محطة السكة الحديدية، بينما كيسلَفودسك تختفي والأصوات التي تتناهى من المحطة تتلاشى في صخب القطار الحديدي؛ وحينذاك وصلتُ تلك المدينة التي درست وعشت فيها شتاءً، حيث رأيت الثلج يهطل متلألئًا في ضوء المصابيح؛ وفي الشوارع كان الحوذية المتهورون يصرخون، وعربات الترام تهدر، ونوافذ المنازل المضاءة تعبرني، متجاوزةً الظهر العريض القطني للحوذي، الذي ينفض كوعَي يديه الممسكتين بالأعنة إلى أعلى بحركات غير منتظمة وعجولة تشبه حركة أيدي وأرجل دمى البهلوانات الخشبية. عشت آنذاك في تلك المدينة أسبوعًا قبل توجهي إلى الجبهة، وقد أمضيت الوقت في ارتياد المسارح والملاهي الليلية والمطاعم المزدحمة التي تعزف فيها فرق موسيقية رومانية. في اليوم السابق لرحيلي التقيت شورا، رفيقي في المدرسة الثانوية، وقد دُهش كثيرًا حين رآني في الزي العسكري. سألني:

- لعلك لا تنوي الالتحاق بالمتطوعين؟

وحين أجبته بأني سأفعل نظر إليَّ بمزيد من الاستغراب.

- ماذا تفعل، هل جننت؟ ابقَ هنا، فالمتطوعون يتقهقرون وخلال أسبوعين ستكون جماعتنا في المدينة.

- لا، فقد قررت الرحيل.

- يا لك من شخص غريب الأطوار! أنت نفسك سوف تندم على ذلك فيما بعد.

- مع ذلك سوف أرحل.

صافحني بقوة وقال:

- حسنٌ، أرجو ألَّا يخيب أملك.

- شكرًا، لا أعتقد ذلك.

- هل تصدِّق أن المتطوعين سينتصرون؟

- لا، لا أصدِّق ذلك أبدًا، ولذلك لن يخيب أملي.

ودعتُ أمي في المساء. كان رحيلي صدمة لها. رجتني أن أبقى، وكنت في حاجة إلى كل قسوة سنين عمري الست عشرة لأترك أمي وحدها وأذهب إلى الحرب، من دون اقتناع، من دون حماسة، وإنما فقط بدافع الرغبة في أن أرى وأفهم في الحرب أشياء جديدة قد تغيِّرني كليًّا. قالت أمي:

- لقد انتزع القدَر مني زوجي وابنتَي، ولم يبقَ لي غيرك، وها أنت أيضًا ترحل.

لم أجب بشيء. تابعت أمي:

- لو علم والدك أن ابنه نيكولاي التحق بجيش أولئك الذين لم يحبهم طوال حياته لاغتمَّ كثيرًا.

أجبت:

- قال لي العم فيتالي ذلك أيضًا. لا بأس يا أمي، سوف تنتهي الحرب قريبًا، وسأكون في البيت مرة أخرى.

- وماذا إن أحضروا لي جثتك؟

- لا، أعرف أني لن أُقتل.

كانت واقفة عند باب غرفة المدخل وتنظر إليَّ في صمت، وهي تفتح وتغمض عينيها ببطء، مثل شخص يستعيد وعيه بعد غيبوبة. حملت حقيبتي؛ علِق أحد مشابك الحقيبة بطرف معطفي، وحين لاحظت أمي أني لا أستطيع فكه ابتسمت فجأة، وكان ذلك غير متوقع، لأنها نادرًا ما تبتسم، حتى عندما يضحك الآخرون، وطبعًا ما كان لطرف المعطف العالق أن يُضحكها قَطُّ، وكم كانت هناك مشاعر مختلفة في تلك الابتسامة: الأسف، وإدراك استحالة أن يُلغى سفري، وفكرة الوحدة، وذكرى وفاة أبي وأختَي، والخجل من الدموع الطافرة من عينيها، وحبها لي، وكل تلك الحياة المديدة التي ربطت أمي بي منذ ولادتي حتى ذلك اليوم الذي حجبت فيه يكاترينا هنريخوفنا فورونينا، التي كانت حاضرة في لحظة وداعنا، وجهها بيديها وبكت. عندما أغلقتا الباب ورائي أخيرًا وفكرت أني، ربما، لن أدخل منه مرة أخرى، وأن أمي لن ترسم عليَّ علامة الصليب كما فعلت توًّا، أردت أن أرجع إلى البيت وألا أسافر إلى أي مكان. لكن ذلك كان قد تأخر كثيرًا، واللحظة التي كان في إمكاني فيها أن أفعل ذلك قد مضت؛ كنت في الشارع - خرجت إلى الشارع، وكل ما كان في حياتي حتى الآن أصبح

ورائي وواصل وجوده من دوني؛ لم يعد لي مكان، كأنما اختفيتُ عن نفسي. بعد مرور زمن طويل تذكرت أيضًا أن الثلج كان يهطل في ذلك المساء، غامرًا الشوارع. وبعد يومين من الترحال وصلتُ مدينة سينيلنيكوف، حيث كان يقف القطار المصفح «دخان»، الذي قُبلتُ فيه برتبة جندي في كتيبة من كتائب سلاح المدفعية. كان ذلك في نهاية العام ١٩١٩؛ اعتبارًا من ذلك الشتاء كففت عن أن أكون طالب المدرسة الثانوية سَسيدوف، الذي انتقل إلى الصف السابع، ولم أعد أقرأ الكتب، أو أتزلج على الثلج، أو أمارس الجمباز، أو أسافر إلى كيسلَفودسك، أو أرى كلير، وكل ما كنت أفعله حتى تلك اللحظة أصبح بالنسبة إليَّ تخيلات الذاكرة وحسب. غير أني أحضرت معي إلى هذه الحياة الجديدة عاداتي وغرابة أطواري القديمة، وكما أن الأحداث المهمة، في البيت أو في المدرسة الثانوية، كانت تتركني غير مبالٍ، والأمور التافهة، التي لا تستوجب إعطاءها أهمية، كانت بالنسبة إليَّ مهمة جدًّا، كذلك في أثناء الحرب الأهلية كانت المعارك تمر، والقتلى والجرحى، من دون أثر تقريبًا بالنسبة إليَّ، بينما احتفظت في ذاكرتي إلى الأبد ببعض الأحاسيس والأفكار البعيدة جدًّا غالبًا عن الأفكار المألوفة عن الحرب. تلخصت أفضل ذكرياتي، المتعلقة بذلك الزمن، في أنهم أرسلوني إلى مركز مراقبة يقع على قمة شجرة في الغابة، حيث تُركت بمفردي، بينما غادر القطار المصفح متراجعًا مسافة عدة فِرستات لإحضار الماء. كان شهر سبتمبر، والخضرة قد اصفرت. كانت بطاريات المدافع المعادية تقصف طرف الحرج، حيث مركز المراقبة، والقذائف تطير فوق الأشجار بأزيز ودوي غير عاديين، ما لا يحدث عندما تطير القذيفة فوق منطقة سهلية. كانت الريح تهبُّ، وقمة الشجرة تتمايل؛ لاحظني فجأة سنجاب أبيض ذو عينين سريعتَي الحركة، وكان يلوك شيئًا ما بفكَّيه المضحكين دائمَي الحركة، اللذين يميزان القوارض، ففزع كثيرًا وقفز إلى شجرة أخرى في لمح البصر، ناشرًا ذيله الوبري الأصفر ومعلَّقًا في الهواء لحظة. كانت البطارية التي تقصف الغابة تقف في مكان بعيد جدًّا، ولم أرَ سوى اللهب الأحمر الباهت للشرارات القصيرة المنطلقة من سبطانة المدفعية عند إطلاق كل قذيفة. كانت أوراق الأشجار تصخب بسبب الريح، وفي الأسفل صرصَرَ جندب لا أدري من أين ظهر ثم صمت فجأة، كأنما وضع أحدهم يده على فمه(28). كان الجو رائعًا وصافيًا، والأصوات كلها تصلني بمنتهى الوضوح، وفي البحيرة الصغرى، المرئية لي من الأعلى، كان الماء يتلألأ ويترقرق بحيث إني نسيت ضرورة تتبع القذائف وتحركات كتيبة الخيَّالة المعادية التي أبلغتنا فرقة الاستطلاع بوجودها، ونسيت أيضًا أن هناك حربًا أهلية في روسيا، وأنني أشارك في هذه الحرب.

توجب عليَّ في الحرب أن أصطدم للمرة الأولى بأحوال الناس وتصرفاتهم الغريبة التي، ربما، ما كنت لأراها أبدًا في ظروف أخرى، وقبل كل شيء رؤية الجبن الأشد هولًا. بيد أنه لم يثر فيَّ أدنى شفقة تجاه من مارسه. لم أفهم كيف يمكن أن يبكي من الخوف جندي في

السادسة والعشرين من العمر، ويزحف على الأرض في أثناء القصف الشديد، بعد أن أصابت ثلاث قذائف من عيار ست بوصات منصة القطار المصفح(29)، حيث كنا متحصنين، محطِّمة جدرانها الحديدية وجارحة عدة أشخاص، وراح ينتحب ويصرخ بصوتٍ حاد: «آه يا إلهي، آه يا أماه!» ويتشبث بأرجل الآخرين، المحافظين على هدوئهم. لم أفهم لماذا انتقل خوفه فجأة إلى الضابط، قائد المنصة، وهو شخص شجاع جدًّا بشكل عام، فصاح قائلًا لسائق القطار:

- إلى الخلف بالسرعة القصوى!

مع أنه لم يكن هناك أي خطر جديد وظلت قذائف المدفعية تتساقط، كالسابق، في محيط القطار المصفح. لا يمكنني القول إنني لم يحدث لي قَطُّ أن شعرت بالخوف في أثناء المعارك، لكنه كان شعورًا يسهل فهمه بالعقل، وبما أنه لم يكن يتضمن أي شهوة أو إغواء، فإن التغلُّب عليه لم يكن صعبًا. أظن، إلى جانب ذلك، أن ظرفًا آخر أيضًا لعب دورًا: في تلك الأزمنة - كما في السابق، وكما لاحقًا - لم أتمتع بالقدرة على الاستجابة السريعة لما يحدث من حولي. لم تظهر فيَّ هذه القدرة إلا نادرًا جدًّا، وفقط عندما يتطابق ما أراه مع حالتي الداخلية، لكن معظم تلك الأشياء كانت ساكنة إلى حد ما، إضافة إلى أنها بعيدة عني حتمًا، ولم يكن لها أن تثير لديَّ أي اهتمام شخصي. كان يمكن لذلك أن يكون التحليق البطيء لطائر كبير الحجم، أو صفيرًا بعيدًا لأحدهم، أو منعطفًا مفاجئًا لطريق تتكشف خلفه حقول القصب أو مستنقعات، أو عينين بشريتين لدبٍّ مدجن، أو صياح حيوان مجهول يوقظني فجأة في الظلام الكثيف لليلة صيفية. لكن في جميع الحالات، عندما يتعلق الأمر بمصيري أو بخطر يتهددني، كان الأكثر بروزًا هو صممي المتميز، الذي تشكَّل لديَّ نتيجة لعدم القدرة تلك على الاستجابة العقلية السريعة لما يحدث لي؛ أبعدني الصمم عن عيش المقلقات المعتادة والحمية التي تلازم أي موقف قتالي وتثير بلبلة نفسية. كانت هذه البلبلة النفسية تستولي كليًّا على كثيرين، الجبناء منهم والشجعان. لكن الأشخاص الحساسين بصورة خاصة كانوا الناس البسطاء؛ الفلاحين والعمال الزراعيين؛ كان الخوف والشجاعة يتجليان لديهم أقوى من أي شيء آخر ويبلغان درجة اليأس نفسها - في بعضهم اليأس الهادئ، وفي آخرين اليأس المجنون - كما لو أن كِلا الإحساسين هما الإحساس نفسه، لكن في اتجاهين مختلفين. الجبناء جدًّا كانوا يخافون الموت لأن قوة تعلُّقهم الأعمى بالحياة هائلة بصورة غير عادية، والذين لا يخافون كانوا يتمتعون بقوة الحياة الغريبة تلك نفسها، لأن الإنسان القوي روحيًّا فقط يمكنه أن يكون شجاعًا. لكن هذه القدرة الغامضة كانت تتجسَّد في أشكال مختلفة، متمايزة جدًّا بعضها عن بعض، مثل حياة الكائنات الطفيلية وحياة أولئك الذين تقتات هذه الكائنات عليهم. ولأن، من جهة، كل الذين عرفتهم ورأيتهم من أساتذتي ومعارفي السابقين لقَّنوني طوال حياتي ازدراء الجبن وفريضة الشجاعة، وأنا لم أشكك في ذلك قَطُّ، ومن جهة أخرى كنت أعاملهم باشمئزاز بسبب نقص عقلي الذي كان عاجزًا عن

إدراك حالة الجبناء الداخلية، وأحاسيسي غير الغنية بما يكفي لتمكنني من إيجاد حالات مماثلة، وكان ذلك الاشمئزاز يصبح قويًّا جدًّا في الحالات التي لا يكون فيها الجبناء جنودًا، بل ضباطًا. لقد رأيت كيف أن أحدهم، عندما اشتد وطيس القتال، بدلًا من قيادة رماة الرشاشات، اختبأ تحت كومة من عباءات الفرو المكومة داخل المنصة، وهو يسد أذنيه بأصابعه، ولم ينهض إلا بعد انتهاء القتال. وفي مرة أخرى، ضابط ثانٍ من فصيلة الرشاشات، هو أيضًا استلقى على الأرض، مغطيًا وجهه بكفَّيه، ومع أن الفصل كان شتاءً والأرضية الحديدية شديدة البرودة بحيث إن الأصابع تلتصق بها، ظل مستلقيًا على ذلك النحو قرابة ساعتين ولم يُصب بالزكام حتى، ربما لأن تأثير الخوف الشديد أعطاه نوعًا من المناعة الآنية. وفي مرة ثالثة، عندما ظهرت الطائرات المعادية فوق «القاعدة» - هكذا كان يُسمَّى القطار الذي يعيش فيه الجنود والضباط القادمون من الجبهة لتبديل النوبة؛ فقد كانت هناك نوبتان، إحداهما في الخطوط الأمامية والأخرى في المؤخرة، وتبديل النوبات يتم كل أسبوعين، ويعيش في القطار المصفح أيضًا، إضافةً إليهم، القسم غير المقاتل كله، أي الجنود الذين يعملون في المطبخ، والضباط الذين يشغلون مناصب إدارية واقتصادية، وزوجات الضباط، وكَتبة الدوائر، وعناصر هيئة الإمداد والتموين، وقرابة عشرين امرأة مسجلات كغاسلات ملابس وغاسلات أوانٍ وعاملات نظافة لعربات الضباط؛ كانت هؤلاء النساء عرَضيات، اختِرن في محطات مختلفة، أغوتهن مَرافق القاعدة المريحة والعربات الدافئة والكهرباء والنظافة والطعام الوفير والراتب الذي يتقاضينه لقاء واجبات سهلة تتطلب منهن قبل أي شيء آخر المَيل الأنثوي المحض - وكانت القاعدة، كالعادة، على بُعد أربعين فِرستًا في المؤخرة، وبدأت الطائرات بإلقاء القنابل، نظر الملازم بورشوف، العريف المشرف على القطار المصفح، إلى السماء ورسم علامة الصليب بسرعة، وتأوَّه واندس على أطرافه الأربعة تحت العربة، من دون أن يخجل من أن يراه الأشخاص المحيطون به. حينئذٍ قفز من إحدى العربات الجندي في سلاح المدفعية ميخوتين، وكان رجلًا ماكرًا ولصًّا، ولم يخض معركة قَطُّ، قفز عن سلم العربة وأخذ يركض في الحقل من دون أن يتلفت حوله، إلى أن وصل إلى مبنى مضخة المياه وسارع إلى الاختباء فيه. لم تصب أي من القنابل الملقاة القاعدة، كما كان ينبغي توقع ذلك، وبشكل عام القنبلة الوحيدة التي تسببت في ضرر هدمت جزءًا من مبنى مضخة المياه نفسه الذي اختبأ فيه ميخوتين. صحيح أن القنبلة لم تجرحه، لكنها ضربته بحجارة القرميد بقوة: امتلأ وجهه المكتنز، ذو التعبير الخنزيري المتذمر، بالكدمات، وتلطخت ملابسه بالكلس الأبيض، وعندما استعاد وعيه وهو في تلك الحال أصبح موضوعًا للسخرية، الأمر الذي، بالمناسبة، لم يُخجله مطلقًا، لأن شعور الخوف في داخله كان لا يُقهر. جندي آخر اسمه «تيانوف»، رجل عريض المنكبين، يرفع بسهولة سنجة وزنها بُودان(30) ويرسم بها علامة الصليب، كان جبانًا إلى

درجة أنه، عندما وصل إلى الجبهة للمرة الأولى وسمع إطلاقات المدافع البعيدة، قفز من أعلى المنصة التي يبلغ ارتفاعها ساجينًا ونصف الساجين(31) إلى الأسفل وأراد الهرب والعودة إلى القاعدة، لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب قدمه المخلوعة، وقد فرح كثيرًا بانخلاع قدمه، لأنهم أرسلوه إلى المؤخرة بالفعل. حدث له ذات مرة في أثناء تبادل إطلاق النار - توجب عليه، رغم كل شيء، الذهاب إلى الجبهة - أنه أغمي عليه وظل مستلقيًا ممتقع الوجه، من دون أن يتحرك، لكني، عندما نظرت نحوه بالمصادفة، ولم يكن يتوقع ذلك، رأيته يفتح عينيه بسرعة وينظر حوله ثم أغمضهما فورًا. غير أني، إلى جانب أشخاص كهؤلاء، عرفت أشخاصًا مختلفين عنهم. أذكر أن العقيد ريختر، قائد القطار المصفح «دخان»، كان مستلقيًا على سطح المنصة، بين صفَّين من الصواميل التي تربط بين أجزاء درع القطار المنفصلة. قطعت قذائف العدو، التي كانت تنزلق على الحديد صافرةً، كل المشابك عن يسار العقيد، لكنه لم يستدر حتى، وظل وجهه جامدًا، ولم ألحظ أنه بذل أي جهد مما كان يجب أن يفعله للحفاظ على رباطة جأشه. الضابط الأقدم في كتيبة المدفعية، الملازم أوسيبوف، حين غادر المنصة ذات يوم ليعاين الوضع، وخرج إلى الحقل، وجد نفسه بين سلسلتَين من الجنود المشاة: سلسلة الحمر من جهة، وسلسلة البيض من الجهة الأخرى. الجنود في كِلا الطرفين لم يعرفوا من يكون - اعتقد الحمر أنه من البيض واعتقد البيض أنه من الحمر - وأخذوا يطلقون عليه النار من كِلتا الجهتين، ورأينا من المنصة كيف تتصاعد أعمدة الغبار كل دقيقة قرب قدميه، إلا أنه مع ذلك واصل التقدم، غير عابئ مطلقًا بطلقات الرصاص. وبعد ذلك عاد أدراجه، وخدشت رصاصة واحدة يده خدشًا طفيفًا. أما الجندي فيليبينكو فكان يغني في أثناء القتال أغاني أوكرانية هادئة، ويحاول إجراء حديث هادئ مع الآخرين ويستغرب بحزن عندما يسمع شتائم ردًّا على ذلك: لم يفهم الإثارة العصبية التي تتملك الناس، ولا خوفهم. سأله القائد:

- ألا تخاف يا فيليبينكو؟

قال فيليبينكو في دهشة:

- وما الداعي إلى الخوف؟ المقبرة في الليل مخيفة، نعم إنها مخيفة. لكنها ليست مخيفة في النهار.

بيد أن أحد أشجع الأشخاص، ممن قابلتهم يومًا، كان الجندي دانيل جيفين، الذي كان الجميع يدعونه «دانكو». كان شخصًا طيب القلب، نحيلًا، ضئيل الحجم، محبًّا كبيرًا للضحك ورفيقًا جيدًا، وكان يفتقر بالدرجة نفسها إلى الغرور، وبالتالي قادرًا على نسيان نفسه من أجل الآخرين إلى درجة تبدو غير معقولة. عاش عددًا كبيرًا من المغامرات، وخدم في جميع الجيوش المشاركة في الحرب الأهلية - عند الحمر، وعند البيض، وعند ماخنو(32)، وعند الهتمان سكوروبادسكي(33)، وعند بتلورا(34)، وحتى في فصيلة الاشتراكي الثوري سابلين(35)، التي لم يستمر وجودها سوى بضعة أيام. ما قطع خدمته في القطار المصفح هو

أنه وقع في أسر قوات ماخنو، مع كل الكتيبة التي كانت على الجبهة تلك المرة. في جيش ماخنو عيَّنوه في سرية خاصة في فوج مشاة كان يحرس جسرًا فوق نهر الدنيبر.

كانت قوات ماخنو تحتل أحد طرفَي الجسر، الذي يبلغ طوله فِرستًا واحدًا وثلاثة أرباع الفِرست، والبيض يحتلون الطرف الآخر. في كلتا النهايتين رشاشات منصوبة ومصوبة بعضها إلى بعض. حين عُيِّن دانكو في مركز حراسة من جهة الماخنويين، قرر العودة إلى القطار المصفح، فأرسل معاون الخفير إلى الخندق، وحمل رشاشًا على كتفه وأخذ يسير في اتجاه المتطوعين، الذين أخذوا فورًا يطلقون النار بغزارة. واصل دانكو التحرك من دون أن يكترث لذلك، كأنه لا يسير في مساحة ضيقة تخترقها عشرات الرصاصات في الدقيقة، وإنما في طريق هادئ عريض من طرق روسيا التي تؤدي من مكانٍ ما في مقاطعة تولا إلى مدينة أريول. معاونه في الحراسة، إذ أقلقه إطلاق النار غير المتوقَّع على هذا النحو، هرع راكضًا من الخندق، وحين رأى دانكو المغادر شرع هو أيضًا يرميه من الرشاش الثاني. عبَر دانكو الجسر من دون أن يُجرح حتى. اعتقله البيض، وحسبه بعضٌ من ضباط المشاة الأغبياء - نقيبان من الأركان - جاسوسًا وأرادوا رميه بالرصاص. انفجر دانكو بسيل من الشتائم المخيفة مع ذكر اسم الرب الإله وأسماء الرسل، لكن ذلك لم يكن ليساعده لو لم يذهب أشخاص من منصة القطار المصفح، وكان واقفًا غير بعيد، للاستفسار عن الأمر. رأى الملازم أوسيبوف دانكو ممزق الثياب وهو يصرخ في الضباط المشاة ويمدُّ يده إلى مسدسه تارة وإلى بندقيته تارة أخرى. بعد تدخل ضابط القطار المصفح أخلوا سبيله قائلين إنهم لم يروا جنديًّا غير منضبط مثله من قبل. صرخ دانكو:

- يمكنكم وضع انضباطكم في مؤخراتكم!

بعد أن بدَّل ملابسه وأطعموه وجلس قرب الموقد في عربة بضائع مدفَّأة، وأخذ يدخن لفافة من تبغ إسطنبولي، سألوه:

- كيف لم تخف يا دانكو؟

أجاب دانكو:

- من لم يخف؟ آه، لقد خفت كثيرًا.

في مرة أخرى، بينما كان دانكو متوجِّهًا إلى الاستطلاع، وقع في الأسر ثانية، لأنه ذهب إلى قرية يحتلها الحمر، ودخل أحد الأكواخ، وراح يمازح صاحبة البيت ويستفسر عما إذا كان هناك بلاشفة في القرية أم، ربما، لا، وذلك قبل بضع ثوانٍ من الظهور غير المتوقع لثلاثة أفراد من الجيش الأحمر. لم يلحق دانكو حتى أن يمد يده إلى بندقيته. جردوه من السلاح، وحبسوه في عنبر، ووضعوا حارسًا على العنبر، وحكموا على دانكو بالإعدام. ومع ذلك ظهر

دانكو بعد ثلاثة أيام كأن شيئًا لم يكن، بعد أن بحث عن قاعدة قطاره المصفح الذي كان في هذه الأثناء قد ابتعد مسافة ستين فِرستًا. كنت حاضرًا في أثناء حديثه مع القائد:

- أين كنت يا دانكو؟

- في الأسر.

- وكيف وقعت في الأسر؟

- اعتقلني الحمر.

- ولم يفعلوا بك شيئًا؟

- لا، أرادوا رميي بالرصاص.

- وماذا فعلت أنت؟

- هربت.

- وكيف تمكنت من ذلك؟

- قتلت الحارس وهربت.

- ولم يمسكوا بك؟

قال دانكو:

- لا، ركضت بسرعة.

وأخذ يضحك.

بدت لي فكرة أن دانكو استطاع أن يقتل الحارس غريبة، ولا توافق طبعه. غالبًا لم يجد مفرًّا من ذلك ببساطة، وغريزة البقاء غلبت، طبعًا، إمكانية التفكير لديه - فيما إن كان عليه أن يقتل الحارس أو لا يفعل - ولولا هذه الغريزة لما كان دانكو بين الأحياء منذ زمنٍ بعيد. لقد كان فتيًّا جدًّا وغير جِدي، كما كان الجنود يقولون عنه، وقد أضحك ذات يوم فصيلة القطار المصفح كلها، وهو يطارد الخِنوص الأبيض الصغير الذي اشتراه من مكان ما؛ ركض في إثره طويلًا، وصرخ فيه وحاول أن يغطيه بقبعته؛ كان يصفِّر، ويلوح بيديه بينما يركض، ونحن نتبعه إلى أن اختفى مع الخِنوص عن أنظارنا. عاد في المساء وهو يجرُّ وراءه بحبلٍ خنزيرًا تمكن من مبادلته بالخِنوص. سخروا منه قائلين إن الخِنوص لحق أن يكبر خلال فترة مطاردة دانكو الطويلة له. ضحك دانكو، ممسكًا قبعته بيده ومطرقًا برأسه. كان شخصًا مرحًا، ولا حدود لطيبته وتهوره. سألته:

- أكنت لتسافر إلى القطب الشمالي يا دانكو؟

- وهل المكان ممتع هناك؟

- ممتع جدًّا وفيه دببة بيضاء كثيرة.

قال:

- آه، لا. أنا أخاف الدببة.

- ولماذا تخافها؟ فهي لن تحكم عليك بالإعدام.

أجاب دانكو وهو يضحك:

- إنها تعض.

لم يستطع الإقلاع عن عادة مخاطبتي بضمير الجماعة «أنتم» احترامًا. أوضحت له:

- دانكو، أنت جندي مثلي. لماذا تقول لي «أنتم»؟ يمكنك مخاطبتي كما تخاطب إيفان.

كان إيفان صديقه. أجاب دانكو:

- لا أستطيع. أخجل.

إيفان هذا كان أوكرانيًّا ذكيًّا، وجنديًّا هادئًا وشجاعًا، سألني ذات مرة:

- ما هو «درب اللبَّان»؟

- لماذا أهمَّك هذا الأمر فجأة؟

- لأنَّ الجنود يسألونني: «ما هذا الشيء الذي يشبه اللبن في السماء يا إيفان؟»، فأقول: «إنه درب اللبَّان». لكن ماذا يكون «درب اللبَّان»؟ لا أدري.

شرحت له الأمر قدر ما استطعت. في اليوم التالي توجه إليَّ بالكلام ثانية:

- قل لي، من فضلك، كم يساوي محيط الدائرة؟

أجبته:

- إنه يُعرَّف بمصطلحات رياضية خاصة، ولا أدري إن كنت ستفهمها.

وذكرت له صيغة محيط الدائرة، فأقرَّها مستحسنًا وقال:

- آها. لقد كنت أختبرك. اعتقدت أنك ربما لا تعرفها. سألت عنها الطالب المتطوع سفيركي أولًا، ودوَّنتها، ثم جئت لأختبرك.

كان إيفان قاصًّا رائعًا، ولم أقابل وسط أولئك الذين يسمُّونهم «المثقفين» أحدًا يمكن مقارنته به. كان ذكيًّا ونبيهًا جدًّا ويتمتع بموهبة إبداعية لابتكار ما هو مضحك مما لا يجد فيه شخص آخر ذلك، وهي السمة التي يبقى دائمًا الهزل من دونها باهتًا بعض الشيء. لم أحفظ قصص إيفان التي كان يُظهر فيها موهبته المدهشة في التقليد، فلأن فنه كان بسيطًا وآنيًّا، كان يصعب تذكره، وأنا لا أتذكر الآن سوى كيف نقل إلينا حديثه مع جنرال من الجيش الأحمر، عندما أرسلوا خيولًا سيئة إلى البطارية التي كان يقودها إيفان آنذاك. روى لنا إيفان فقال:

- قلت له: «أيها الرفيق القائد، هل هذه خيول حقًّا؟ هذه الخيول تمشي وهي مندهشة جدًّا من أنها لم تَنفق بعد»، فأجابني: «أشكر السلطة العليا على أن ليس جميع القادة لديَّ مزاجيين على هذا النحو مثل النسوة»، فقلت له: «ها أنت، أيها الرفيق القائد، قد تموت، لا قدر الله، وسوف نحمل نعشك على هذه الخيول، حتى لا تترجرج كثيرًا».

كنت أمضي وقتي مع الجنود، لكنهم كانوا يتعاملون معي بحذر إلى حد ما، لأني لم أفهم أمورًا كثيرة مع أنها بسيطة للغاية وفق رأيهم. لم أعرف الكلمات التي يستخدمونها، وكانوا يضحكون مني عندما أقول: «أنا ذاهب وراء الماء»، بدلًا من: «لإحضار الماء»، فيعلقون ساخرين: «أوراء الماء تذهب! لن ترجع إذن». فضلًا عن أني لم أُجِد التحدث إلى الفلاحين وكنت أبدو

في نظرهم، عمومًا، شخصًا روسيًّا مقيمًا في الخارج. طلب إليَّ قائد المنصة ذات يوم أن أذهب إلى القرية لشراء خنزير. قلت له:

- يجب أن أحذرك من أنني لم أشترِ خنازير يومًا، وأن حدثًا كهذا لم يحدث في حياتي من قبل، وإذا تبين أن عملية الشراء التي أجريتها ليست موفقة جدًّا، فلا تنزعج.

أجاب:

- وأين الصعوبة في ذلك؟ فشراء خنزير ليس إحدى ثنائيات نيوتن. لا يحتاج هذا الأمر إلى حكمة عظيمة.

وهكذا، انطلقت إلى القرية. في جميع العِزبات التي دخلتها نظروا إليَّ بعدم تصديق وبسخرية. كنت أسأل: «هل لديكم خنازير للبيع؟»، «ماذا؟»، «خنازير»، «لا، لا توجد لدينا خنازير». مررتُ بأربعين دارًا وعدتُ إلى المنصة خاوي الوفاض. قلت للضابط:

- تولَّد لديَّ انطباع بأن هذا النوع من التذييات مجهول هنا.

فأجاب:

- أما أنا فتولَّد لديَّ انطباع بأنك، ببساطة، لا تجيد شراء الخنازير.

لم أجادل، وحينذاك عرض إيفان، الذي كان حاضرًا في أثناء هذا الحديث، خدماته. قال لي:

- اذهب معي، وسنشتري خنزيرًا في طريقنا.

هززت كتفَي ومضيت مرة أخرى إلى القرية. في أول عزبة - تلك التي قالوا لي فيها إن لا خنازير لديهم - اشترى إيفان بقروش خنزيرًا ذكرًا ضخمًا. قبل ذلك تحدَّث إلى مالك العزبة عن المحصول، واكتشف أن عمه، الذي يعيش في بَلتافا، صديق مقرَّب لصهر هذا المالك وابن بلدته، وأثنى على نظافة العزبة، مع أنها كانت قذرة جدًّا، ثم قال إن مزرعة كهذه لا يمكن ألَّا يكون فيها خنازير، وطلب شيئًا يشربه... وانتهى الأمر بأن أطعمونا حتى الشبع، وباعونا خنزيرًا، وشيعونا إلى ما بعد البوابة الخارجية.

قلت للقائد عند عودتنا:

- هاكَ ثنائية الحدِّ هذه حقًّا.

وكان هذا يحدث دائمًا حيثما يكون لديَّ عمل مع الفلاحين، لم يكن يخرج معي شيء، بل إنهم حتى لم يفهموا ما أقول، ذلك لأني لم أُجِد الكلام بلغة عامة الشعب، مع أني أردت ذلك من قلبي. غير أن السواد الأعظم لدينا في القطار المصفح كان مؤلَّفًا من أناس قد نُظِّفوا وحصلوا على بريق معين: عمال السكك الحديدية، والعاملون في مصلحة البرق. كان جنودنا يتأنقون جدًّا في ملابسهم، ويرتدون بنطلونات غير متكلفة، الأمر الذي كان يعَد إشارة إلى الفكر الحر، ويُرصع بعضهم أصابعهم بمحابس وخواتم هائلة الحجم، بحيث إن زيفها لم يُثر أدنى شك لدى أي أحد. كان الجزار السابق كليمينكو - النذل الأول بين أنذال القطار المصفح - يتزين بالكمية

الأكبر من الجواهر. كان كليمينكو في حالة من الانتباه المتوتر طوال وقت الفراغ: لا تتوقف يده اليسرى عن فَتْل شاربيه، واليمنى معلقة في الهواء، قرب عينيه، ليتمكن من رؤية بريق خواتمه بشكل أفضل. علمنا بصفاته السيئة بعد أن سرق مالًا من جاره، وكُشف أمره، وقال له القائد:

- هاك اختر يا كليمينكو: إما أن أسلِّمك إلى القضاء، وسوف يعدمونك بالرصاص، مثل كلب، وإما أن أصفَّ كل مَن في القطار المصفح في صف وأصفعك على سحنتك أمامهم عدَّة مرات.

ارتمى كليمينكو راكعًا وأخذ يتوسل القائد قائلًا:

- اصفعني على سحنتي.

وقد تمَّ ذلك صبيحة اليوم التالي؛ وبعدها كثيرًا ما تذكر كليمينكو هذه الحادثة، وهو جالس في عربته، وقال: «لا يمكنني إلا أن أضحك من بلاهة القائد»، وكان يضحك فعلًا. أما النذل الثاني فكان رئيس محطة صغيرة للسكك الحديدية، اسمه «فالنتين ألكسندروفيتش فَرَبيوف»، وكان ذا مظهر مهيب، مثل معظم الأنذال الكبار في السنِّ: له لحية كثَّة يمشِّطها بعناية، ولطيف جدًّا في الحديث، ويغني أغنيات أوكرانية حزينة بصوت عالٍ، وإضافة إلى ذلك كان نموذج النذل الراسخ في نذالته بالغًا فيها منتهاه. كان في وسعه أن يشهد شهادة زور ضد رفيقه أمام القضاء، وأن يسرق جاره، مثل كليمينكو، وكان، طبعًا، سيخون الجميع في الظروف الصعبة. عند وصولي إلى القطار المصفح سرق مني في ذلك اليوم نفسه علبة تحتوي على ما يقرب من ألف سيجارة. يبدو أن النساء أحببن هذا الإنسان كثيرًا، فقد عاشر جميع الخادمات والكناسات اللواتي تحت إمرته، وعندما رفضته إحداهن كتب فيها وشاية متهمًا إياها باعتناق الاشتراكية، مع أن المرأة المسكينة كانت أمية، فاعتقلوها وأرسلوها مخفورة إلى مكان ما. كان الفصل شتاء، وغادرت هذه المرأة حاملة ابنتها ذات السنتين على ذراعها. عندما كنت أنظر إلى فَرَبيوف كثيرًا ما فكرت في السبب الذي يدفع النساء غالبًا إلى تفضيل الأنذال، وقلت لنفسي: ربما لأن النذل أكثر تميزًا من الإنسان العادي؛ فهو يتمتع بشيء لا يتمتع به الآخرون، وكذلك لأن كل صفة في الشخص، أو تقريبًا كل ميزة، حين تبلغ درجتها النهائية لا يُعاد يُنظَر إليها كصفة اعتيادية للشخص وتكتسب قوة الاستثناء الجاذبة. وبما أني لم أكن قد غادرت حياتي السابقة، بصرف النظر عن أنها كانت قد انتهت، وكنت لا أزال أحتفظ ببعض من عادات المدرسة الثانوية، وكنت لا أزال طالب مدرسة ثانوية، فإن أفكاري اتخذت منحى خاصًّا حكم عليها سابقًا بالعقم وبعدم توافقها مع إدراكاتي الأولية التي خدمتني، على هذا النحو، بوصفها حجةً وحسب لعودة مخيلتي إلى أمكنتها المحببة. لقد أحبَّت النساءُ الجلادين؛ والجرائم التاريخية، المرتكَبة منذ مئات السنين، لم تفقد جاذبيتها المقلقة بالنسبة إليهنَّ؛ فما الذي يمنع الافتراض بأن فَرَبيوف يمثل نموذجًا مصغرًا للمجرمين العِظام؟ لكن هذا كان أمرًا سخيفًا

ولا يشبه أيَّ شيء. ما كان يفعله فَرَبيوف هو أنه يسرق السكر والمنسوجات من قطارات البضائع المجاورة، وتمكن ذات يوم من المناورة ليلًا بقاطرة، وجرَّ عربة صفراء جديدة من عربات الدرجة الثانية من قطار قائد الجبهة، الجنرال ترياسونوف. لكنه في المساءات، حين يستلقي في سريره المعلق، بوجهٍ شاحب من السُّكْر وعينين حزينتين مكدرتين، كان يتحسَّر طول الوقت على أن مشيئة القدَر أجبرته على المشاركة في الحرب الأهلية. يقول والدموع تطفر من عينيه: «يا إلهي! ما هذا الوضع! أناس أُطلقت عليهم النار، أناس مشنوقون، مقتولون، معذَّبون. لكن ما شأني أنا بذلك؟ إلى من أسأتُ يومًا؟ لماذا يحدث هذا كله؟ لو أني أرجع إلى بيتي يا رب؛ فلي زوجة، وأطفالي الصغار يسألون: «أين بابا؟»، وبابا يجلس هنا، تحت المشانق». ثمَّ يصرخ: «ماذا سأقول لأطفالي؟ أين عُذري؟ العزاء الوحيد هو أني، حين نصل إلى ألكساندروفسك، سأذهب عند زوجتي ليلًا، وأقول لها: «هل عِيل صبركِ من الانتظار يا حبيبتي؟ هأنذا»».

وبالفعل، في ألكساندروفسك مضى فَرَبيوف إلى زوجته ومكث عندها ثم عاد وقد غمرته السكينة. لكنه، بعد أن قطعنا نحو أربعين فِرستًا وتوقفنا في محطة صغيرة ثلاثة أيام، تجهم ثانية:

- يا إلهي، ما هذا الوضع! أناس مقتولون بالرصاص، مشنوقون. من أجل ماذا؟

ثم صرخ مرة أخرى:

- سيسأل الأطفال: «أين كنت يا بابا؟». ماذا سأقول لهم؟

صمت، وتنهَّد، ثم قال متأملًا:

- حين نصل ميليتوبول سأذهب عند زوجتي، وأكون في البيت من جديد. سأقول لها: «هل عيل صبرك يا حبيبتي؟ هأنذا».

سألتُه:

- وهل أصبحت زوجتك في ميليتوبول الآن؟

نظر إليَّ بعينين ثملتين لا تُبصران، وقد استقر فيهما تعبير الرقة والامتنان، وقال:

- نعم يا صديقي العزيز، في ميليتوبول.

لكنه، بعد أن غادرنا ميليتوبول، استمر يحلم بأنه سيذهب عند زوجته، لكن في مدينة جانكوي هذه المرة.

قالوا له في سخرية:

- زوجتك، يا أخ، كنز حقيقي. إنها ليست زوجة بل إلهة كلية الوجود، إذ كيف تكون في ألكساندروفسك، وفي ميليتوبول، وفي جانكوي؟ وفي كل مكان أبناء صغار وشقة؟ لقد رتبتَ أمورك جيدًا.

عندئذٍ قدم فَرَبيوف تفسيرًا بدا له، فيما يبدو، كافيًا تمامًا، لكنه أدهش الآخرين بشدة. قال:

- الأبناء، آه نعم، فأنا عامل في السكة الحديدية.

- وماذا يعني ذلك؟

قال فَرَبيوف متعجبًا:

- يا لكم من غريبي الأطوار! يبدو أنكم لا تعرفون وظيفة السكة الحديدية. في كل مدينة زوجة يا أعزائي، في كل مدينة.

النذل الثالث كان بارامونوف، وهو طالب أُصيب بجرح طفيف في رِجله قبل فترة وجيزة من التحاقي بالخدمة. لم يسبب الأذى لأحد تحديدًا، لكنه كل يوم، قبل جولة الطبيب بساعتين تقريبًا، كان يفرك جرحه بالزيت مانعًا بذلك شفاءه، ولذلك عُدَّ جريحًا مدة طويلة لا نهاية لها، ولم يذهب إلى الجبهة. كان الجميع يرونه، ويعرفون كيف يتصرَّف، لكنهم كانوا يعاملونه بازدراء صامت وباشمئزاز، ولم يحزم أحد أمره ليقول له إن ما يفعله ليس جيدًا. كان يبقى وحيدًا دائمًا، والآخرون يتجنَّبون التحدث إليه؛ يتناول الطعام في ركنه عادة، وهو يسترق النظر حوله. يأكل الدهن والخبز. كان شرهًا جدًّا. يعيش مثل حيوان وحيد، يتحمل الآخرون حضوره، مع أنه مزعج. كان صموتًا وعدائيًّا تجاه الجميع، وعندما يمر أحدهم بجوار سريره المعلق، يتتبعه بارامونوف بنظرة حذرة وحاقدة. نقلوه لاحقًا إلى مكان ما. تذكرت بارامونوف بعد بضع سنوات، بعد أن أصبحت خارج البلاد، عندما رأيت بومة تحتضر، وهي مربوطة بقوة إلى شجرة بشريط ملفوف. كانت البومة، ما إن تسمع وقع خطوات، حتى تنتصب وتنفش ريشها، وتخفق بجناحيها ببطء، وتطقطق بمنقارها، وكانت عيناها الصفراوان تنظران إلى الأمام نظرة عمياء وشريرة. كان على متن القطار المصفح كذابون، ومحتالون، وكان هناك حتى شخص إنجيلي لا يعلم أحد من أين قَدِم واستقر في عربتنا، يعيش عيشة رغيدة خليَّة البال، داعيًا إلى عدم مقاومة الشر. كان يقول: «أنا لم ألمس بندقيتكم هذه قَطُّ ولن ألمسها أبدًا. هذه خطيئة». «وإن هاجموك؟»، «سأردُّ بالكلمة». لكن ذات مرة، عندما أحضر لنفسه وجبة الغداء - وكانت عبارة عن قصعة تحتوي على حساء الملفوف وأخرى تحتوي على هريس البطاطس - وسرقوها منه خفية، احتدم غيظًا واختطف، بمصادفة غريبة، تلك البندقية التي وعد ألَّا يلمسها، ولو لم ينتزعوها منه لكان تسبب في مآسٍ كثيرة.

لكنَّ الشخص الأكثر إثارة للدهشة، ممن رأيت في الحرب، هو الجندي كوبتشيك الذي كان تميزه الخارجي يتلخَّص في كسله الذي لا يُقهر. كان لا يطيق أي عمل، ويفعل كل شيء بصعوبة بالغة مرفَقة بتنهيدات، مع أنه كان سليم الصحة تمامًا وقوي البنية. لم يحبه الجنود، بسبب تهرُّبه الدائم من المهمات، فكانوا يضطرون إلى تأدية كثير من الأعمال نيابة عنه. كان يعيش دائمًا مختبئًا بطريقة ما، وممتلئًا هلعًا من أن يُجبَر فجأة على تحميل الطحين في عربات القطار، أو جلب الماء، أو تقشير البطاطس. كان يمرُّ، من حين إلى حين، عبر القاعدة، وفي الحال تختفي ذقنه غير الحليقة وعيناه الدامعتان وهيئته كلها في سترة عسكرية بالية ومتسخة

وفي بنطال مماثل لها، وخلال دقيقة يتعذر العثور عليه حتى بمساعدة الكلاب. كان يتجنب الذهاب إلى الجبهة، لذلك السبب نفسه الذي كان يدفعه إلى الاختباء في القاعدة؛ فهناك أيضًا عليه أن يعمل، وإذا كانت ثمة إمكانية للتهرُّب من العمل في المؤخرة، ففي المنصة، في المعركة، يغدو هذا مستحيلًا. كان كسل هذا الجندي أقوى بما لا يقاس من خوفه من الموت، لأنه لم يفهم، حتى النهاية، معنى الخطر، أما أن العمل يمنعه من العيش في الخمول والحلم - وهو ما يحبه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا - فكان يعرف ذلك جيدًا. لم أتصور أن يبدي كوبتشيك يومًا ولو جزءًا من طاقته الهائلة، التي يهدرها على ابتكار أساليب للتهرب من أي عمل والاستلقاء مطولًا تحت عربة القطار، كما كان يفعل في طقس الصيف الحار. لم أكن أعلم ما إذا كان كوبتشيك قادرًا على الإقدام على تصرُّف، ولو تافه، يُظهر من خلاله بطريقة ما أنه يفكر في ما يعتاش منه وما يشكِّل موضوع فترات تفكيره الطويلة التي تملأ تبطُّله المعتاد. وذات يوم في المنصة، في أثناء احتدام قتال عنيف - بينما كان كوبتشيك، والمعاناة تتجلى في عينيه، يجر القذائف من دُشَمِها وينقلها لتلقَّم في المدفع، وهو يُرفق كل قذيفة بتنهيدة شاكية، وبعد القذيفة الخامسة قال: «ظهري يؤلمني. القذائف ثقيلة جدًّا» - انفجرت قنبلة معادية فوق مدفعنا، فأصيب المنشِّن بجرح في بطنه، وتوقف المدفع عن إطلاق النار.

في البلبلة التي حدثت فجأةً، لم يعرف أحد ما ينبغي فعله، وكوبتشيك وحده، الذي رأى أنه لم يعد مضطرًّا إلى العمل بعض الوقت، تنفس الصعداء، وربت بيده على المدفع الذي لا يزال ساخنًا، ومضى، وقد تغيرت حاله، وهو يتقافز تقريبًا نحو الجريح الذي سالت دماؤه على الأرض، وكان هلع الموت مرتسمًا على وجهه. قال له كوبتشيك وسط صمت الجميع:

- لن تموت.

دوَّت في البعيد أربع إطلاقات مدفعية بفواصل زمنية متساوية فيما بينها. تابع كوبتشيك بهدوء:

- انظر كم أنت معافَى. دمك أحمر قانٍ، أما المريض فدمه أزرق.

قال المنشِّن:

- قلبي يتقطع.

قال كوبتشيك مكرِّرًا:

- قلبك؟ هذا غير صحيح. قلبك قوي، ولو كان ضعيفًا لما صمد. دعني أخبرك عن القلب الضعيف. ذهبت ذات مرة لشراء خيول فرأيت عفريتًا من عفاريت الماء جالسًا في مكان لا يبعد عني كثيرًا، وهو حزين جدًّا.

بذل المنشِّن جهدًا لينظر إلى كوبتشيك، الذي تابع قائلًا:

- فقلت لنفسي: هيا، لأُفزعَه. وأفزعته. ما إن صرخت فيه: «ماذا تفعل هنا أيها العجوز؟» حتى مات من الفزع، لأن قلبه ضعيف، بينما قلب الإنسان، يا له من قلب! وقلبك قوي جدًّا.

لكن المنشِّن فارق الحياة قبل وصوله إلى القاعدة، وبعد ثلاثة أيام، بينما كنت أمشي على السكة

الحديدية، رأيت شعر كوبتشيك الأشعث تحت عربة القطار، فشعرت بالغرابة والكدر في قلبي، وأشحت عنه فورًا: كان هناك شيء غير إنساني وغير طيب في ذلك الجندي؛ شيء لم أرِد معرفته. لكن جذب انتباهي شجار وقع بين طاهية مجلس الضباط الرئيسية - المقيمة في عربة بولمان متميزة - وماسح الأحذية في القطار المصفح، وهو ولد جميل في الخامسة عشرة من العمر اسمه «فاليا»، وكان عشيق هذه المرأة التي جاوزت عمر الشباب، والعرجاء، وخانها مع غاسلة الملابس، أو ربما مع غاسلة الأواني؛ وكانت المرأة تشتمه على ذلك أمام الجميع، وثلاثة جنود يقفون على مقربة ويضحكون من أعماقهم. كانت القصص الغرامية مع الخادمات تأخذ كثيرًا من وقت الضباط والجنود الأكثر مِراسًا؛ فقد أدركت الخادمات بسرعة قيمتهن ورحن يشمخن بأنوفهن، وواحدة منهن، وهي امرأة ضخمة الجثة من مدينة ياروسلافل اسمها «كاتيوشا»، لم ترغب في معرفة أحد ولم تكن تُعير أيًّا من محاولات استمالتها بالًا ما لم يدفعوا لها مقدمًا. كان راوي النكات في القطار المصفح، الملازم درجاتش، يشكوها لكل مَن حوله قائلًا: «قالت كاتيوشا في اعتزاز :«لا يا سيادة الملازم، أنا لا أضاجع أحدًا مجانًا الآن. أعطِني الخاتم الذي تضعه في إصبعك، وسأنام معك»». وقد تردَّد درجاتش طويلًا. وكان يقول: «إنكم تفهمون، هذا الخاتم هدية مقدسة من خطيبتي». «لكنَّ الحب انتصر»، حسب قوله، ولم يعد هناك خاتم الآن لدى الملازم درجاتش، أم تراه اشترى واحدًا آخر. غير أن أبعد النساء منالًا في القطار المصفح كانت ممرضة، وكانت امرأة متكبرة، تعامل الجنود بازدراء ونادرًا ما تتنازل إلى حد إجراء أحاديث معهم، تنمُّ كلها عن الاحتقار. أذكر أني كنت ذات مساء مستلقيًا على سريري المعلق، بينما هي تضمِّد بارامونوف، بعد أن أحضرته إلى مقصورتي، حيث المصباح الكهربائي أشد سطوعًا. رفعت رأسها ورأت وجهي، فقالت:

- كم أنت فتي! من أي مقاطعة؟

- من مقاطعة بطرسكايا(36)، أيتها الأخت.

- بطرسكايا؟ أي قدَر أوصلك إلى الجنوب؟

- هذا ما حدث، جئت إلى هنا.

- ماذا كنت تعمل سابقًا؟ أكنت تعمل ساعي بريد أم ماذا؟

- لا، أيتها الأخت، كنت أدرس.

- في مدرسة كنيسة أبرشية، ربما؟

- لا، أيتها الأخت، في مدرسة عادية.

- وأين بالتحديد؟

قلت:

- في المدرسة الثانوية.

ولم أتمالك نفسي فضحكت. تورَّد خداها.

- في أي صف؟

- في الصف السابع، أيتها الأخت المحترمة.

بعد ذلك كانت تتحاشاني ما إن تلحظني من بعيد.

كما أنني، لكي أتذكر بمنتهى الدقة حياتي في مدرسة «الكاديت» والحزن الحجري الذي لا يُقاس به شيء، والذي تركتُه في ذلك المبنى العالي، كان يكفيني الشعور بمذاق شرائح اللحم ومَرَق اللحم والمكرونة، كذلك ما إن كنت أشمُّ رائحة الفحم الحجري المشتعل حتى أتخيل بداية خدمتي في القطار المصفح، وشتاء العام ١٩١٩، ومدينة سينيلنيكوف المغطاة بالثلج، وجثث الماخنوبين المعلقة على أعمدة التلجراف - تلك الأجساد المتجمدة القاسية، التي تتأرجح في رياح الشتاء وترتطم بخشب الأعمدة مصدرة صوتًا خافتًا أصم - والقرية التي تلوح بلونها الأسود وراء محطة القطارات، وصفير صافرات القاطرات الذي يشبه نداءات الاستغاثة، والسطوح العلوية البيضاء لقضبان السكة الحديدية، غير المفهومة في ثباتها. بدا لي أن هذه القضبان تنطلق مندفعة، وهي ترجف على الموصلات، وكما لو أنها تحكي عن رحلة بعيدة عبر الثلج والقرى السوداء في روسيا، عبر الشتاء والحرب، إلى بلاد غير اعتيادية، تذكر بأحواض سمك زجاجية هائلة، ممتلئة بمياه يمكن تنفُّسها، كالهواء، وموسيقى تؤرجح السطح المائل إلى الخضرة؛ وتحت السطح تهتزُّ سيقان النباتات الطويلة، وخلف ألواح الزجاج تطفو على أوراق زنبق الماء حيوانات لا وجود لها، ولم يكن في مقدوري تصورها، لكني لم أكف عن الشعور بوجودها عندما أحدق إلى قضبان السكة الحديدية وعوارض تكاد لا تُرى بسبب الثلج، شبيهة بألواح خشبية، لسياج مقلوب لا نهاية لطوله. وأنا مدين لإقامتي في القطار المصفح بشيء آخر أيضًا: الشعور بالرحيل الدائم. كانت القاعدة تنتقل من مكان إلى مكان، وتلك الأشياء المحيطة بي دائمًا والجامدة - كتبي، بذلاتي، بضع صور محفورة في الخشب، المصباح الكهربائي فوق رأسي - تبدأ تتحرك فجأة، وأدرك بوضوح، أكثر من أي وقت آخر، فكرة الحركة، والطبيعة الطاغية لهذه الفكرة. إن رغبت في السفر أو لم أرغب فيه، كان المصباح يبدأ بالتأرجح عند المدخل، وتبدأ الكتب تتقافز على الرف، والبندقية القصيرة المعلَّقة على الجدار الخشبي تسعى جيئة وذهابًا، وخلف زجاج النافذة الأرض المغطَّاة بالثلج تدوِّم، والضوء الصادر من نوافذ القاعدة يركض بسرعة، صاعدًا تارة ونازلًا تارة أخرى، مخلفًا وراءه شريطًا طويلًا قائم الزاوية من الأرض، طريقًا من بلدان إلى أخرى. حين كان القطار يزيد من سرعته، عند مغادرته المحطة، كانت تمرُّ أمام النوافذ أرجل المشنوقين الملتوية في سراويل داخلية بيضاء تنفخها الريح مثل أشرعة القوارب التي تدهمها العواصف. مضت، منذ زمن طويل، تلك الشبكة المعقَّدة جدًّا من الأسباب شديدة التنوع - وقد كفَّت عن الوجود إلى الأبد لأنَّ ذاكرة أي أحد لم تحفظها - التي دفعتني في شتاء ذلك العام إلى الالتحاق بالقطار

المصفح والسفر في الليالي إلى الجنوب؛ لكن هذه الرحلة لا تزال مستمرة في داخلي، وربما إلى أن يحين أجلي سوف أشعر من جديد، من حين إلى حين، بنفسي مستلقيًا على السرير المعلق العُلوي في مقصورتي، ومن جديد أمام النوافذ المضاءة، التي تعبر المكان والزمان دفعة واحدة، يمر المشنوقون بسرعة واحدًا تلو الآخر، المحمولون بعيدًا تحت أشرعة بيضاء إلى العدم، ويدوِّم الثلج مرة أخرى، ويسير منزلقًا وهو يتقافز ظلُّ القطار المختفي هذا، الذي يطير عبر سنوات حياتي الطويلة. وربما عدم شعوري دائمًا بالأسف لوقت طويل حيال الأشخاص الذين أغادرهم والبلدان التي أغادرها، ربما هذا الشعور القصير بالأسف كان وهميًّا على هذا النحو فقط لأن كل ما رأيته وأحببته - الجنود والضباط والنساء والثلج والحرب - هذا كله لن يغادرني أبدًا إلى أن يحين أوان رحلتي المميتة الأخيرة؛ السقوط البطيء في العمق الأسود، سقوط أطول أمدًا بمليون مرة من زمن وجودي الأرضي، سقوط طويل إلى حد أنني، بينما أسقط، سوف أنسى هذا كله، ما رأيته، وتذكَّرته، وشعرت به، وأحببته؛ وحين أنسى كل ما أحببت سوف أموت. وأحد أواخر رفاقي الذين سأنساهم هو أركادي سافين. كان أركادي الشخص الوحيد الذي يشبه الناس الذين يعيشون في مخيلتي، وقد جعلَت منه قوةٌ عجيبة في القرن العشرين مستكشفًا ورومانسيًّا ومغنيًا، كأنما استدعت ظله عريض المنكبين من فضاءات القرون الوسطى المظلمة. خدم أركادي معنا وكان يذهب إلى الجبهة مثلنا، لكن كل ما كان يفعله كان استثنائيًّا ومتميزًا. في إحدى المعارك ضد مشاة جيش ماخنو بقي في منصة القطار المصفح شخصان فقط من أصل أربعة عشر شخصًا، وقُتل البقية أو جُرحوا، فتقدم أركادي، بفك معوج ومهروس، وهو يدوس على جثة رامي المدفعية الذي قُطع رأسه - وكان الجسد فاقد الرأس لا يزال يتشنج، وقد غدت أصابعه غير بشرية، وكانت اليدان المنفصلتان لا تزالان تخمشان الأرض - وظلَّ أركادي، الذي تلطَّخت سترته العسكرية بالنخاع البشري، يطلق النار وحده طويلًا من المدفع على الكتلة المتراصة للجنود الماخنويين الذين كانوا يتسلقون الجسر. لم تشبه شجاعة أركادي الشجاعة المعتادة، وتميزت كل أفعاله بالدقة، وبالسرعة الخارقة، وبالثقة؛ وبدا أن إدراكه لتفوُّقه الذي لا يقاس على الآخرين كان يلازمه دائمًا. كانت حركاته في وقت الخطر سريعة، كحركات لاعب خفَّة ياباني أو حركات بهلوان: كان فيه عمومًا شيء ما آسيوي، جزء من تلك القدرة الروحية الخفية التي يتمتع بها أبناء العرق الأصفر، والتي يتعذر على البيض بلوغها. إضافةً إلى ذلك كان أركادي ثقيل الوزن وعريض الجسم. لم يستطع الضباط أن يغفروا له تلك السخريات المزدرية التي كان يُرفقها بأوامرهم الفاشلة في أثناء المعركة. عندما توجه القطار المصفح إلى الجبهة، وأخذت المنصة، التي تزن بضعة آلاف من البودات، تنزلق بلا هوادة على قضبان السكة الحديدية، وهي تهتز وتلعلع، بدت لي قامة أركادي، الذي كان واقفًا في المقدمة وينظر أمامه - مع أنه لم يكن هناك ما هو غير

متوقَّع وغير اعتيادي في وقفته تلك - نصبًا كئيبًا على آلة الحرب. هكذا كان يبدو لي في الجبهة. في المؤخرة كان يصبح شخصًا آخر.

كان يحب كثيرًا أن يتأنَّق في ملبسه، وكان يشرب كثيرًا، ويذهب دائمًا إلى المدينة أو القرية التي تستقر القاعدة على مقربة منها؛ وكان دويُّ صوته الجهوري القوي يوقظنا في الليل؛ فقد كان يغني دائمًا عند عودته. كان غناؤه جيدًا جدًّا بشكل عام؛ كان يعرف ما هي الموسيقى حقًّا. يجلس في المقصورة، بوجه يميل إلى الشحوب ورأسه مائل على صدره، دقائق طويلة جامدًا تمامًا، وبعد ذلك يملأ صوته الصدري العميق العربة، وبعد دقيقة أكفُّ عن رؤية جدران العربة مع البنادق المعلقة عليها، والكتب، والمصابيح، ورفاقي، كأنما لم يكن لها ولهم وجود قَطُّ، كأن كل ما عرفته حتى الآن كان خطأً رهيبًا، وليس من شيء في الوجود سوى هذا الصوت، ووجه أركادي الأبيض بعينيه الضاحكتين، مع أنه كان يغني دائمًا أغنيات حزينة فقط. وحينذاك كنت أفكر أنه ليست هناك أغنيات حزينة رديئة، وإن كانت هناك كلمات رديئة في أغنيات أخرى، فهذا لأني لم أقدر على فهمها؛ لأني عندما أسمع أغنية ساذجة لا أقدر على الاستسلام لها كليًّا ونسيان تلك العادات الجمالية التي خلَّفتها فيَّ تربيتي؛ تلك التربية التي لم تعلِّمني فن نسيان الذات الثمين. غالبًا ما غنى أركادي أغنيات رومانسية، وهي الأغنيات التي كان يمكن لشكل قصائدها أن تثير لديَّ في وقت آخر الابتسام وحسب؛ لكني لو استطعت ملاحظة عيوب هذا الشكل في أثناء غناء أركادي لأصبحت أكثر تعاسة بألف مرة مما كنت. هذه الأغنية الرومانسية لم أسمعها بعد ذلك في أي مكان ولا من أي أحد:

أنا وحيد، والزمن يمرُّ مسرعًا.
تطير الأيام، والأسابيع والأعوام.
تراودني السعادة فقط في المنام،
لكني لا أراها في يقظة الأيام.
قاربي المرتحل سيختفي قريبًا
في بحر الحياة، قريبًا جدًّا.
استمع إلى عتابي أخيرًا،
وستفهم كم كنت وحيدًا.
استمع إلى عتابي أخيرًا،
وستفهم كم كنت وحيدًا.

كان الجنود والضباط والنساء العاملات في القطار المصفح يجتمعون تحت نوافذ العربة. في الصيف يغني أركادي في المساءات، وصوته يغرق في الصمت البعيد والحار للهواء المظلم. غنى أركادي هذه الأغنية في تلك الأيام، عندما ازرقت أمامنا بحيرات منطقة سيفاشا الصغيرة في أثناء تراجعنا الأخير: كنا مسافرين من إقليم تافاريا وغنى أركادي عن القارب طوال

الوقت، وهو واقف أمام النافذة، وكان القطار يهدر، وعجلاته الحديدية تَصرُّ وتختفي في سحابات الغبار الوخاز، وقباب بدينة لكنيسة ما إن تختفي تارة حتى تظهر أمامنا من جديد.

كان أركادي غالبًا ما يرى أحلامًا؛ وقبل فترة وجيزة من هذا التراجع حلم بحورية بحر: كانت الحورية تبتسم، وتضرب الماء بذيلها، وتسبح بجواره ملتصقة به بجسدها البارد، وحراشفها تتلألأ بضوء مبهر. تذكرتُ حلم أركادي هذا عندما، في الهزيع الأخير من الليل، رأيت في ميناء سيفاستوبول زورقًا بخاريًّا يمخر عباب أمواج البحر الأسود المائلة إلى الزرقة، متوجهًا نحو طراد إنجليزي هائل الحجم كان راسيًا في فُرْضة عند مدخل الميناء، وكانت المياه تعلو في إثر الزورق مشكِّلة كثيبًا مائيًّا متلألئًا، وشعرت فجأة بأن ضحكًا يكاد لا يُسمع يتناهى إليَّ عبر هذا الزبد، وتراءى لي وميض لا يُحتمل يبرز في زرقة البحر الداكنة.

سافر القطار المصفح سنة كاملة على قضبان السكك الحديدية عبر تافاريا والقرم، مثل وحش أنهكته المطاردة ومحاط بالصيادين من كل الجهات. كان القطار المصفح يغيِّر مساره، ثم يمضي قُدُمًا، ثم يعود من حيث أتى، وبعد ذلك يتجه يسارًا، لينطلق بعد قليل من الوقت إلى الخلف مرة أخرى. في الجنوب كان البحر ينبسط أمامه، وفي الشمال تقطع روسيا المسلَّحة عليه الطريق. أما من حوله فكانت البراري تمرُّ سريعًا أمام نوافذه؛ برارٍ خضراء في الصيف وبيضاء في الشتاء، لكنها مقفرة ومعادية دائمًا. ذهب القطار المصفح إلى كل مكان، وفي الصيف وصل إلى سيفاستوبول. كانت تمتد على الأرض طرقات كلسية بيضاء، وتتكدس على الشواطئ جبال طينية، وقد انتصبت فوق البحر، وكانت بطات بحرية صغيرة تطير ثم تهوي في الماء باندفاع. في المرافئ المهجورة كانت تقف سفن حربية مدرعة صدئة، وفي العمق بالقرب منها كانت تتقافز أفراس البحر، وفي قيعانها سرطانات الماء تتحرك جانبيًّا، وأسماك زجاجية تسبح وتطفو، كأنها عمياء، وعند الحُفر المظلمة في الأرض تحت الماء تقف أسماك الجوبي من دون حراك. كان الجو شديد الحرارة ويلفُّه الصمت؛ وشعرت بأن إلهًا شفافًا يحتضر في الهواء الساطع، في هذا الصمت الشمسي، فوق البحر الأزرق.

في ذلك الزمن كنت أشعر بأن الحياة تجري في ثلاثة بلدان: في بلد الصيف والسكون وقيظ سيفاستوبول الجيري؛ وفي بلد الشتاء والثلج والعواصف الثلجية؛ وفي بلد حكايتنا الليلية، والهواجس والمعارك ودوي الأبواق في الظلام والبرد. كانت الحياة في كل بلد من هذه البلدان الثلاثة مختلفة، وعند انتقالنا من بلد إلى بلد كنا نحمل البلدَين الآخرين معنا؛ في الليل البارد، بينما كنت أقف على أرضية القطار المصفح الحديدية، كنت أرى أمامي البحر والجير؛ وفي سيفاستوبول كان بريق الشمس، المنعكس على زجاج غير مرئي، ينقلني في بعض الأحيان إلى الشمال فجأة. لكن ما لم يكن يشبه شيئًا مما عرفت حتى ذلك الوقت كان بلد الحياة الليلية. أتذكر كيف كان أزيز الرصاص الكئيب والممدود يطير فوقنا ببطء ليلًا؛ وكان طيران الطلقة

بسرعة هذا، وانزلاق صوتها بهذا الشجن الحزين وهذا التمهُّل، يجعلان انتعاش الهواء غير الإرادي هذا كله - حركة الأصوات المضطربة وغير الواثقة هذه في السماء - غريبًا بصورة خاصة. كان يتناهى إلينا أحيانًا من القرية صوت ناقوس الخطر السريع، ونرى سُحبًا حمراء، إلى أن تضيء ألسنة النار الأشخاص غير المرئيين في الظلام، إذ يهرع الناس راكضين من البيوت في هلع يماثل الهلع الذي يركض به بحارة سفينة انخرقت في عرض البحر، بعيدًا عن الشطآن. كثيرًا ما كنت أفكر في المراكب آنذاك، كأنني أتعجَّل عيش هذه الحياة التي قُدر لي أن أعيشها لاحقًا، عندما كنا نترنَّح صعودًا ونزولًا على متن باخرة، في البحر الأسود، في منتصف المسافة بين روسيا ومضيق البوسفور.

كانت هناك أشياء كثيرة غير قابلة للتصديق في الاتحاد المصطنَع لمختلف أنواع البشر الذين كانوا يطلقون النار من المدافع والرشاشات: منهم من يتنقلون عبر أراضي جنوب روسيا، وهم يرمحون على صهوات الخيول، أو يتأرجحون في القطارات، يُقتلون، تدهسهم عجلات مدفعية متقهقرة، أو يحتضرون وأجسادهم تنتفض، وفي أثناء احتضارهم يحاولون بلا جدوى أن يملأوا الفضاء الواسع للبحر والهواء والثلج بمعانٍ إلهية تخصهم. والجنود الأكثر بساطة هم الوحيدون الذين كانوا يبقون في هذا الموقف نفس «الإيفانوفات» و«السيدَروفات» المتأملين والمتبطلين السابقين، وهؤلاء الأشخاص كانوا يعانون، أكثر من الآخرين جميعًا، من عدم صوابية ما يجري، وعدم طبيعيته، وكانوا يهلكون أسرع من الآخرين. هكذا هلك، على سبيل المثال، حلاق القطار المصفح كوستيوجنكو، وكان جنديًّا يافعًا، وسكيرًا، وحالمًا. كان يصرخ في الليالي، إذ يحلم دائمًا بالحرائق والخيول والقاطرات التي تسير على عجلات مسننة. كان يمضي نهارات كاملة، من الصباح إلى المساء، في شحذ موسى حلاقته، وهو يصيح ويضحك بينه وبين نفسه. بدأ الآخرون يتجنبونه. ذات يوم، بينما كان يحلق صباحًا لقائد القطار المصفح، الذي كان يُفترض بالجنود عدم التكلم في حضوره، أخذ كوستيوجنكو فجأة يغني لحنًا راقصًا سريع الإيقاع يتضمن أصواتًا تتقطع فجأةً، وهي الأصوات التي تميز بعضًا من أغنيات الجنود:

«أوي»، «أوي»!

لمَّا دنوتُ من خمَّارة

رأيتُ امرأة نائمة،

على جنبها.

غنى بصوت عالٍ جدًّا من دون أن يتوقَّف عن حلاقة خدَّي القائد - اللذين احمرَّا فورًا - بحركاته الآلية المعتادة. بعد ذلك وضع موسى الحلاقة جانبًا، ووضع إصبعين من أصابعه في فمه وأطلق صفيرًا حادًّا، ثم تناول الموسى ثانية وشق بها ستارة النافذة. أخرجوه من مقصورة

القائد، ولوقت طويل لم يعرفوا ماذا يفعلون به، ثم قرروا أخيرًا: دفعوه إلى داخل عربة بضائع فارغة في أحد القطارات التي لا تحصى، التي كانت تنقل، لا أحد يدري لماذا وإلى أين، جثث الجنود الموتى من التيفوس، والأجساد المتقافزة للمرضى الذين لم يتسنَّ لهم بعد أن يموتوا. كان المرضى يستلقون على القش، والأرضية الخشبية كثيرة الشقوق ترحل معهم وهي ترتجُّ، وأيًّا تكن وجهة القطار كانوا يموتون في كل الأحوال، وبعد بضعة أيام من السفر كانت أجساد المرضى تؤدي فقط تلك الحركات التي تحدث جراء اهتزازات القطار، كما قد يحدث لجثث الخيول المقتولة أو الحيوانات النافقة. وهكذا وضعوا كوستيوجنكو في عربة فارغة، ولا يعلم أحد ماذا حدث له بعد ذلك. كنت أتخيَّل عينيه اللامعتين في عتمة عربة البضائع المدفأة المغلقة بإحكام، وحالة عقله المبهَم التي لا تدرَك، وإدراكه الذي يومض وميضًا خافتًا في مكان بعيد، ذلك النوع من الإدراك الذي لا نجده إلا عند المجانين. لكن حادثة كوستيوجنكو كانت الحادثة الأخيرة في فترة وجودنا في منطقة قريبة من خطِّ الجبهة، لأننا، بعد شتاء طويل، والمرايا الجليدية الزرقاء لبحيرة سيفاشا، وهذا المظهر الدائم للجسر الترابي ذي العوارض السوداء، انتقلنا من الأضواء الحمراء لأعمدة الإشارة، ومن المضخات البطينة ذات المياه القارسة، التي كنا نراها عندما أمضينا أيامًا وأسابيع نقترب «من مشارف القرم»، وبعد مدينة جانكوي التي توقفت فيها قاعدتنا طويلًا، توجهنا إلى عمق البلاد. مكثنا طويلًا في جانكوي ببيوتها الداكنة، حيث استقرت ميسالينات(37) الضباط اللواتي أصبحن بلا أزواج منذ زمن بعيد، وقدِمن إلينا في عربات القطار ليشربن الفودكا، ويأكلن شرائح اللحم المجلوبة من مقصف محطة القطار، وبعد أن يشبعنَ يتحركن بلا توقف على مقاعد المقصورة بلهفة منهكة وهنَّ يحزقن، ويفكِّكن أزرار أثوابهنَ الرثة بحركات سريعة غير ملحوظة، وبعد ذلك يبكين أو يصرخن من الشهوة، وبعد دقيقتين يبكين ثانية، لكن بدموع رقيقة أكثر شفافية هذه المرة، ويتحسَّرن «على الماضي» حسب قولهن؛ وكانت حسرتهن تلوِّن فجأة حياتهن السابقة الخامدة في الريف، والزواج بنقيب في سلاح المشاة، سكير ومقامر، بألوان بهيجة لا مثيل لها؛ وكان يبدو لهن أنهنَّ لم يفهمن آنذاك سعادتهن الفقيرة، ولا أن حياتهن تلك كانت جيدة وهانئة؛ لكنهن لم يتقن، بالمناسبة، فن التذكر، وكان جميعهن يحكين، مستعملات الكلمات نفسها، كيف مشين وهنَّ يحملنَ شموعًا مشتعلة في ليلة عيد الفصح وكيف كانت الأجراس تُقرَع. قبل الحرب والقطار المصفح لم أكن قد رأيت نساء كهؤلاء قَطُّ. كن يستعملن كلمات وعبارات عسكرية في كلامهن، ويتصرَّفنَ بوقاحة، خصوصًا بعد أن يُشبِعن جوعهن، فيضربن أكفهن بأكف الرجال ويغمزنهم. كانت معارفهن شحيحة للغاية؛ وقد جعلهن الفقر الروحي المخيف، والفكرة المبهمة أن حياتهن كان عليها أن تمضي على نحو مختلف، مستهترات؛ وكن أكثر شبهًا بالمومسات على طريقتهن، لكن مومسات مع ذكريات. امرأة واحدة فقط من هاته النساء - اللواتي لا

يمكنني فصلهن عن قطيفة الأرائك المخملية القذرة، ومصابيح الكاز لشوارع مدينة جانكوي، وشرائح سمك الرنجة المخللة جيدًا، التي تُقدَّم مع النبيذ والفودكا - لم تشبه صديقاتها، وكان اسمها «يليزافيتا ميخائيلوفنا». كان يصادف دائمًا أن تأتي عندنا حين أكون نائمًا؛ تأتي إما نحو الساعة التاسعة صباحًا وإما قرابة الساعة الثانية ليلًا. كانوا يوقظونني ويقولون: «استيقظ، هذا غير لائق، لقد حضرت يليزافيتا ميخائيلوفنا»، وكان الجمع بين هذين الاسمين يوقظني لحظة؛ وبعد مرور بعض الوقت أصبحت يليزافيتا ميخائيلوفنا رفيقة أحلامي الخفية: أسمع اسم «يليزافيتا ميخائيلوفنا»، وأنام، ثم أسمع ثانيةً: «يليزافيتا ميخائيلوفنا». حين أفتح عينَي أرى امرأة نحيلة، ليست طويلة القامة، لها فم أحمر كبير وعينان ضاحكتان؛ وعلى جلد وجهها المائل إلى الصفرة يبدو كأنما شرارات زرقاء ترقص. كانت تشبه النساء الأجنبيات. ما كنت لأعرف عنها شيئًا قَطُّ لولا أني سمعت ذات يوم، بينما كنت أستيقظ، حديثها مع أحد زملائي في الخدمة، المتخصص في اللغويات لافينوف. كانا يتحدثان عن الأدب، وكانت هي تقرأ أشعارًا بترنُّم، وكان واضحًا من صوتها أنها جالسة وتتأرجح. كان لافينوف الشخص الأكثر ثقافةً بيننا: أحَب اللغة اللاتينية، وكثيرًا ما قرأ لي مذكرات يوليوس قيصر، وكنت أستمع إليه من باب اللياقة، لأني درستها قبل فترة وجيزة في المدرسة الثانوية، ووجدتها مملة وغير ممتعة، مثل كل ما كنت مجبرًا على دراسته؛ لكن اجتمع عند لافينوف حبه للغة يوليوس قيصر الإيجازية والدقيقة مع ولعه بشعر كورولينكو الغنائي الكئيب، وحتى بعض من قصص كوبرين. غير أنه كان يحب أدب جارشين أكثر من أي شيء آخر. لكنه، بصرف النظر عن هذه الذائقة الأدبية الغريبة، كان يفهم كل ما يقرأ بصورة رائعة، وفهمه كان يفوق قدراته العقلية، الأمر الذي كان يضفي على حديثه نوعًا خاصًّا من عدم الثقة؛ أما معارفه فكانت واسعة جدًّا. كان يتكلم بصوته الخافت: «انظري كيف يخرج الأمر يا يليزافيتا ميخائيلوفنا. ليس بصورة جيدة»، «نعم، ليس بصورة جيدة». يستمر حديثهما على هذا النحو وقتًا طويلًا، وكلُّه عما إذا كان الأمر جيدًا أم غير جيد؛ كأنما لم تكن لديهما كلمات أخرى. لكن يليزافيتا ميخائيلوفنا لم تكن تغادر، وكان يُسمَع في نبرة صوتها أنَّ شيئًا مهمًّا يحدث داخلها كلما قال لافينوف: «جيد» أو «غير جيد»؛ شيء لا علاقة له مطلقًا بهذا الحديث، لكنه بالأهمية نفسها بالنسبة إليها وإلى لافينوف. هكذا يحدث عندما يغرق أحدهم، وتظهر فقاعات على سطح الماء فوقه؛ والشخص الذي لم يرَ الغريق سوف يلحظ الفقاعات فقط ولن يعطيها أي أهمية، في حين أنَّ إنسانًا يغرق ويحتضر تحت سطح الماء، ومع الفقاعات تخرج حياته كلها، مع جملة من الأحاسيس والمشاعر المرفقة بالأسى والحب. الأمر نفسه كان يحدث ليليزافيتا ميخائيلوفنا: كانت عبارتا «جيد» و«غير جيد» الفقاعات الظاهرة على سطح الحديث وحسب. بعد ذلك سمعتها ذات مرة تبكي، وسمعت لافينوف يكلمها بصوت راعش؛ ثم غادر كلاهما. لم تأتِ إلينا

بعد ذلك قَطّ، وفقط قبل فترة قصيرة من رحيلنا رأيتها برفقة لافينوف في محطة القطار؛ كنت جالسًا خلف الزجاج قبالتهما أتناول طعام الغداء، وعندما أكلت الفطيرة الرابعة ضحكت يليزافيتا ميخائيلوفنا وقالت موجهة كلامها إلى لافينوف:

- هل لاحظت أن شهية زميلك النوَّام تكون رائعة عندما يستيقظ؟

كان لافينوف ينظر إليها بعينين زجاجيتين من السعادة، ويجيب عن أسئلتها كلها بالموافقة. كانت ملابس يليزافيتا ميخائيلوفنا نظيفة، ومظهرها واثقًا وراضيًا. وفي تلك اللحظة، حين بدت سعيدة، شعرتُ بالأسف، كأنما كان سيكون أفضل لو أنها ظلت كسابق عهدها، عندما كنت أراها عبر غشاوة النوم، أستيقظ وأغفو وأسمع هذا الجمع بين الاسمَين: «يليزافيتا ميخائيلوفنا»؛ إنه لم يكف عن أن يكون اسمًا لامرأة، لكنه أصبح بالنسبة إليَّ إحدى حالاتي الخاصة، المتموضعة بين فضاءات النوم المظلمة وقطيفة الأرائك الحمراء التي كانت تظهر أمامي ما إن أفتح عينَي.

بعد مدينة جانكوي وفصل الشتاء كانت تنبثق في ذاكرتي مدينة سيفاستوبول التي يغطيها غبار حجري أبيض والخضرة الساكنة لمتنزَّه بريمورسكي ورمل دروبه الساطع. كانت الأمواج ترتطم ببلاطة رصيف المرفأ، وعند تراجعها تُعرِّي الصخور الخضراء التي تنمو عليها الطحالب والأعشاب البحرية؛ تتمايل الأعشاب في الماء عاجزة، وسيقانها المتهدلة تشبه أغصان شجرة الصفصاف. في المرفأ المهجور كانت تقف سفن حربية مدرعة، ومنظر البحر الطبيعي الأبدي، وصواري السفن، والنوارس البيضاء، تعيش وتتحرك كما في كل مكان حيث يكون بحرٌ ومرسى ومراكب، وحيث تنتصب الآن خطوط المنازل الحجرية، المبنية على المساحة الرملية الصفراء التي انسحب منها المحيط. شعرنا في سيفاستوبول، أكثر من أي مكان آخر، بأننا نعيش الأيام الأخيرة لوجودنا في روسيا. كانت السفن البخارية ترسو وتنطلق مبحرة، والبحارة الإنجليز والفرنسيون يغادرون الشواطئ، وتختفي مراكبهم في البحر. وبدا أن العودة إلى روسيا من هناك مستحيلة؛ بدا أن البحر كان دائمًا مدخلًا إلى وطننا، الذي يقع بعيدًا عن هذه الأمكنة، على خارطة البلدان الاستوائية بأشجار مستقيمة وأرض خضراء مستوية مربعة الشكل؛ وما كنا نعتبره موطننا - قيظ جنوب روسيا الجاف، والأراضي عديمة المياه والبحيرات الآسيوية المالحة - لم يكن سوى أضلولة. ذات يوم قتلتُ طائرًا من طيور الغطَّاس بالبندقية، فتأرجح على الأمواج طويلًا وبدا أنه سرعان ما يطفو مقتربًا نحو الشاطئ، لكن التيار الشاطئي حمله بعيدًا من جديد، ولم أغادر الشاطئ إلا بعد أن حل الظلام ولم يعد طائر الغطَّاس مرئيًّا. بمثل هذا العجز كنا نحن أيضًا نتقلقل على سطح الأحداث، وقد حملتنا أبعد فأبعد، إلى أن بات علينا، بعد مغادرة حقل جاذبية روسيا، أن نقع في مجال مؤثرات أخرى، أكثر أبدية، ونبحر بعيدًا عن القرم، من دون رومانسية ومن دون أشرعة، على متون

بواخر سوداء تعمل على الفحم، جنودًا مهزومين، وقد تحولوا إلى أناس جياع في أسمال بالية. لكن هذا حدث في فترة متأخرة بعض الشيء؛ أما في ربيع وصيف العام ١٩٢٠ فكنت أجول في سيفاستوبول، أرتاد المقاهي والمسارح وتلك «الأقبية الشرقية» المدهشة، حيث كانوا يقدِّمون فطائر اللحم واللبن الرائب، وحيث كان أرمن سُمر ينظرون، بهدوء خارق، إلى الدموع الثملة للضباط الذين يعبون خلائط كحولية مرعبة وينشدون بأصوات غير واثقة نشيد «احفظ القيصر يا رب»، الذي كان يبدو غير لائق وذا إيقاع حزين في الوقت نفسه، بعد أن مرَّ زمن طويل على فقدانه معناه، وكان يتردد بصوت خافت في القبو الشرقي، إلى حيث تدحرجت، من ثكنات بطرسبورج، العظمة الموسيقية لإمبراطورية تتهاوى: كانت تلك العظمة تتزلق على الجدران المسودة من الدخان، وتستقر بين الصدور الجورجية في لوحات تُصور حسناوات عاريات، بأرداف عريضة وأعين كأعين الأفراس، والخيوط الخشبية المستقيمة استقامة غير اعتيادية لدخان التبغ الخارج من نرجيلاتهن. امتلأت سيفاستوبول بحزن الريف الروسي كله، بسوداويته الأبدية كلها. في المسارح كانت الفنانات الأوديسيات، بأسمائهن الأرستقراطية المستعارة، يغَنين بأصوات خفيضة أغنيات عاطفية كان لها وقع حزين جدًّا، بصرف النظر تمامًا عن معاني كلماتها، وكانت تَلقى نجاحًا كبيرًا. رأيت الدموع في أعين أشخاص غير حسَّاسين عادةً؛ أشخاص، إذ حرمتهم الثورة من منازلهم وعائلاتهم ومآدب غداءاتهم، منحتهم فجأةً إمكانية الحسرة العميقة، وحررتهم وهلةً من القشرة الحربية الفظة التي تغطي حساسيتهم الروحية المنسية منذ زمن بعيد، المفقودة منذ زمن بعيد. بدا هؤلاء الناس كأنما يشاركون في سيمفونية حزينة صامتة من السيمفونيات التي تُعزَف في المسارح؛ لقد رأوا لأول مرة أن لديهم سيرة ذاتية، وقصة حياة، وسعادة مفقودة قرأوا عنها سابقًا في الكتب فقط. وكان البحر الأسود يتمثل لي كحوض هائل تصبُّ فيه أنهار بابل، وتبدو تلال سيفاستوبول الطينية كأنها حائط المبكى العتيق. كانت موجات الهواء الحار تتدحرج عبر المدينة، وفجأة تقرر الريح أن تهب، مصعِّدة تموجًا خفيفًا على سطح المياه، ومذكِّرةً مرة أخرى بالرحيل المحتوم. كنا قد بدأنا نتحدث عن جوازات السفر، وشرعنا نوضِّب أمتعتنا، لكن بعد فترة وجيزة أُرسل القطار المصفح إلى الجبهة من جديد، وذهبنا إلى الجبهة ونحن نرنو إلى البحر، وغصنا في أنفاقٍ سوداء، وعدنا مرة أخرى إلى أراضي روسيا المعادية، تلك التي نجونا منها بصعوبة في الشتاء السابق. كان هذا الهجوم الأخير للجيش الأبيض، ولم يستمر طويلًا، وسرعان ما أخذت القوات تفر إلى الجنوب مرة أخرى عبر الطرقات التي يغطيها الجليد. في تلك الأشهر عناني مصير الجيش بدرجة أقل مما كان يعنيني سابقًا، ولم أعد أفكر فيه. سافرت على منصة القطار المصفح، مارًّا بحقول محروقة وأشجار صفراء؛ مارًّا بأحراج تشيِّع قضبان السكة الحديدية؛ وفي الخريف أرسلوني في مأمورية إلى سيفاستوبول، وكانت قد

تغيرت قليلًا لأننا أصبحنا في بداية شهر أكتوبر. هناك كدت أغرق، عندما أبحرت على متن زورق متهالك من الجهة الشمالية للخليج إلى جهته الجنوبية، في أثناء هبوب عاصفة بحرية، وبعد أن مكثت في سيفاستوبول بضعة أيام انطلقتُ عائدًا إلى القطار المصفح الذي كان لا يزال في مخيلتي بالصورة التي تركته فيها. في الواقع كانت فصائل الجيش الأحمر قد استولت عليه منذ زمن، وقاعدته أيضًا صارت في حوزتهم، وقيادته فرت، وتمكن نحو ثلاثين جنديًّا وضابطًا فقط، بطريقة ما، من التراجع مع بقية القوات، حيث انحشروا جميعًا في عربة قطار مدفأة وراحوا يرتجفون فيها وهم يرنون بنظرات زائغة إلى الجدران الحمراء، ولم يكونوا قد استوعبوا تمامًا أن القطار المصفح لم يعد له وجود الآن، ولا الجيش، وأن مُنشِّننا الأفضل، تشوب، قد قُتل، وأن فيليبينكو، الذي قُطعت رجله، أيضًا قُتل، وأن فانيا البَحار، الذي كان يجيد كثيرًا إطلاق شتائم مبتكرة، وقع في الأسر، وأن قسم التموين بالكامل - القسم الذي يرأسه الجندي في سلاح المدفعية ميخوتين - بما في ذلك ديك رومي، وخنزير حي، والعجول والخيول، لم يعد كذلك في هيئته الحيوانية الرائعة التي اعتادها. وكان لابشين - أحد رفاقي، الذي لم يفارق آلة المندولين الخاصة به حتى في عربة القطار المدفَّأة، وكان يعزف «المسير الجنائزي» تارة وأغنية «يابلوجكا» تارة أخرى - يقول بغير اكتراث: «إذا كان الديك الرومي والخنزير قد هلكا، إذ لم يحتملا انعطافة عجلة التاريخ هذه، فهذا بالنسبة إلينا تحصيل حاصل... ليس لنا إلا أن نرحل أبعد فأبعد»...

لم يرغب كثيرون في التقهقر، وظلوا في روسيا: منهم من توجه عائدًا إلى الشمال والتحق بالجيش الأحمر، وفي أحد القطارات التي صادفوها قادمة في الاتجاه الآخر رأوا جريشا فَرَبيوف معتمرًا قبعة من قبعات عمال السكك الحديدية ذات القمة الحمراء؛ كان القطار يسير ببطء؛ فهدد فَرَبيوف بقبضته وصرخ بصوت ممدود:

- أوباش! أوباش!

كأنما كان يبحر في طوف، معوِّمًا أخشابًا عبر النهر وزاعقًا بصوته كما ينبغي للمرء أن يزعق عندما يطوف في نهر أو بحيرة.

توقَّف القطار، الذي كنتُ مسافرًا فيه لملاقاة القوات المتقهقرة، في محطة صغيرة ولم يذهب أبعد. لم يعلم أحد سبب توقف القطار. ثم تناهى إليَّ حديث أحد الضباط مع قائد القطار. كان الضابط يتكلم بسرعة:

- لا، قل لي لماذا نحن واقفون، لا، أنا أسألك، لأي سبب لعين توقفنا هنا؟ لا، اعلم أني لا أحتمل هذا، لا، أجبني...

أجاب صوت ثانٍ:

- متابعة السفر ممنوعة: الحمر موجودون لدينا في المؤخرة.

- المؤخرة ليست أمامنا. لو كانت في الأمام لكانت متابعة السفر عندئذٍ غير ممكنة بالفعل. لكن ليس علينا التحرك إلى الخلف، ليس في اتجاه المؤخرة، افهم، تبًّا...

- لن أسيِّر القطار.

- ولماذا؟

- الحمر في المؤخرة.

بعد ذلك سمعت شتائم عنيفة جدًّا، ثم قال قائد القطار بصوت باكٍ:

- لا يمكنني السفر، فالحمر في المؤخرة.

وأخذ يكرِّر هذه العبارة لأنه كان خائفًا إلى حد الموت، وبدا له أنه، أينما توجه، ففي كل مكان ينتظره المصير نفسه: لقد كَف عن الفهم، لكنه حَرَنَ، من دون وعي، مثل الحيوان الذي يشدونه بحبل. هكذا لم يتحرك القطار إلى أي مكان. انتقلتُ إلى عربة من عربات القطار المصفح الخفيف «ياروسلاف مُودري» الذي كان واقفًا في المحطة نفسها. وبما أنني لم أنم ليلتين قبل ذلك، فقد غفوت فورًا ما إن استلقيت في السرير المعلق. رأيت في المنام يليزافيتا ميخائيلوفنا، وكانت قد تحولت إلى امرأة إسبانية تحمل صنوجًا رنانة. كانت ترقص، عارية تمامًا، على وقع موسيقى صاخبة بصورة غير اعتيادية، تعزفها فرقة موسيقية، ووسط ضجة هذه الموسيقى كان الأعلى من الأصوات الأخرى كلها صوت زئير عميق لآلة كونترباص وأصواتًا حادة عالية لبوق. أصبحت الضجة غير محتملة، وحين فتحت عينَي سمعت قهقاع دُب مدجَّنٍ، كان يجر سلسلته الطويلة على الأرض، ويتحرك سريعًا في العربة جيئة وذهابًا، ويتوقف عن الحركة أحيانًا ويبدأ بالترجرج من جانب إلى آخر. لم يكن في العربة أحد غيرنا، أنا والدب وفلاحة تضع منديلًا على رأسها، وقد وجدت نفسها هنا لا يعلم أحد كيف ولماذا، ولخوفها الشديد كانت تصرخ وتبكي بصوت عالٍ. كان الفجر قد بدأ ينبلج توًّا. صلصل الزجاج وتناثر، ودوت الريح: كانت قاعدة القطار المصفح تتعرَّض لإطلاق نار عنيف من الرشاشات. قالت الفلاحة وهي تبكي:

- قوات بوديوني(38)! قوات بوديوني!

ليس بعيدًا عن مكان وقوفنا كانت مدافع من عيار ستِّ بوصات عائدة لبطارية البحرية تقصف بشدِّة، ردًّا على قصف مدفعية تابعة للجيش الأحمر. خرجتُ إلى منصة عربة القطار ورأيت، على بُعد نصف فِرست من القاعدة، الكتلة الرمادية لخيالة بوديوني. كان الهواء ممتلئًا بالأزيز واللعلعة جرَّاء إطلاق النار. سُمع على مقربة صوت طيران قذيفة متوسطة العيار، ومن صوتها كان من السهل تحديد أنها سوف تُصيب عربتنا أو العربة المجاورة، ولذلك، ما إن سكتت المرأة، خاضعة بلا وعي منها لشعور الصمت الروحي والجسدي الذي يسبق لحظة وقوع حادثة مخيفة، أدركتُ أنها - من دون أن تعرف شيئًا عن النغمات المختلفة لأزيز القنابل، التي يدرك المدفعيون من خلالها المكان التقريبي الذي سيحدث فيه الانفجار - شعرت بخطر مرعب يتهددها. لكن القذيفة أصابت العربة المجاورة لعربتنا، وكانت ممتلئة بضباط

جرحى، وتصاعدت منها فورًا موجة كاملة من الصرخات، كما يحدث في حفلة موسيقية عندما يغرز قائد الأوركسترا فجأةً، بحركة سريعة، عصاه الرفيعة في الجناح الأيمن أو الأيسر للفرقة، فتعلو من هناك حالًا نافورة كاملة من الأصوات والضجيج واختلاجات الأوتار. كانت المدافع من عيار ستِّ بوصات تُرسل بلا توقف القذيفة تلو القذيفة لتسقط مباشرةً وسط كتلة البشر والخيول السوداء، وكانت تلوح في أعمدة الغبار التي تتصاعد جرَّاء الانفجارات قطعٌ سوداء.

كنت واقفًا على منصة العربة، أنظر أمامي وأتجمد في صقيع درجة الحرارة البالغة ستَّ عشرة درجة تحت الصفر، وأحلم بمقصورة دافئة في قاعدة قطاري المصفح، وبمصباح كهربائي، وكتب، وحمَّام ساخن، وسرير دافئ. كنت أعلم أن الجزء الذي أنا فيه من القطار محاط بخيالة بوديوني ومقطوع عن بقية القطار، وأن هناك من القذائف ما يكفي بضع ساعات أخرى، وأننا عاجلًا أو آجلًا، لكن ليس أبعد من مساء هذا اليوم، سنكون قتلى أو أسرى. كنت أعلم هذا جيدًا، لكن الحلم بالدفء والكتب والملاءات البيضاء شغلني إلى درجة أني لم يبقَ لديَّ وقت للتفكير في أي شيء آخر؛ بالأحرى كان هذا الحلم ألذ وأروع من بقية الأفكار كلها، ولم أستطع مفارقته. مطر الانفجارات الأسود ومختلف الأصوات، بدءًا من احتكاك الرصاصات الجاف بالحجارة والصوت المطاطي المرِن لقضبان السكة الحديدية وعجلات عربات القطار وصولًا إلى الأصوات الخافتة لدوي إطلاقات المدافع والصرخات البشرية، اتَّحد هذا كله في ضجة واحدة، لكن من دون أن يمتزج، وكانت كل سلسلة من هذه الأصوات تعيش كينونتها المستقلة، وقد استمر هذا كله من الصباح الباكر إلى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر. كنت أعود أدراجي إلى داخل العربة، ثم أخرج منها ثانيةً، ولم أستطع أن أتدفَّأ، ولا أن أغفو، وأخيرًا رأيت في الأفق نقاطًا سوداء أخذت تقترب من ميدان القتال. صرخ أحدهم:

- الجيش الأحمر! إنها النهاية!

لكن مع ذلك ظلت المدافع والرشاشات تطلق النار بلا انقطاع، وكان إطلاق النار يخمد من حين إلى حين مثل الوابل القوي الذي يستأنف انهماره عند أول نفخة ريح. مرَّ بجواري عدة مرات ضابط كبير السن بوجه باكٍ، وكان عقيدًا في هيئة الإمداد والتموين، غير عارفٍ، فيما يبدو، أين يذهب ولماذا. انسلَّ أحد الجنود تحت عربة القطار وأخذ يلف لفافة تبغ بأصابع مزرقة من البرد، أطلق بعد ذلك مباشرةً سحابة كاملة من دخان تبغ عجمي حاد الرائحة. قال لي وهو يبتسم حين انحنيت لأنظر إليه:

- هنا، يا أخ، لن تدركني طلقات الرصاص.

وفجأة بدأ وطيس المعركة يضعف، وأصبح إطلاق النار أندر. بدأ الخيالة يتحركون من جهة

الشمال. حين تسلقت إلى سطح القطار رأيت الخيول والفرسان بوضوح: سائلٌ بركاني كثيف يندفع خببًا نحونا. بكى العقيد العجوز الذي كان مختبئًا في الفسحة الفاصلة بين عربتين: كانت تقف إلى جواره فتاة في نحو الثامنة من العمر متلفعة بدثار، وقد تشبثت بطرف قلنسوته، والريح تحمل بسرعة بعيدًا دخان سيجارة الجندي المدخِّن، الذي بدا كأنما يخرج من تحت الأرض. سرعان ما أصبح وقع حوافر الخيول مسموعًا، وبعد بضع دقائق من الانتظار المضني، كما في المسرح، بات مئات الفرسان على مقربة شديدة منا. بدأت كتلة خيالة بوديوني تتقلقل، وتناهت إلينا صرخات، وبعد فترة قصيرة بدأ كل شيء يتحرك: أخذت قوات بوديوني تتراجع، وراح الفرسان القادمون من الشمال يلاحقونها. ليس بعيدًا من حيث كنت أقف رَمَحَ ضابط في سترة شركسية على حصانه، وهو يلتفت وراءه في كل لحظة ويصرخ بكلام ما؛ ورأيت أن ليس فقط جنوده، الذين كانوا يلحقون به، لم يكونوا يفهمون شيئًا مما يقول، بل هو أيضًا لم يكن يعرف ماذا يريد أن يقول ولماذا. بعد ذلك مباشرة رأيت مرة أخرى العقيد العجوز الذي كان يبكي قبل قليل، وكان الآن متوجهًا إلى عربته المدفأة وعلى وجهه تعبير ينمُّ عن القيمة والأهمية، وتوقف الدخان الذي كان يتصاعد من تحت العربة، وخرج الجندي من هناك وصاح بي:

- آه، الحمد لله!

وهرع راكضًا جانبًا إلى مكان ما.

بعد يوم آخر من الضياع بين ما لا يُحصى من عربات القطارات وقطارات البضائع وقوافل العربات، عثرتُ على أولئك الأربعين شخصًا الذين لا يزالون يحملون اسم القطار المصفح «دخان»، مع أن القطار المصفح لم يعد له وجود. كان الجيش يتلاشى بمرور كل ساعة: أرتاله تهدر على الطريق المتجمِّد، يختفي الجيش وراء الأفق، وضجيجه وحركته يُحملان مع الريح القوية. حدث هذا يومَي السادس عشر والسابع عشر من شهر أكتوبر، وفي العشرين من ذلك الشهر نفسه، بينما كنت جالسًا في بيت خشبي من بيوت الفلاحين، غير بعيد عن مدينة فيودوسيا، وأتناول خبزًا مع مربى، غامسًا إياه في حليب ساخن، دخل الغرفة بوجه منفعل وباسم زميلي في الخدمة ميتيا «المركيز». أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه، عندما سألوه مرة عن أكثر كتاب أعجبه من بين جميع الكتب التي قرأها، قال إنها رواية لكاتب فرنسي غير معروف لكن لا شك في أنه كاتب جيد، كان عنوانها «الكونتيسة الفقيرة»(39). قرأت هذه الرواية لأن ميتيا كان يحملها معه؛ الشخصيات الرئيسية فيها أشخاص ذوو ألقاب؛ ولم يكن ميتيا يستطيع قراءة كتب كهذا الكتاب من دون انفعال، مع أنه هو نفسه وُلِد في مقاطعة يكاترينسلافسكايا، ولم يرَ في حياته مدينة كبيرة واحدة ولم يكن لديه أي تصور عن فرنسا، لكن الكلمات «مركيز» و«كونت» وخصوصًا «بارون» كانت ممتلئة بمعنى عميق بالنسبة إليه، ولذلك

أطلقوا عليه لقب «مركيز».

- لقد استولوا على جانكوي.

قالها ميتيا المركيز بالفرح الذي كان ينتابه دائمًا، حتى في الحالات التي يخبر فيها أكثر الأخبار إثارةً للحزن؛ لكن كل حدث ضخم كان يثير فيه شعورًا بالسعادة لأنه، هو ميتيا المركيز، بقي سليمًا مرة أخرى؛ وبما أن أشياء مهمة كهذه قد بدأت تحدث، فهذا يعني أن أشياء أكثر إثارة للاهتمام سوف تحدث لاحقًا. أذكر أن ميتيا المركيز، في أكثر الظروف صعوبة، حتى لو قُتل أحدهم أو أُصيب بجرح مميت، كان يقول بحيوية وهو يأخذ نفَسًا عميقًا ليخفي ضحكته غالبًا: «لقد قطعوا رِجل فيليبينكو، وأصيب تشرنَوسوف بجرح في بطنه، والملازم سانين في يده اليسرى: قدرٌ محض!».

قال ميتيا:

- استولوا على جانكوي، هذا يعني أن الأمور سيئة.

كانت مدينة جانكوي تقع بالفعل في هذه الجهة من التحصينات، أي في القرم. جانكوي: المصابيح التي تعمل بالكاز على رصيف محطة السكك الحديدية، النساء الداخلات إلى عربتنا، شرائح اللحم من محطة القطارات، مذكرات يوليوس قيصر، لافينوف، أحلامي، وفي الحلم يليزافيتا ميخائيلوفنا. مرَّت بجوار القرية أربعة قطارات، الواحد تلو الآخر، متوجهةً إلى مدينة فيودوسيا. بعد بضع ساعات من السفر نحن أيضًا صرنا هناك؛ كان الوقت مساءً، وخصصوا لنا شقة في متجر فارغ، استخدمنا أرففه العارية أسرَّة. كان زجاج المتجر محطمًا، وفي المستودعات الفارغة يتردد الصدى المدوي لأحاديثنا، وبدا كأن أشخاصًا آخرين، قرناءنا، يتحدثون ويتجادلون على مقربة منا، وكانت كلماتهم تتضمن معنى حزينًا وحتميًّا، لم نكن نحن أنفسنا نستوعبه؛ لكن الصدى كان يُصعِّد أصواتنا ويجعل عباراتنا ممدودة أكثر، وبسماعنا إياها بدأنا نفهم أن شيئًا غير قابل للإصلاح قد حدث. سمعنا بوضوح ما لم نكن لندركه لولا الصدى. لقد رأينا أننا نرحل، لكننا كنا نفهم ذلك فقط من منظور مباشر، ولم تذهب مخيلتنا أبعد من تصوراتنا عن البحر والمراكب، بينما الصدى أوصل إلينا شيئًا جديدًا، غير اعتيادي، كأنما كان قادمًا من تلك البلدان التي لم نكن فيها بعد، لكن المقدر لنا أن نعرفها الآن.

عندما وقفت على ظهر الباخرة ونظرت إلى مدينة فيودوسيا التي تحترق - كان حريق مشتعلًا في المدينة - لم أفكر في أنني أهجر بلدي، ولم أشعر بذلك إلا حين تذكرت كلير. قلت في نفسي: «كلير»، ورأيتها فورًا في الغيمة الفرائية لمعطفها الفرو؛ كانت المياه والنيران تفصلانني عن بلدي وبلد كلير؛ واحتجبت كلير وراء جدران من نار.

ظلَّت شواطئ روسيا تلاحق الباخرة طويلًا بعد ذلك: كان رمل فوسفوري اللون يتساقط على

البحر، وتتقافز في المياه أسماك الدولفين، وتدور عنفات الباخرة بصوت أصم وجوانبها تَصرُّ؛ من الأسفل، من عنبر الباخرة، كانت تُسمع تمتمة النساء الناشجة وضجة الحبوب المحمَّلة في السفينة. صار حريق فيودوسيا يلوح أبعد فأبعد وأضعف فأضعف، وضجة الآلات تغدو أصفى وأعلى؛ وبعد ذلك، حين صحوت للمرة الأولى، رأيت أن روسيا قد تلاشت وأننا نمخر عباب البحر، محاطين بمياه ليلية زرقاء، تظهر فيها أسماك الدولفين وتختفي، وبسماء كانت من القرب إلينا كما لم تكن من قبل قَطُّ.

لكن كلير فرنسية، تذكرتُ فجأة، وما دام الأمر كذلك، لماذا إذن كان هذا الأسى المستمر والمتوتر على الثلوج والسهول الخضراء وعلى كمية الحياة كلها التي أمضيتُها في البلد، وقد احتجبَت عني وراء ستارة نارية؟ ورحت أحلم كيف سألتقي كلير في باريس، حيث وُلدَت وإلى حيث ستعود حتمًا. رأيت فرنسا، بلد كلير، وباريس، وميدان الكونكورد: وتَمثل لي الميدان مختلفًا عن الميدان المصور في البطاقات البريدية، بمصابيح ونافورات وتماثيل برونزية ساذجة؛ تركض على التماثيل خيوط الماء بلا انقطاع وتومض ببريق داكن؛ تَمثل لي ميدان الكونكورد مختلفًا فجأة. لقد كان موجودًا فيَّ دائمًا؛ غالبًا ما كنت أتخَيلني وكلير هناك، ولم تكن تصل إلى هناك أصداء حياتي السابقة وأشكالها، كأنما كانت تصطدم بجدارٍ هوائي غير مرئي؛ هوائي لكنه منيع بقدر مناعة الحاجز الناري الذي كان الثلج يستلقي وتتردد إشارات روسيا الليلية الأخيرة وراءه. كانت الأجراس تدق على متن الباخرة، وقد ذكرتني ضرباتها فورًا بالخليج في سيفاستوبول، المغطى بعدد كبير من السفن والمراكب، التي كانت أضواؤها تومض، وفي ساعة محددة ترنُّ دقات الساعات على متون هذه السفن كلها؛ بعضها منخفضة ومرتجة، وأخرى صماء، وثالثة رنانة. كانت أجراس الباخرة تصلصل فوق البحر، فوق الأمواج المغمورة بالنفط؛ وكانت الأمواج ترتطم برصيف المرفأ، وفي الليل كان ميناء سيفاستوبول يُذكِّرني بصور المواني اليابانية البعيدة، الغافية فوق المحيط الأصفر؛ موانٍ بسيطة جدًّا إلى درجة أنها عصية على فهمي. رأيت مواني يابانية وفتيات نحيلات في بيوت صغيرة من الكرتون، بأصابعهن الرقيقة وأعينهن الضيِّقة، وشعرت بأنني أحزر فيهن ذلك المزيج الخاص من العفة وقلة الحياء، الذي كان يجبر الرحالة والمغامرين على التطلُّع إلى هذه الشواطئ الصفراء، إلى هذا السحر المنغولي الواهن والرنان كالهواء الذي يتحول إلى زجاج ملون شفاف. أبحرنا طويلًا في البحر الأسود؛ كان باردًا نوعًا ما. كنت جالسًا متدثرًا بمعطف، وأفكر في المواني اليابانية، في شواطئ بورنيو وسومطرة، ولم يغادر ذهني المنظر الطبيعي لشاطئ رملي منبسط تنمو عليه أشجار نخيل سامقة. بعد ذلك بوقت طويل قُدِّر لي الاستماع إلى موسيقى هذه الجزر؛ تلك الموسيقى الممطوطة والرجراجة، الشبيهة بصوت المنشار الراعش الذي ما زلت أتذكره من ذلك الزمن، عندما كنت في الثالثة من العمر؛ وعندها، في

تدفَّق موجة من السعادة المباغتة، راودني شعور فَرِح ومعقَّد بلا حد، عاكسًا في ذاته المحيط الهندي، وأشجار النخيل، ونساء زيتونيات اللون، والشمس الاستوائية الساطعة، وأجمات النباتات الجنوبية الرطبة التي تخفي رؤوس أفاعٍ ذات أعين صغيرة؛ ظهر ضباب أصفر فوق هذه الخضرة الاستوائية وتضفَّر متصاعدًا بشكلٍ سحري واختفى، ومرة أخرى نقلني صوت المنشار الممتد والراعش، طائرًا آلاف وآلاف الفِرستات، إلى بطرسبورج بمياهها الجليدية المتجمدة التي حوَّلتها قوة الصوت الربانية ثانيةً إلى المنظر الطبيعي البعيد لجزر المحيط الهندي؛ وكشف المحيط الهندي أمامي، كما في الطفولة في حكايات أبي، حياة غير مكتشفة، صاعدة فوق الرمال الساخنة ومحمولة، كالريح، فوق أشجار النخيل.

سافرنا إلى القسطنطينية على وقع صلصلة جرس الباخرة؛ وحتى في الباخرة كنت قد بدأت أعيش حياة مختلفة، كان انتباهي كله فيها موجهًا نحو انشغالات تتعلق بلقائي المستقبلي بكلير، في فرنسا، إلى حيث سأسافر من إسطنبول القديمة. كانت تتزاحم في رأسي آلاف المواقف والأحاديث المتخيلة، وهي تتقطع، وتحل أخرى محلها؛ غير أن الفكرة الأشد روعة كانت فكرة أن كلير، التي غادرتُها ليلًا في الشتاء، كلير التي يغمرني ظلُّها، وحين أفكر فيها يصبح صوت كل ما يحيط بي فجأةً أهدأ وأخفت، فكرة أنَّ كلير هذه ستصبح لي. ومرة أخرى جسدها العصيُّ على البلوغ، الأكثر استحالة مما كان دائمًا، تجلى أمامي في مؤخرة السفينة المغطاة بأشخاص نيام وأسلحة وأكياس. لكن ها هي السماء قد تلبدت بالغيوم، وأصبحت النجوم غير مرئية، ونحن نبحر في عتمة ظلام البحر نحو مدينة غير مرئية، تتشكل خلفنا هُوًى هوائية، وفي السكون الرطب لهذه الرحلة يصلصل الجرس من حين إلى حين، والصوت الذي يشيِّعنا حتمًا، وحده صوت الجرس، كان يوحِّد، في شفافيته الزجاجية البطيئة، الأقاصي المضيئة والمياه التي تفصلني عن روسيا، وحلمًا متلعثمًا ومشوَّهًا: حلمًا رائعًا عن كلير.

باريس، يوليو ١٩٢٩

الكاتب

جايتو جازدانوف روائي وقاصٌّ وناقد أدبي روسي، من أصل أوسيتي. وُلِد عام ١٩٠٣، وفي السادسة عشرة من عمره قطع دراسته ليلتحق بالجيش الأبيض المناهض للشيوعيين، وحارب في صفوفه حتى خروج هذا الجيش من القرم عام ١٩٢٠. تبع بعد ذلك طريق الهجرة الروسية التقليدية، إلى تركيا، ثم بلغاريا، حيث أنهى دراسته الثانوية، وأخيرًا استقر في باريس عام ١٩٢٣. هناك تنقَّل بين أعمال متعددة حسب الظروف: فكان حمالًا، ومنظف عربات القطار، وميكانيكيًّا في مصنع سيتروين، ومُدرِّس لغة فرنسية ولغة روسية، ومُتسكعًا. وعمل سائق سيارة أجرة ليليًّا أكثر من خمس وعشرين سنة. وقد سمح له عمله الليلي بمتابعة دراسات عليا في السوربون، فدرس تاريخ الأدب، والألسن، وعلم الاجتماع.

كتب أولى قصصه، «فندق المستقبل»، في القسطنطينية عام ١٩٢٢، ونشرها عام ١٩٢٦ في مجلة أدبية في براغ. منذ ذلك الحين، نشر المقالات الصحفية والأدبية بشكل مستمر في أهم مجلات الاغتراب الروسي، وأصدر أول رواية له، «أمسية عند كلير»، عام ١٩٢٩، ونالت استحسانًا كبيرًا. نشر ٩ روايات، منها: «عودة البوذا» و«دروب ليلية»، و«طيف ألكسندر ولف»، ونحو ٤٠ قصة، وعددًا من الأعمال النقدية. وقد لُقب بـ«ألبير كامو الروسي» لتأثر كتاباته بالفلسفة الوجودية.

انتقل للعيش في ميونيخ ابتداء من عام ١٩٥٣، حيث عمل في «راديو ليبرتي»، وبقي في هذه المدينة حتى وفاته جراء سرطان في الرئة عام ١٩٧١.

أُهملت أعماله بعد وفاته، وأُعيد اكتشافها في تسعينيات القرن الماضي، فتربَّعت على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا في بلدان أوروبية عديدة. «طيف ألكسندر ولف» أول رواية نُشرت له بالعربية، وبعد النجاح الذي حققته، أضافت دار الكرمة عنوانًا عربيًّا ثانيًا له، رواية «أمسية عند كلير»، إلى سلسلة «ترجمات الكرمة».

المترجم

هَفال يوسف مترجم ومحرر. ولد عام ١٩٦٨ في مدينة القامشلي في سوريا. درس في دمشق وسانت بطرسبورج، حيث تعلم اللغة الروسية واهتم بالأدب الروسي.

من أبرز ترجماته: «ملكوت الله في داخلكم» و«الحاج مراد» لليف تولستوي، و«المعلم ومارغريتا» و«حياة السيد موليير» لميخائيل بولغاكوف، و«الأمسيات في قرية قرب ديكانكا» لنيكولاي غوغول.

ترجم لجايتو جازدانوف لدى دار الكرمة «طيف ألكسندر ولف» و«أمسية عند كلير».

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

٢. سالباتيبرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.

٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.

٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.

٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.

٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٩. بندقية صيد - ياسوشي إينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - أليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤١. سأبقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤٢. نادي القتال - تشاك بولانيك. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٤٣. ديرمافوريا - كريج كليفنجر. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٤٤. المولود من ذي قبل - خوان خوسيه ساير. ترجمها عن الإسبانية: محمد الفولي.

٤٥. ثلاثية - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٤٦. ملحمة أنيت - أنّه فيير. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٤٧. الفجيعة - جني إربنبك. ترجمها عن الألمانية: نبيل الحفار.

٤٨. الواقعون - كارلوس مانويل ألباريس. ترجمها عن الإسبانية: أحمد محسن.

٤٩. مسيو إبراهيم وزهور القرآن - إريك-إيمانويل شميت. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٥٠. جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس - ماري آن شيفر وآني باروز. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٥١. سدهارتا: قصيدة هندية - هرمان هسه. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٥٢. محادثة ليلية - ساشا ناسبيني. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٥٣. أحد الرجال - كينتشيرو هيرانو. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٥٤. المكتبة المتنقلة - كريستوفر مورلي. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٥٥. القفزة - سيمونه لابرت. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٥٦. الميراث والوصية - فيجديس يوت. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وسها السباعي.

٥٧. ثورة القمر - أندريا كاميلليري. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٥٨. لا تكذب أبدًا - فريدا مكفادن. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٥٩. أبريل الساحر - إليزابيث فون أرنيم. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٦٠. أوهام العقل - برنلف. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٦١. بدافع القتل - أنتوني هورويتز. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٦٢. صمت الحملان - توماس هاريس. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٦٣. الشطرنج - شتيفان تسفايج. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٦٤. أمسية عند كلير - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هَفال يوسف.

٦٥. ريبيكا - دافني دو موريه. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

٦٦. مكتبة الكلمات المفقودة - ستيفاني باتلاند. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.

هوامش

(1) كل الحوارات بين كلير والراوي بالفرنسية في النص الروسي الأصلي.(المترجم - وجميع الهوامش التالية للمترجم).

(2) أفاكوم بيتروفيتش (حبقوق بتروف) (١٦٢٠ أو ١٦٢١-١٦٨٢)، قس روسي كان المعارض الأهم للإصلاحات التي أدخلها البطريرك نيكون في كنيسة روسيا الأرثوذكسية في القرن السابع عشر. سُجن، ونُفي إلى شمال البلاد، وأعدم حرقًا في النهاية. كتب في منفاه سيرته، وقد أعاد كُتاب القرن التاسع عشر اكتشافها وتقديرها أدبيًّا.

(3) كان النظام المدرسي الروسي مقسومًا إلى مرحلتين: المدرسة الابتدائية (من الصف الأول إلى الرابع، من ٦ سنوات إلى ١٠ سنوات)، والمدرسة الثانوية (من الصف الخامس إلى الحادي عشر، من ١١ سنة إلى ١٧ سنة).

(4) مدرسة حربية للنشء بين عمرَي الثماني سنوات والخمس عشرة سنة، لتحضيرهم إلى مستقبل ضباط في الجيش. بقيت هذه المدارس إلى أن ألغتها الثورة الروسية.

(5) وحدة روسية لقياس المسافة كانت معتمدة قبل الثورة، تساوي تقريبًا ١.٦٦٨ كيلومتر.

(6) سفينة أسطورية من دون بحارة محكوم عليها بالإبحار إلى الأبد وتُعد نذير شؤم لمن يراها.

(7) أناستازيا فيربيتسكايا (١٨٦١-١٩٢٨) كاتبة روايات رومانسية روسية داعمة لتحرر المرأة.

(8) ميخائيل بيتروفيتش أرتصيباشِف (١٨٧٨-١٩٢٧) كاتب روسي تتسم قصصه بالتحرر الأخلاقي.

(9) بما أن المشرف التربوي هو معلِّم اللغة الروسية، يلعب جازدانوف هنا بالكلمات فيقول «بالطريقة الزعرانية» (زعرانية من «أزعر» بمعنى مشاغب) التي تشبه صوتيًّا، في النطق الروسي، القول: «باللغة الروسية».

(10) نوع من الديدان تخرج إلى سطح الأرض عند هطول المطر.

(11) مفردها «قَداد» (بالإنجليزية: Hamster)، وهو حيوان من فصيلة القوارض يشبه الفأر.

(12) مفردها «سَوْلَق» وهو حيوان من القواضم.

(13) التفاح الأبيض نوع خاص من التفاح ينمو في منطقة البلطيق، وقد بدأت زراعته في أوروبا الغربية في بدايات القرن التاسع عشر.

(14) الاسم المستعار للكاتب م. ف. ساميجين (١٨٧٤-١٩٥٢) الذي كتب بعض القصص الرمزية ثم حقق بعض الشعبية بأعمال إيروتيكية مكتوبة بأسلوب متكلف.

(15) إحدى الشخصيتين الرئيسيتين في مسرحية الكاتب الألماني جرهارت هاوبتمان، «الجرس الغارق» (١٨٩٦).

(16) الحزب الدستوري-الديمقراطي، ويُختصَر بالروسية بحروفه الأولى KD، أسس في

موسكو في أكتوبر عام ١٩٠٥، وأجبرت قياداته على الاغتراب بعد انتصار البلاشفة في الحرب الأهلية. هاجر أغلبهم إلى باريس حيث تابعوا نشر صحفهم السياسية حتى الحرب العالمية الثانية.

(17) ألفونس هو الشخصية الرئيسية في مسرحية ألكسندر دوما الابن الكوميدية: «مسيو ألفونس».

(18) رسم تحضيري، والروسية تستخدم الكلمة الفرنسية له.

(19) المقصود هو الاشتراكي الفرنسي الطوباوي شارل فوريه.

(20) نسبة إلى طائفة «رَسْكول» الدينية، وهي حركة انشقاقية نشأت في روسيا في القرن السادس عشر رفضًا للإصلاحات الكنسية التي جرت آنذاك، قادها القُمص أفاكُوم بيتروفيتش (حبقوق بيتروف) الذي ورد ذكره سابقًا، وسيرد ذكره في الرواية لاحقًا أيضًا.

(21) القوزاق القوميون الأوكرانيون.

(22) أسطورة من القرون الوسطى وردت في كتابات الراهب والشاعر جوتييه دو كوانسي في ذلك الوقت، واستوحى منها أناتول فرانس قصة قصيرة في مجموعة أصدرها في عام ١٨٩٢، واقتبس هذه القصة جول ماسينيه للأوبرا في عام ١٩٠٢، والموضوع رقَّاص يقدم رقصه إلى السيدة العذراء لأن هذا ما يجيده، فهو غير متعلم وغير متبحر في العلوم الدينية، وقبل أن يوقفه الرهبان عن تأدية رقصته تحصل أعجوبة تُظهر أن العذراء تقبلت طريقته الخاصة في تمجيدها.

(23) السيرة التي كتبها تلميذه بافل بيريوكوف.

(24) مَن يتلقون التعليم المسيحي ولم يُعمدوا بعد. كان يُطلب منهم الخروج من الكنيسة قبل سر القربان المقدس الذي يُسمح للمسيحيين فقط بحضوره.

(25) أعلى درجة في النظام الأكاديمي الروسي.

(26) هنا إشارة إلى لعبة ورق تُسمى «الحمقى»، هدفها التخلص من الأوراق التي في اليد، واللاعب الذي تبقى معه أوراق في النهاية يكون «الأحمق».

(27) «لابو-ناجرودسكايا» جمع ساخر بين كنيتَي الكاتبتين الروسيتين ناديجدا ألكسندروفنا لابو-دانيلوفسكايا (١٨٧٤-١٩٥١) وإفدوكيا أبولونوفنا ناجرودسكايا (١٨٦٦-١٩٣٠). تتمحور مؤلفات لابو-دانيلوفسكايا حول حياة الأرستقراطيين والطبقة المخملية وأهل الفن. أما إفدوكيا ناجرودسكايا فقد حظيت بشهرة واسعة في الثلث الأول من القرن العشرين، وتناولت روايتها الأولى، «غضب ديونيزوس»، المشكلات الجنسية، وتغنَّت بالحب الحر، وعرفت نجاحًا كبيرًا منذ طبعتها الأولى عام ١٩١٠.

(28) من الواضح أن العلماء لم يكونوا قد اكتشفوا أن الجنادب تُصدر صريرها بواسطة جوانحها، وليس أفواهها، في زمن كتابة هذه الرواية.

(29) المنصة هي ساحة خالية من العربات على متن القطار المصفح، مخصصة للمدرعات

والأسلحة، وتُستخدم مؤخرةً للجيش ومقرًّا للقيادة.

(30) وحدة روسية لقياس الوزن كانت معتمدة قبل الثورة، تساوي ١٦.٣٨ كيلوجرام.

(31) وحدة روسية لقياس الطول كانت معتمدة قبل الثورة، تساوي ١١٣ سنتيمترًا.

(32) نستور ماخنو (١٨٨٨-١٩٣٤) رئيس حركة أناركية استقلالية في أوكرانيا، حاربت البيض والحمر في الحرب الأهلية الروسية.

(33) بافلو سكوروبادسكي (١٨٧٣-١٩٤٥) جنرال أوكراني نصَّبه الألمان «هتمان» أو قائدًا على أوكرانيا بضعة أشهر في العام ١٩١٨.

(34) سيمون بتلورا (١٨٧٩-١٩٢٦) أحد أهم أعضاء الحركة الوطنية الأوكرانية التي حاربت البيض والحمر في الحرب الأهلية الروسية، وهو الرئيس الثالث لجمهورية أوكرانيا الشعبية (التي وُجدت بشكل متقطع بين ١٩١٧ و١٩٢١).

(35) يوري سابلين (١٨٩٧-١٩٣٧) قائد روسي شارك في انتفاضة الحزب الثوري الاشتراكي ضد البلاشفة في ٦ و٧ يوليو ١٩١٨.

(36) تشمل مقاطعة بطرسكايا مدينة بطرسبورج وضواحيها وأريافها.

(37) إشارة إلى فاليرا ميسالينا، الزوجة الثالثة للإمبراطور الروماني كلوديوس، التي انخرطت في مؤامرات القصر، فأُعدمت بقطع رأسها.

(38) سيميون بوديوني (١٨٨٣-١٩٧٣)، قائد سلاح الفرسان في الجيش الأحمر في أثناء الحرب الأهلية الروسية.

(39) رواية للكاتب ألماني اللغة هاينريش زوخاتشفسكي (١٨٦١-١٩٢٢) وقد كتب تحت الاسم المستعار: «فيكتور فون فولك».